كتاب التعاون

دكتورة سعاد ابراهيم صالح

علاقة

فى الشريعة الإسلامية

دراسة
فقهية
مقارنة

• الطبعة الثالثة •

الغلاف :

الفنــان : طلعــت رزق

سكرتير التحرير التنفيذى :

نــزيه عــبد الغنــى

نائب المدير العام للاعلانـات :

ابراهيم ابو الخيـر

مؤسسة دار التعاون
للطبع والنشر
كتاب التعاون

رئيس مجلس الإدارة:
محمد رشاد
رئيس التحرير:
سعيد نور الدين

٦ شارع عبد القادر حمزة - جاردن سيتي - القاهرة - تليفون ٣٥٤٣٣١٣

مقدمة الطبعة الثالثة

أحاط الاسلام علاقات الآباء بالأبناء بسياج من الضمانات التى تكفل بناء أسرة سليمة ومجتمع قوى ، وقد كان هذا الكتاب ثمرة تأمل فى هذه الضمانات من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

وقد مرت سنوات منذ صدرت الطبعتان الأولى والثانية . وهذه هى الطبعة الثالثة تصدر برعاية مؤسسة دار التعاون تعميما للفائدة مما فيه . وليتنا ـ نحن المسلمين ـ نعود الى الاصول وننهل من المنابع ونتمسك بعقيدتنا السمحة وشريعتنا الغراء وآدابنا واخلاقياتنا الاسلامية الكفيلة ببناء مجتمع متسامح متكافل قوى قادر على قيادة البشرية لما فيه خيرها .

والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير والصلاح إنه نعم المولى ونعم النصير .

أ . د سعاد ابراهيم صالح

مقدمة الطبعة الثانية

سيظل المسلمون بخير ما تمسكوا بدينهم والتزموا بأحكامه .. فنفذوا أوامره واجتنبوا نواهيه ..

وسيصل المسلمون الى التطبيق الصحيح لأحكام الإسلام إذا تعلموها وعلموها ودرسوها وتدارسوها .. وعرفوها وعرفوا بها .. وهذه كلها واجبات على كل قادر ..

وقد سعيت لأن أقدم إسهاما متواضعا لتعريف المسلمين بأحكام الإسلام فى شأن من أَجَلِّ الشئون .. فكان كتابى « علاقة الآباء بالأبناء فى الشريعة الإسلامية » .

وقد سعدت بما عرفت من الأخوة فى تهامة من نفاد الطبعة الأولى من الكتاب والرغبة فى إصدار طبعة ثانية .. وأسأل الله أن يعم الجميع بنفعه .. وأن يوفق المسلمين للعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ .. وهو نعم المولى ونعم النصير .

المؤلفة

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله خلق الانسان وميزه على سائر مخلوقاته ، واصطفى من ذرية آدم أنبياء ورسلا حملوا مشعل الهداية ليضيئوا أمام البشرية الطريق لما فيه خير الدارين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

فان الله سبحانه وتعالى خلق الكون فأحسن صنعه ، وخلق الانسان فأبدع صورته ، واستخلفه فى الأرض ليعمرها ، واقتضت ارادة الله ألا يعمر آدم الأرض فردا ، ولا هو وزوجه ، وإنما بمن يأتى من أبناء آدم ، جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وأمة بعد أمة ، فكان التزاوج وسيلة للتناسل وكان التناسل وسيلة لاستمرار الحياة . . وبقدر ما ينشأ بين الناس من علاقات وروابط فان علاقة الآباء بالأبناء هى أقوى هذه العلاقات وأعمقها وأكثرها تأثيرا فى نفس كل طرف من طرفى هذه العلاقة ، فهى ليست علاقة التقاء وانما هى علاقة اشتقاق ، أو هى مايعبر عنه الفقهاء بعلاقة البعضية او الجزئية ، فالولد هو بعض الأب أو هو جزء منه ، أى أن الأب أصل والابن فرع ، وليس بين علاقات البشر ماهو مثل

علاقة الأصول والفروع بما تحويه من جوانب نفسية ، ومظاهر اجتماعية ، وتبادل للحقوق والواجبات .

وبسبب قوة هذه العلاقة وعمقها . وكذلك بسبب مظاهرها وآثارها الهامة فى تكوين المجتمع أولاها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عناية بالغة . فإذا كانت الأسرة هى عماد المجتمع وهى نواته الأولى فإن من الطبيعى أن يكون لتكوين الأسرة أثره فى بناء المجتمع ، إن قوة فقوة . . وان ضعفا فضعفا . ولأن الأسرة هى زوج وزوجة وأبناء فقد كان من الطبيعى ان يحرص الاسلام فى بنائه للمجتمع المسلم على أن يقيم بناءه على أسس متينة ولذلك فلا عجب فى أن نرى اهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بإرساء علاقات الآباء بالأبناء على أسس قويمة ترعى حقوق الابن من قبل ان يولد ، بل حتى من قبل أن يستقبله رحم الأم الى أن يصير رجلا ، كما ترعى حقوق الآباء فى الاحسان والبر والرعاية والمعاملة بالمعروف .

وحين نتأمل هذه العلاقة نرى فيها مايعتبر حقا خالصا للأبناء ، ونجد فيها مايعتبر حقا خاصا بالآباء ، ونرى فيها مايعتبر حقا متبادلا ، كما نرى فيها مايدور بين الحق والواجب . وفى كل الحالات نرى بوضوح حرص الإسلام على أن تؤدى هذه الحقوق بالإحسان والمعروف .

وقد اجتهد الفقهاء فى تفسير ما ورد من آيات كريمة فى شأن هذه العلاقة ، وما روى من أحاديث نبوية ، واتفقوا فى بعض المواضع واختلفوا فى مواضع أخرى . ولانكاد نجد بابا من أبواب الفقه يخلو من حديث فى أحد وجوه هذه العلاقة . ومع كل التفصيل فى بيان هذه الوجوه الا أن تفرقها فى مواضع عدة يجعل من العسير على غير الباحث المتخصص أن يتعرف على هذه الوجوه ، بل إن الأمر يتطلب من الباحث جهدا غير يسير ليلم بكافة أطراف الموضوع .

من هنا كانت فكرة هذا الكتاب ، محاولة الإلمام بأطراف الموضوع من كافة نواحيه ، وبيان ما اتفق الفقهاء عليه وما اختلفوا فيه .

ويشتمل الكتاب على ثلاثة عشر مبحثا فى : بر الوالدين ، واجبات الآباء ، الرضاع ، الحضانة ، الولاية ، النفقة ، الهبة ، الشهادة ، المحرمات ، حد القذف ، حد السرقة ، القصاص ، الميراث .

وقد التزمت فى دراسة موضوع الكتاب المنهج الاستنباطى الذى يعتمد على الاستقراء والتحليل لاستجلاء عناصر كل نقطة من نقاط البحث واستيفاء حقها من الدرس ، مع عرض الآراء بايجاز فيما يقتضى الايجاز ، وتفصيل لما يحتاج الى تفصيل ، مع بيان لوجهات نظر المذاهب الفقهية وأدلة كل مذهب فى النقاط الخلافية ، وتوخى الدقة فى ترجيح رأى دون آخر مع عدم التقليل من وجاهة الرأى المعارض ، كما التزمت تخريج الآيات الواردة فى البحث من القرآن الكريم وتخريج الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية ، كذلك حرصت فى تقصى آراء الفقهاء على الاعتماد على المصادر الفقهية المعتمدة .

أسأل الله أن أكون قد وفقت ، وأستميح القارىء الكريم عذرا عما قد يراه من خطأ أو قصور . . هما من طبيعة البشر .

والله من وراء القصد ، وهو سبحانه وتعالى الهادى الى سواء السبيل .

سعاد ابراهيم صالح

جدة فى شهر ذى القعدة ١٤٠٠هـ
سبتمبر ١٩٨٠م

المبحث الأول

بر الوالدين

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿١٥١﴾

« سورة الأنعام ـ آية ١٥١ »

بر الوالدين

الاسلام دين الرحمة ، دين الحب والبر ورعاية الجميل ، وهو الى جانب ذلك دين الحق فى كل مايقرر ، فاذا أثنى على أمر خيرا أو أوصى بحقه فانه يبنى ذلك على حقائق جليلة ، ولحكم سامية ، ولتحقيق مصالح عظيمة .

ولقد جعل الله بين الناس ضروبا من الصلة يتراحمون بها ويتعاونون على دفع المضار وجلب المنافع ، وأقوى هذه الصلات صلة الرحم ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ① ﴾ (١) .

هذه الآية الكريمة فيها تعظيم لحق الرحم ، وتأكيد للنهى عن قطعها ، وقد روى عن النبى ﷺ فى تعظيم جرمة الرحم ما يواطىء ما ورد به التنزيل ؛ فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ان الرحم شجنة (٢) من الرحمن فقال الله : « من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته » (٣) . وعنه عن النبى ﷺ انه قال : « ان الله خلق الخلق حتى اذا فرغ من خلقه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب قال : هو لك ، قال رسول الله ﷺ فاقرءوا إن شئتم

---

(١) سورة النساء - آية١

(٢) شجنة : الشجن واحد الشجون وهى طرق الأودية ، وهنا الرحم شجنة من الرحمن أى مشتقة من اسم الرحمن تعالى فمن وصلها وصله الله بلطفه واحسانه .

(٣) رواه البخارى والترمذى ، التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول جـ٥ ص٩

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١).

فثبت بدلالة الكتاب والسنة وجوب صلة الرحم واستحقاق الثواب بها . وأقواها ما يكون بين الأولاد والوالدين من العاطفة ، فمن اكتنه السر فى عطف الأب على ولده يجد فى نفسه دواعى فطرية تدفعه الى العناية بتربيته حتى يكون رجلا مثله ، فهو ينظر اليه كنظره إلى بعض اعضائه ، ويعتمد عليه فى مستقبل أيامه ، ويجد فى نفس الولد شعورا بأن أباه كان منشأ وجوده وممد حياته وقوام تأديبه وعنوان شرفه ، وبهذا الشعور يحترم الابن أباه . وبتلك الرحمة يعطف الأب على ابنه ويساعده (٢). قال الله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٣) .

إن صلة الآباء بالابناء صلة فطرية مدفوعة بحب البقاء الذى يدفع الانسان الى افراغ محبته فى ذريته وولده ، اذ يرى فى نسله امتدادا لحياته واحياء لذكراه . ولذا كانت الذرية زينة الحياة الدنيا ، فقال تعالى :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (٤).

---

(١) سورة محمد - آية ٢٢ - ٢٣ والحديث رواه البخارى ، التاج الجامع جـ ٥ ص١٠

(٢) يراجع تفسير المنار لرشيد رضا جـ ١٢ ص : ٨٤ وما بعدها

(٣) سورة النحل - آية ٧٢

(٤) سورة الكهف - آية ٤٦

وانما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن فى المال جمالا ونفعا ، وفى البنين قوة ودفعا ، فصارا زينة الحياة الدنيا(١) وقال سبحانه :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴿١٤﴾ ﴾(٢)

فالمرتبة الثانية من المشتهيات حب الولد . ولما كان حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى فلا جرم أن خصه الله تعالى بالذكر . ووجه التمتع بهم ظاهر من حيث السرور والتكثر بهم الى غير ذلك ، وأُخِّرَ فى الذكر عن حسب النساء لتأخره فى الوجود : اذ الأولاد من النساء ، والعلة الطبيعية لحب النساء أو الأزواج هى داعية النسل ، فهذه الداعية تحدث فى النفس انفعالا يحفز صاحبه الى الزواج . وأما حب الأولاد فيكاد يكون كحب النفس لاعلة له غير ذاته ، الا أن نقول إن عاطفة رحمة الوالدين بالولد منذ يولد هى غير عاطفة حبهما له وهى علته . ولكن حكمة الخالق فى حب الزوجية وحب الولد واحدة ، وهى تسلسل النسل وبقاء النوع . وهى حكمة مطردة فى غير الناس من الأحياء . هذا هو حب الولد من حيث هو ولد ، وقد يكون للولد محبات أخرى فى قلوب الوالدين كحب الأمل فى نصرته ومعونته ، وحب الاعتزاز به ، وهذا مما يشارك الأولاد فيه غيرهم وان كان فيهم أقوى ، لأن وجود المحبة اذا تعددت يغذى بعضها بعضا ، وحب الولد من حيث هو ولد يظهر فى وقت ذهاب الأمل فى فائدته بأشد مما يظهر مع الأمل فيها كحال الصغر والمرض . وقد قيل لبعض اصحاب الفطرة السليمة : « أى ولدك أحب اليك ؟ » . فقال : « صغيرهم حتى يكبر . وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يبرأ » .

أما كون حب البنين أقوى والتمتع به أعظم فله أسباب :

منها : الأمل فى نصرة الذكر وكفالته عند الحاجة اليه فى الضعف والكبر .

ومنها : أنه يرجى به من الشرف مالا يرجى من الأنثى ، كقيادة الجيش وزعامة القوم والنبوغ فى العلوم والأعمال ؛ لأن الأنثى - فى الغالب - يغلب عليها الخجل والحياء والرغبة فى التستر والحفظ .

---

(١) احكام القرطبي مجلد ٥ ص : ٤٠٣٠
(٢) سورة آل عمران - آية ١٤

ومنها : الشعور بأن الأنثى إنما تربى لتنفصل من بيتها وعشيرتها ، وتتصل ببيت آخر تكون عضوا من عشيرته ، فما ينفق عليها وما تعطاه يشبه الغرم (الدين) وخدمة الغرباء .

فمن تأمل هذه الفروق الوجودية - وان لم تكن كلها طبيعية - ظهر له وجه تخصيص البنين بالذكر ، وانه تخصيص موافق للفطرة والغريزة البشرية . على أن حب الوالدية الخالص للبنات قد يكون مساويا أو أقوى من حب البنين ولكن ما يغذيه ويقويه أقل ، فهو مثار للفتنة ايضا كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (١)

فذكر الأولاد عامة ، ولذلك قلنا بأن تخصيص البنين بالذكر ليس للحصر (٢) ومن هذا نستطيع أن نميز بين طورين فى محبة الولد :

الطور الأول :

طور الصغر ، وهو حب ذاتى لهم لاعلة له ولا فكر فيه ولاعقل ولا رأى ، بل هو حُنُوٌّ فطرى ورحمة ربانية عامة لجميع الحيوانات لا فرق فيها بين الانسان والهرة .

الطور الثانى :

طور التمييز والبلوغ ، وهو حب معلول معه فكر وهو المراد بالآية وهو حب الأمل والرجاء بالولد ، ولذلك كان خاصا بالبنين . وانما الحب على قدر الأمل ، فاذا خاب يضعف الحب وربما انقلب الى عداوة تستتبع التقاضى وطلب العقاب او الغرامة كما يقع ويشاهد كثيرا بيننا .

وقد بين القرآن الكريم أن حب الذرية فطرة فطر الله الناس عليها ، وأن

---

(١) سورة التغابن - آية ١٥

(٢) يراجع : تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص : ١٩٦ ، تفسير المنار لرشيد رضا جـ ٣ ص : ٢٤١ : ٢٤٣

الذرية منه ومنحة من الله تعالى : فقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)

فذكر ذلك فى معرض الامتنان واظهار الفضل ، ومدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء فقال :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٢) (٣)

ولأن الذرية هى منة من الله ومنحة فقد كانت مطلبا للرسل وعباد الله الصالحين ولنتأمل قوله تعالى :

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾ (٤)

أى نصيرا .

---

(١) سورة الرعد - آية ٣٨
(٢) سورة الفرقان - آية ٧٤
(٣) براجع احياء علوم الدين للغزالى المجلد الثانى ص : ١٩
(٤) سورة مريم - آية ٢ : ٥

وكانت رحمة الله تعالى لزكريا واسعة ، فمن صلبه ـ وقد بلغ من الكبر عتيا ـ ومن رحم امرأته ـ العاقر ـ رزقه الله ولدا ، لم يكن مجرد ولد ولكنه كان نبيا وصفه الله تعالى بقوله :

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ ﴾ (١)

وقال سبحانه :

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥ ﴾ (٢)

واذا كان الامر كذلك فإن هذه النعمة يجب ان تقابل بالشكر وهكذا نرى الخليل ابراهيم عليه السلام يتوجه الى الله تعالى بالشكر على ما من عليه به من النسل الصالح اذ يقول :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩ ﴾ (٣) ..

---

(١) سورة مريم ـ آية ٧

(٢) سورة مريم ـ آية ١٢ : ١٥

(٣) سورة ابراهيم ـ آية ٣٩

والذرية مطلوبة فى الكبر وفى الصغر على حد سواء والذرية الصالحة هى خير مايرزق به الإنسان وهكذا كان دعاء الانبياء الى الله بطلب الذرية مقرونا بأن تكون ذرية صالحة هكذا كان دعاء زكريا لربه :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴿٣٨﴾ ﴾(١) .

وهكذا كان دعاء ابراهيم من قبل :

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ ﴾(٢) .

وقد حثت السنة النبوية على طلب الذرية ورغبت فيها.قال النبى ﷺ فى الحث على الزواج والانجاب : « تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإنى مباه بكم الامم يوم القيامة » (٣) . .

وقد ترجم الامام البخارى باب « طلب الولد » وباب الدعاء بكثرة الولد مع البركة وساق احاديث كثيرة تبين هذا المطلب الفطرى وتضعه فى اطاره الصحيح من القيم والمثل العليا .

ومن هذه الأحاديث ماروى من حديث أنس ان النبى ﷺ قال : « اى رجل مات وترك ذرية طيبة اجرى الله له مثل اجر عملهم ولم ينقص من اجورهم شيئا » وقال ﷺ : « اذا مات احدكم انقطع عمله الا من ثلاث » وذكر منها ولدا صالحا يدعو له . .

وقال ﷺ لابى طلحة حين مات ابنه : « اعرستم الليلة ؟ قال : « نعم » قال : « بارك الله لكما فى غابر ليلتكما » قال : فحملت . . قال سفيان : « فقال رجل من الانصار : فرأيت تسعة اولاد كلهم قد قرأوا القرآن » . وساق البخارى ايضا حديثا لانس بن مالك قال : « قالت ام سليم : « يارسول الله ، خادمك انس ادع الله له » فقال : « اللهم اكثر ماله وولده وبارك له فيما اعطيته » وقال ﷺ : « اللهم اغفر لابى سلمة وارفع درجته فى المهديين واخلفه فى عقبه فى الغابرين » (٤) . .

---

(١) سورة آل عمران - آية ٣٨

(٢) سورة ابراهيم - آية ٤٠

(٣) رواه البخارى ، التاج الجامع للاصول مجلد ٢ ص : ٢٨٣ . .

(٤) الاحاديث رواها البخارى ، يراجع التاج الجامع للاصول جـ ٢ ص : ٢٨٣ . .

وعن عبدالرحمن بن بشير الانصارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم يرد النار الا عابر سبيل » (١) .

وعن أبى سلمى رضى الله عنه راعى رسول الله ﷺ قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : بَخٍ بَخٍ - وأشار بيده - لخمس ما أثقلهن فى الميزان : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله الا الله ، والله اكبر ، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه » (٢)

والأخبار فى هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد ، وتندب اليه ؛ لما يرجوه الانسان من نفعه فى حياته وبعد موته .

ولقد ذكر القرطبى عقب تفسيره لقوله تعالى على لسان امرأة عمران :

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ . (٣)

قال : « وإنما معناه - والله أعلم - أن المرء انما يريد ولده للأنس به والاستنصار والتسلى . فطلبت هذه المرأة انسا به وسكونا اليه .

فلما مَنَّ الله تعالى عليها به نذرت ان حظها من الأنس به متروك فيه وهو على خدمة الله تعالى موقوف ، وهذا نذر الأحرار من الأبرار » (٤) .

فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان ان يتضرع الى خالقه راجيا هداية ولده وزوجه ، طالبا لهما التوفيق والصلاح والعفاف والرعاية وأن يكونوا معينين له على

---

(١) رواه الطبرانى باسناد لابأس به وله شواهد كثيرة : الترغيب والترهيب جـ ٤ ص : ١٥١ . .
(٢) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه واللفظ له ، الترغيب والتلهيب جـ ٤ ص١٥١
(٣) سورة آل عمران - آية ٣٦ - ٣٧
(٤) أحكام القرطبى

دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهم فى أولاه واخراه . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) ﴾ (١)

هذه النعمة ـ الذرية ـ هى امتحان من الله سبحانه وتعالى واختبار ؛ شأن كل النعم الأخرى . فعموم النعمة ابتلاء ، ونقصها ابتلاء . والله سبحانه وتعالى يختبر الانسان بالوفرة والنقص على حد سواء . يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) ﴾ (٢)

ويقول جل شأنه :

(٣) ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ (١٦٥) ﴾

ويقول :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ (١٥٥) ﴾ (٤)

---

(١) سورة الطور ـ آية ٢١

(٢) سورة الكهف ـ آية ٧ .

(٣) سورة الأنعام ـ آية ١٦٥ .

(٤) سورة البقرة ـ آية ١٥٥ .

ويقول :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ (١)

واذا كان هذا الابتلاء عاما فى كل افراد الجنس البشرى فقد كان اعظم الابتلاء هو ما اختص به انبياء الله والصالحون من عباده.هكذا نراهم مبتلين فى كل حال إما بآبائهم وإما بأبنائهم والقرآن الكريم يقدم لنا صورا بيانية بليغة غاية البلاغة فى وصف علاقة الانبياء والرسل بآبائهم وابنائهم ومن هذه الصور نرى كيف كان الابناء اختبارا وابتلاء ، حياتهم ابتلاء وموتهم ابتلاء ، وجودهم او غيابهم ابتلاء ، وصلاحهم او فسادهم ابتلاء.فلحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى ابتلى خاتم الانبياء محمد ﷺ بموت ابنيه القاسم وابراهيم .

وابتلى نوح بكفر ابنه وشططه وجنوحه عن جادة الدين الحق . وابتلى يعقوب بفقد يوسف . واختبر لوط فى صلابته وقوة عزيمته بمنع بناته عن فساد قومه . واختبر زكريا بالحرمان من الولد حتى بلغ من الكبر عتيا . ومن قبل ابتلى ابراهيم الخليل عليه السلام بالحرمان من الولد حتى مَنَّ الله عليه بالولد فى الكبر ، حتى صار اسماعيل فتى يافعا ابتلى فيه ابراهيم حينما رأى انه يذبحه فكان الاثنان منيبين مستجيبين لداعى الوحى حتى اذا هم ابراهيم بذبح ابنه افتداه الله بذبح سمين . واختبرت الصديقة مريم بابنها المسيح عيسى عليه السلام بما روجه اعداء الله حولها من افتراءات واباطيل . ومن قبلها اختبرت ام موسى حينما أمرها الوحى بإلقائه فى اليم لحكمة أرادها الله سبحانه . وهكذا تتعدد الصور تعرض لنا قداسة هذه الرابطة ومتانتها بما لا يدع مجالا لمزيد .

وبسبب عظمة هذه الرابطة فإن الله سبحانه وتعالى ـ وهو الحكيم الخبير بعباده . . العليم بما تخفى صدورهم من طغيان الحب الذى قد يسيطر على الانسان وقد ينسيه دينه وربه ـ قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢)

---

(١) سورة النمل ـ آية ٤٠ .
(٢) سورة التغابن ـ آية ١٤ ـ ١٥ .

قال الكلبي في بيان سبب نزول هذه الآية : « كان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به بنوه وزوجته فقالوا : « أنت تذهب وتذرنا ضائعين » ، فمنهم من يطيع أهله ويقيم ؛ فحذرهم الله طاعة نسائهم وأولادهم ، يعني إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ينهون عن الاسلام ويثبطون عنه وهم من الكفار فاحذروهم . فظهر أن هذه العداوة انما هي للكفر والنهي عن الايمان ، ولاتكون بين المؤمنين ؛ فأزواجهم وأولادهم المؤمنون لايكونون عدوا لهم . وفي هؤلاء الأزواج والأولاد الذين مُنِعُوا عن الهجرة نزل (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) .

قال ابن عباس : « لا تطيعوهم في معصية الله تعالى . والفتنة : البلاء والشغل عن الآخرة ، فأعلم الله تعالى أن الأموال والأولاد من جميع ما يقع بهم في الفتنة . وهذا عام يعم جميع الأولاد ؛ فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه وباشر الفعل الحرام لأجله كغصب مال الغير ، وغيره . والمراد : لاتباشروا المعاصي بسبب الأولاد ، ولا تؤثروهم على ماعند الله من الأجر العظيم » (١) .

وأكد الله سبحانه وتعالى هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله جل شأنه :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ (٢٤) ﴾ (٢) .

وقال سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩) ﴾ (٣) .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ ٢ ص : ١٨٣

(٢) سورة التوبة ـ آية ٢٤ .

(٣) سورة المنافقون ـ آية ٩ .

وقال تعالى :

﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

وقال سبحانه :

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾ (٢)

أى القرابات والأولاد فيما بينهم : يوم القيامة يفصل بين أقاربكم وأولادكم ، فيدخل أهل الايمان الجنة وأهل الكفر النار .

ويقول رسول الله ﷺ مخاطبا أحد ابنى ابنته : « إنكم لتبخلون وتجبنون وتجهلون ، وانكم لمن رَيْحَانِ الله » (٣) . والمعنى : انكم أيها الأولاد لتبخلون الآباء ، فبسببهم يصير الوالد بخيلا ، حرصا منه على بقاء ماله لهم . وتجبنون ؛ أى يصير الوالد جبانا فلا يقتحم الشدائد كالخروج للجهاد حرصا على حياته لأولاده . وتجهلون ؛ أى يجهل الوالد بميله عن الحق أحيانا بسبب الولد . فالولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ بل وفتنة ؛ والعاقل لايشغله شيء عن الله تعالى .

---

(١) سورة المجادلة ـ آية ١٧ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٣ .

(٣) رواه الترمذى .

لماذا وصى الله الأبناء بآبائهم ولم يوص الآباء بأبنائهم ؟

لهذه المعاني السابق ذكرها من حب الذرية ، وبيان الصلة الفطرية التي تربط الآباء بأبنائهم كانت توصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا ومعظمها في حالة الوأد وهي حالة خاصة في ظروف خاصة ؛ ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد مع والديه . فالفطرة دافعة الى رعاية الجيل الناشيء لضمان امتداد الحياة كما يريدها الله ، وان الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال ، في غير تأفف ولا شكوى ، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان ، بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان ، فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاية . فأما الوليد فهو في حاجة الى الوصية المكررة ليلتفت الى الجيل المضحى المدبر المولى الذاهب في أدبار الحياة بعد ما سكب عصارة عمره واعصابه وروحه للجيل المتجه الى مستقبل الحياة . وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوض الوالدين ما بذلاه ولو وقف عمره عليهما (١) .

ومن الصور القليلة التي أوصى الله بها الآباء بأبنائهم قوله تعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ ﴾ (٢)

ففي الآية ارشاد للآباء للمحافظة على أموالهم من أجل تأمين مستقبل أبنائهم خشية أن تقضي عليها الوصية للأقارب وتركهم عالة يتكففون الناس . يؤيد هذا قول النبي ﷺ

(١) يراجع تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب جـ١ ص : ٧١ ، ٧٢ .

(٢) سورة النساء ـ آية ٩ .

لسعد : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس (١) .

والصورة الثانية من صور توصية الآباء بالأبناء تتمثل فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ (٣)

فقد درج العرب فى الجاهلية على وأد بناتهم خشية العار الذين كانوا يظنون أن تلحقه بهم البنت عندما تكبر ؛ وقد فاتهم أن المرأة هى الأم والأخت والزوجة ، وأنه بغير وجودها مع الرجل لاتستقيم الحياة ولاتستديم . وجاء الإسلام فنهى عن هذه الجريمة وحذر منها وقضى عليها ووضع المرأة فى مكانها الصحيح فى المجتمع ، وأوضح أن معيار التفضيل هو العمل الصالح . قال تعالى :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ ﴾ (٤) .

أما الصورة الثالثة فتتمثل فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴿١٥١﴾ ﴾ (٥)

---

(١) أحكام القرطبى مجلد ٢ ص : ١٦٢٠ .

(٢) سورة النحل - آية ٥٨ - ٥٩ .

(٣) سورة التكوير - آية ٨ - ٩ .

(٤) سورة آل عمران - آية ١٩٥

(٥) سورة الأنعام - آية ١٥١ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ (١) .

ففى الآيتين الكريمتين نهى عن قتل الأبناء وحث بالمقابل على حماية أرواحهم ووقايتها ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

فهذه الصور تختص بحالات ينحرف بها الناس عن الفطرة أو يوجهون الفطرة وجهة غير التى خلقت وهى مؤهلة لها ، ويصرفونها الى وظيفة غير وظيفتها الصحيحة . فكان لابد من تقويم الاعوجاج وعلاج المرض حتى ينبنى المجتمع المسلم على أسس سليمة .

وفى مقابل صفة الخصوص فى توصية الآباء نجد صفة العموم فى توصية الأبناء بالآباء ، فالأولاد مطالبون تجاه الآباء بعموم الاحسان ، وعموم البر وعموم المعروف ، وعموم الطاعة إلا فيما يغضب الله سبحانه وتعالى .

حق الآباء من أعظم الحقوق

إن حق الوالدين على الولد من أَجَلّ الحقوق وأعظمها بعد حق الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الله إذا كان هو الخالق الحقيقى للولد فإنه سبحانه يجعل لكل شيء سببا ؛ وقد جعل الوالدين هما مصدر هذا الخلق وسببه المباشر ، ولأنهما يبذلان من التضحيات والجهود من أجل تربية الأولاد وإعدادهم للحياة ما يستحقان المكافأة عليه .

---

(١) سورة الاسراء ـ آية ٣١ .

(٢) سورة المائدة ـ آية ٣٢ .

ولقد بين الفخر الرازى هذا المعنى فى تفسيره لقوله تعالى :

﴿ * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١) .

بقوله : « إن من الأشياء التى أوجب قوله : « وبالوالدين احسانا » وإنما ثنى بهذا التكليف لأن أعظم أنواع النعم على الانسان نعمة الله تعالى ، ويتلوها نعمة الوالدين ؛ لأن المؤثر الحقيقى فى وجود الإنسان هو الله سبحانه وتعالى ، وفى الظاهر هو الأبوان ، ثم نعمهما على الإنسان عظيمة وهى نعمة التربية والشفقة والحفظ من الضياع والهلاك فى وقت الصغر » (٢) .

ولهذا جاءت توصية الأبناء بالآباء فى أكثر من آية مقرونة بعبادة الله والنهى عن الشرك به وقرن شكره تعالى بشكرهما ؛ وما ذلك إلا لأن للأبوين فضلا عظيما ومنزلة عالية ، ورباط الأبوة بالبنوة هو رباط البشرية بأجيالها المتلاحقة ان لم يقم على البر والاحسان تفككت عرى المحبة والألفة ونشبت العداوات وامتلأت الصدور بالضغائن . لذلك جعل الله الوصية بالوالدين بعد النهى عن الاشراك به وافراده وحده بالربوبية لما لهذه الصلة القوية من أثر فعال فى انتظام الحياة ؛ فهى وحدة الانسانية تقوم بعد وحدة الاله وهو اتجاه واحد ينبىء عن علم العليم الخبير . (٣)

وهذه الحقوق الواجبة على الأولاد لآبائهم ، تتمثل فى بر الآباء والاحسان اليهم والأدب معهم ، وطاعتهم فى المعروف .

وقد جاء الاسلام داعيا الأولاد إلى النهوض بهذه الواجبات نحو آبائهم ولافتا أنظارهم الى القيام بها ؛ ليكونوا بررة مستحقين لبر الله ومثوبته ؛ فقال الله تعالى :

﴿ * وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الاسراء - آية ٢٣ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٣ ، ص : ٢٣٢ .

(٣) يراجع : تفسير الوصايا العشر فى نهاية سورة الأنعام د . عبدالفتاح عاشور ص : ٥٥ وما بعدها .

(٤) سورة النساء - آية ٣٦ .

وقال عز جل :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

وقد تضمنت هاتان الآيتان :

١ ـ الأمر بالاحسان الى الوالدين مقابل احسانهما الى الولد ، وجزاء فضلهما عليه واقتران ذلك بالأمر بالعبادة .

٢ ـ النهى عن نهرهما بغلظة، وزجرهما بخشونة ، وعن كل ما يتضجر منه وإن كان بكلمة أف الدالة على الضجر والتبرم ، وإذا كانت كلمة « أف » منهيا عنها فما بالنا بغيرها !!؟ . وهذا النهى ليس خاصا بحالة الكبر وإنما هو نهى عام فى جميع الأحوال .

٣ ـ وعلى الأولاد أن يتخيروا فى مخاطبة آبائهم أجمل الكلمات وألطف العبارات وأن يكون قولهم كريما لا يصحبه شىء من العنف .

٤ ـ وعليهم أن يتذللوا لآبائهم ويخفضوا جناح الذل لهم رحمة بهم وعطفا عليهم .

٥ ـ من حق الآباء كذلك أن يدعو لهم الأبناء الله لأن يظللهم برحمته التى وسعت كل شىء وأن يقول الولد فى دعائه لوالديه : (رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) . وقوله (كما ربيانى) خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما فى التربية فيزيده ذلك اشفاقا وحنانا عليهما .

قال ابن عباس : « قال النبى ﷺ : « من أمسى مرضيا لوالديه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة ، وإن واحد فواحد . ومن أمسى وأصبح

---

(١) سورة الاسراء ـ آية ٢٣ ، ٢٤ .

مسخطا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وان واحد فواحد . »
فقال رجل « يا رسول الله : وإن ظلماه ؟ » قال « وإن ظلماه ، وإن ظلماه ، وإن ظلماه » .

وروى جابر بن عبدالله قال : « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : « يا رسول الله ان أبى أخذ مالى » . فقال النبى ﷺ للرجل : « فأتنى بأبيك » . فنزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فقال : « إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله فى نفسه ما سمعته أذناه » . فلما جاء الشيخ قال له النبى ﷺ : « ما بالك ابنك يشكوك ؟ أتريد أن تأخذ ماله ؟ » « فقال : « سله يا رسول الله هل أنفقه الا على إحدى عماته أوخالاته أوعلى نفسى ؟ » فقال له رسول الله ﷺ : « إيه ، دعنا من هذا ، أخبرنى عن شيء قلته فى نفسك ما سمعته أذناك ؟ فقال : « قلت :

غذوتك مولودا ومنتك يافعا ... تُعـلُّ بما أجنى عليك وتنهل
اذا ليلة قد ضقت بالسقم لم أبت ... لسقمك الا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك والذى ... طرقت به دونى فعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وانها ... لتعلم أن الموت أمر مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى ... اليها مدى ما كنت فيها أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

قال : « فحينئذ أخذ النبى ﷺ بتلابيب ابنه وقال : « أنت ومالك لأبيك » (١)

ولقد استنبط الفخر الرازى من قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » أمورا منها : انه لم يقتصر فى تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقوال بل اضاف اليه تعليم الأفعال ؛ وهو أن يدعو لهما بالرحمة فيقول : « رب ارحمهما » ، ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات فى الدين والدنيا ثم يقول : « كما ربيانى صغيرا ؛ يعنى رب افعل بهما هذا النوع من الإحسان كما أحسنا فى تربيتهما اياى ؛ والتربية هى التنمية (٢) .

---

(١) يراجع : احكام القرطبى مجلد ٥ص : ٣٨٥٧ وما بعدها .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص : ١٩١ ، ويراجع : فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١٥ ص : ٢٢٢ .

ويجانب هذه الآيات الكريمة التى تتضمن الأمر بالإحسان للوالدين وتحث على معاملتهما بالمعروف نجد آيات أخرى تمتدح بر الوالدين وتضرب لنا الأمثال بالأنبياء وهم المصطفون الأخيار من البشر . والبر : « كلمة جامعة لكل صفات الخير » (١) وبر الوالدين هو : « التوسع فى الإحسان اليهما » (٢) . قال تعالى :

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ (٣)

فكما فى الآيات الداعية للاحسان ورد الأمر بالاحسان مقرونا بالنهى عن الشرك بالله نجد فى هذ الآية الكريمة بر الوالدين جاء مقرونا بصفات النبوة . وقال على لسان عيسى ابن مريم :

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ (٤) .

ويرسم لنا القرآن الكريم صورة بالغة الروعة والدلالة على البر فى سورة يوسف :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴿١٠٠﴾ (٥)

وقصص القرآن هو القصص الحق ، وانبياء الله هم القدوة والأسوة الحسنة .

وقد أكدت السنة المطهرة الوصية بالأبوين : فعن ابن مسعود أنه قال « سألت النبى ﷺ : « أى العمل أحب الى الله تعالى ؟ » قال : « الصلاة على وقتها » .

---

(١) ، (٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم ص : ٩١ - ٩٢ .
(٣) سورة مريم - آيات ١٢ - ١٤ .
(٤) سورة مريم - آيات ٣١ - ٣٣ .
(٥) سورة يوسف - آية ٩٩ - ١٠٠

قلت : « ثم أى ؟ » قال : « بر الوالدين » قلت : « ثم أى ؟ » قال : « الجهاد فى سبيل الله » (١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : « لا يجزى ولد عن والده الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه » (٢) .

وعنه عن النبى ﷺ قال : « رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه ، قيل : « من يا رسول الله ؟ » . قال : « من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة » . (٣) .

بل ان رسول الله ﷺ اعتبر منزلة الوالدين وبرهما اعلى من منزلة الهجرة والجهاد . فعن عبد الله بن عمرو قال : « جاء رجل الى النبى ﷺ يستأذنه فى الجهاد فقال : أَحَيٌّ والداك؟ قال نعم . قال : ففيهما فجاهد » (٤) .

والحديث دليل على عظم فضيلة برهما ، وأنه أكبر من الجهاد . وفيه حجة لما قاله العلماء من أنه لا يجوز الجهاد الا بإذنهما اذا كانا مسلمين ، أو بإذن المسلم منهما . فلو كانا مشركين لم يشترط اذنهما عند الشافعى ومن وافقه ، وشرطه الثورى . هذا كله اذا لم يحضر الصف ويتعين القتال ، والا فحينئذ يجوز بغير اذن . وفرق الجصاص فى احكامه بين خروج الابن للجهاد وبين خروجه للتجارة وغيرها من المباحات ، فقال « قال أصحابنا لا يجوز أن يجاهد إلا بإذن الأبوين اذا قام بجهاد العدو من قد كفاه الخروج . فإن لم يكن بإزاء العدو من قد قام بغرض الخروج فعليه الخروج بغير إذن أبويه . وقالوا فى الخروج فى التجارة ونحوها فيما ليس فيه قتال لا بأس بغير إذنهما ؛ لأن النبى ﷺ إنما منعه من الجهاد إلا بإذن الأبوين إذا قام بالغرض غيره لما فيه من التعرض للتقل وفجيعة الأبوين به . فأما التجارات والتصرف فى المباحات التى ليس فيها تعرض للتقل فليس للأبوين منعه فيها ، فلذلك لم يحتج الى استئذانهما . ومن اجل ما أكد الله تعالى من تعظيم حق الأبوين قال أصحابنا : لا ينبغى للرجل أن يقتل أباه الكافر اذا كان محاربا للمسلمين لقوله تعالى : ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ ، فأمر

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) الرغم : كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه .. صحيح مسلم جـ١٦ ص : ١٠٢

(٤) رواه مسلم .

الله بمصاحبتهما بالمعروف فى الحال التى يجاهدانه فيها على الكفر ، والمعروف ان لا يشهر عليهما سلاحا ولا يقتلهما الا أن يضطر الى ذلك بأن يخاف أن يقتله ان ترك قتله . فحينئذ يجوز قتله لانه ان لم يفعل ذلك كان قد قتل نفسه بتمكينه غيره منه وهو منهى عن تمكين غيره من قتله كما هو منهى عن قتل نفسه ، فجاز له حينئذ من أجل ذلك قتله . وقد روى عن النبى ﷺ انه نهى حنظلة بن أبى عامر الراهب عن قتل أبيه وكان مشركا . (١)

وقال الحنفية فى المسلم يموت أبواه وهما كافران انه يغسلهما ويتبعهما ويدفنهما لأن ذلك من الصحبة بالمعروف التى أمره الله بها » (٢) .

قال ابن المنذر : « والأجداد آباء والجدات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم (٣) » .

بر الوالدين ولو كانا كافرين

بناء على ما قدمنا فبر الوالدين لا يختص بكونهما مسلمين بل ان كانا كافرين يبرهما ويحسن اليهما اذا كانا لهما عهد . قال الله تعالى :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ ۝٨ ﴾ (٤) .

فالوالدان الكافران لهما حق البر والاحسان والطاعة فيما عدا الكفر والمعاصى ، فإنما الطاعة فى المعروف ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وحق الله وتوحيده أعظم من حق الوالدين ، اذ أن طاعة الله هى طريق النجاة وسبيل الخلاص ، وقد قال تعالى :

---

(١) يراجع : صحيح مسلم جـ١٦ ص : ١٠٤ ، أحكام القرطبى مجلد ٥ ص : ٣٨٥٦ .
(٢) أحكام الجصاص جـ٢ ص : ١٩٣ . وما بعدها .
(٣) أحكام القرطبى مجلد ٥ ص : ٣٨٥٥ .
(٤) سورة الممتحنة ـ آية ٨ .

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١)

قالت أسماء : « قدمت أمي وهي مشركة ، فاستفتيت النبى ﷺ فقلت : إن أمي قدمت علي وهي راغبة (٢) أَفَأَصِلُهَا ؟ قال : نعم ، صِلِي أمك » (٣) .

بر الوالدين بعد وفاتهما

وبر الوالدين ليس مقصورا على حياتهما ، وانما هو ممتد الى مابعد الوفاة كما بين الله فى قوله على لسان نوح :

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۖ ﴾ (٤)

وقال سبحانه على لسان ابراهيم :

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ (٥)

فرابطة المودة باقية فى الحياة وبعد الممات بالدعاء والاستغفار ؛ فقد جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ » . قال : « نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما (٦) وانفاذ

---

(١) سورة المجادلة ـ آية ٢٢ .

(٢) راغبة : أى راغبة فى برى وصلتى فيما عندى وتسألنى شيئا مما هى فى حاجة اليه .

(٣) يراجع عمدة القارى شرح صحيح البخارى باب صلة الوالد المشرك جـ ٢٢ ص : ٨٨ .

(٤) سورة نوح ـ آية ٢٨ .

(٥) سورة ابراهيم ـ آية ٤١ .

(٦) الدعاء لهما .

بعهدهما من بعدهما (١) ، وصلة الرحم (٢) التى لا توصل الا بهما ، واكرام صديقهما (٣) » . ومن تمام برهما صلة أهل ودهما ، ففى الصحيح عن ابن عمر قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان أبر البر صلة الولد أهل ود ابيه » (٤) . قال القرطبى فى أحكامه : « كان ﷺ يهدى لصدائق خديجة برا بها ووفاء لها وهى زوجته فيا ظنك بالوالدين » (٥) .

هذا فى شأن الأبوين اذا كانا مسلمين . أما اذا كانا مشركين فقد قال بعض العلماء (٦) : إنه لا ينبغى للمسلم أن يستغفر لوالديه اذا كان مشركين ولا يقول « رب ارحمهما » لأنها منسوخة بقوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ (٧)

ولنهيه تعالى لابراهيم عليه السلام حينما وعد أباه أن يستغفر له الله بقوله :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ (٨)

---

(١) تنفيذ وصيتهما .
(٢) وهم الاقارب مثل الاعمام والعمات والاخوال والخالات .
(٣) رواه ابو داود والبيهقى .
(٤) رواه مسلم وابو داود والترمذى .
(٥) انظر : احكام القرطبى مجلد ٥ ص : ٣٨٥٧ ، صحيح مسلم جـ١٦ ص : ١٠٢ (باب فضل صلة اصدقاء الاب والام) .
(٦) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص : ١٩١ .
(٧) سورة التوبة ـ آية ١١٣ .
(٨) سورة التوبة ـ آية ١١٤ .

للأم منزلة خاصة فى البر : وذلك لما تحملته من آلام الحمل والرضاع ، ولما فيها من ضعف الأمومة والأنوثة ، ولهذا أولاها القرآن والسنة عناية فائقة ، وحث الأبناء على رعايتها وأداء حقها .

فيقول تعالى فى سورة لقمان :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (١) .

ذكر الله سبحانه وتعالى فى الوصية أمر الوالدين ، ثم نوه بشأن الأم خاصة ، فهو من باب ذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام ، ولبيان ان حق الام على الولد اعظم من حق الاب . وقوله تعالى : ﴿ حملته أمه وهنا على وهن ﴾ جملة اعتراضية أراد بها الله بيان ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب فى حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة ايجابا بالتوصية بالوالدة خصوصا ، وتذكيرا بحقها العظيم مفردا (٢) .

وقال سبحانه مؤكدا هذا المعنى فى سورة الأحقاف :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى =

---

(١) سورة لقمان - آية ١٤ .

(٢) أنظر : تفسير آيات الأحكام للصابونى جـ٢ ص : ٢٤٠ .

فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١) .

ففى هاتين الآيتين الكريمتين ثناء من الله على الانسان البار بوالديه . وفيهما دليل على المتاعب التى تتجشمها الأم اثناء الحمل حتى يكون ذلك مرققا للولد على أمه ، ولا يخفى على انسان أن عاطفة الأم الوالدية أقوى من عاطفة الاب ، ورحمتها اشد من رحمته ، وحنانها ارسخ من حنانه ، لانها ارق قلبا وادق شعورا . وان الولد يتكون جنينا فى دمها الذى هو قوام حياتها ، ثم يكون طفلا يتغذى من لبنها فيكون له مع كل مصة من ثديها عاطفة جديدة يستلها من قلبها . والطفل لا يحب احدا فى الدنيا مثل امه . ثم انه يحب اباه ولكن دون حبه لأمه ، وان كان يحترمه اشد مما يحترمها .

وقد اكدت السنة النبوية الوصية بالأم وفى تقديمها بالبر ، فقد روى الحافظ ابوبكر البزار فى مسنده ـ بإسناده ـ عن بريدة عن أبيه أن رجلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها ، فسأل النبى ﷺ : « هل أديت حقها ؟ » قال : « لا ولا زفرة واحدة » اى بزفرة واحدة فى حمل أو وضع ، وهى تحمله وهنا على وهن .

وروى عن بعض العرب أنه حمل أمه الى الحج على ظهره وهو يقول : « أحمل امى وهى الحمالة ، ترضعنى الدرة والعلالة ولا يُجازَى وَالِدٌ فِعَالَهُ » (٢) .

وعن أبى هريرة ان رجلا جاء الى رسول الله ﷺ فقال « يا رسول الله من احق الناس بحسن صحبتى » قال : « امك » قال « ثم من » . قال : « أمك » . قال « ثم من » ؟ . قال : « أمك » قال : « ثم منْ ؟ » . قال : « أبوك » . (٣) . فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغى أن

---

(١) سورة الأحقاف ـ آية ١٥ ـ ١٦ .

(٢) يراجع : تفسير المنار جـ ٥ ص : ٣٢ : وفى ظلال القرآن جـ ٢١ ص : ٧١ وما بعدها ، تفسير آيات الأحكام د . محمد على السايس جـ ٢ ص : ٦٩ ، تفسير آيات الأحكام للصابونى جـ ٢ ص : ٢٤٠ .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

تكون ثلاثة أمثال محبة الأب لذكر النبى ﷺ الأم ثلاث مرات ، وذكر الأب فى الرابعة فقط .

وهذا المعنى يشهد له العيان : وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب . فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب ، وعلى ذلك فالأم لها ثلاثة أرباع البر وللأب الربع على مقتضى هذا الحديث .

ونقل الحارث المحاسبى إجماع العلماء على أن الأم تُفَضَّلُ فى البر على الأب . وحكى القاضى عياض خلافا فى ذلك : فقال الجمهور بتفضيلها وقال بعضهم : يكون برهما سواء . الصواب الأول لصريح هذه الأحاديث فى المعنى المذكور (١) .

وعن المقداد بن معدى كرب أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب » (٢) .

هل من البر طاعة الوالدين فى الأمور المحظورة ؟

طاعة الوالدين واجبة فى المعروف لا فى معصية الله ، فانه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق : لقوله تعالى :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣)

قال القرطبى : « إن طاعة الأبوين لاتراعى فى ارتكاب كبيرة ، ولا فى ترك فريضة ، وتلزم طاعتها فى المباحات » . ونقل عن الحسن أنه قال : « إن منعته

---

(١) يراجع : أحكام القرطبى مجلد ٥ ص : ٣٨٥٥ ، صحيح مسلم جـ ١٦ ص ١٠٢ . الاسلام وقضايا المرأة المعاصرة للبهى الخولى ص : ١٣٩ وما بعدها .

(٢) رواه احمد وابن ماجه وصححه الحاكم .

(٣) سورة لقمان - آية ١٥ .

أمه من شهود صلاة العشاء شفقة فلا يطعها » . وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصير فى حق الولد مندوبا اليه ، وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيدا فى ندبته . والأساس فى هذا قوله تعالى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ فكما تحرم طاعة الوالدين فى الشرك تحرم فى كل معصية ، لأنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (١) .

ولكن .. هناك بعض الآباء يتعذر إرضاؤهم بما يستطيعه أولادهم من الإحسان ، بل يكلفون الأولاد مالا طاقة لهم به . فقد تظلم الأم ولدها قليلا مغلوبة لبادرة الغضب ، أو طاعة لما يعرض من أسباب الهوى ، كأن تتزوج رجلا محبة وهو يكره ولدها من غيره ، وكأن يقع التغاير بينها وبين امرأة ولدها وتطلب منه أن يطلق زوجته وان لم يُقَصِّرْ فيها يجب لها من البر والإحسان . وقد يتحكم الآباء فى مستقبل أبنائهم انطلاقا من الحرص على تحقيق المصلحة لهم ، وقد يتحكمون فى تزويج أولادهم وبناتهم بمن يكرهون أو إكراههم على تطليق من يحبون ، فهل تجب طاعة الوالدين فى مثل هذه الأمور؟

يقول صاحب المنار فى تفسيره لقوله تعالى :

﴿ * وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (٢) .

« يجب أن نفهم أن الإحسان للوالدين الذى أمرنا به فى دين الفطرة هو أن نكون فى غاية الأدب مع الوالدين فى القول والعمل بحسب العرف حتى يكونا مغبوطين بنا ، وأن نكفيهما أمر ما يحتاجان اليه من الأمور المشروعة المعروفة بحسب استطاعتنا . فاذا أراد أحدهما أو كلاهما الاستبداد فى تصرفنا فليس من البر ولا من الإحسان شرعا أن نترك ما نرى فيه الخير العام أو الخاص ونعمل ما يرى فيه الضر العام أو الخاص عملا برأيهما واتباعا لهواهما » .

ويعلل رأيه بما جاء فى الهدى النبوى الشريف أن الثيب من النساء أحق بنفسها ؛ فليس لأبيها ولا لغيره من أوليائها أن يعقدوا لها الا على من تختاره وترضاه لنفسها لأنها لممارستها الرجال تعرف مصلحتها . وأن البكر على حيائها وغرارتها وعدم اختيارها وعلم ما يعلم الأب الرحيم من مصلحتها يجب أن

---

(١) أحكام القرطبى مجلد ٥ من ص٣٨٥٣ إلى ص : ٣٨٥٥ .

(٢) سورة النساء - آية ٣٦ .

تستأذن فى العقد عليها ويكتفى من اذنها بِصَمْتِهَا . وظاهره أنها إذا لم تظهر الرضا بل صرحت بعذمه لا يجوز العقد عليها . فى ذلك ، فكيف يتحكم الوالد فى ولده بمالا يحكم به الشرع ولا ترضى به الفطرة (١) .

ويقصد بذلك قوله ﷺ : « الثيِّبُ أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأمر واذنها سكوتها » (٢) .

وأما ماورد فى السنن عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال « كانت تحتى امرأة أحبها وكان أبى يكرهها فأمرنى أن أطلقها فأتيت النبى ﷺ فذكرت له فقال . « يا عبد الله طلق امرأتك » (٣) فإنه خاص بعمر لأنه محق فى كراهتها لشىء يراه ، وعمر مشهور بورعه وتقواه ، ولا يطلب شيئا يخالف أحكام الشرع ، وانما ينظر إلى المصلحة فى جل اجتهاداته . والا فالطلاق لا ينبغى الا لسبب شرعى وليس منه مجرد طلب الوالدين ، فإنهما غالبا يكرهان الزوجة من غير شىء ، والطلاق مما يهتز منه العرش .

هذه وصية الإسلام بالإحسان إلى الوالدين لتكون علاقات الانسانية أكثر ترابطا وتراحما لا يفصل بين أفرادها اختلاف مذهب أو دين ، ولا يفك عراها تباين لون أو جنس ، انما هو البر الذى ينبع من قلب رحيم يقدر هذه الصلة ويؤدى مالها من حقوق . وهذا هو الدين الذى يغرس أكرم المبادىء . مبادىء الرحمة والاحسان .

النهى عن العقوق

نهى الإسلام عن عقوق الوالدين ، وهو الايذاء بالقول ، أو الفعل أو غيرهما وجعله من أكبر الكبائر .

وضرب القرآن الكريم مثلا لهذا العقوق فى قوله تعالى فى سورة الاحقاف :

﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ =

(١) يراجع تفسير المنار جـ٥ ص : ٨٣ : ٨٨ .

(٢) سنن الدار قطنى جـ٣ ص : ٢٣٩ .

(٣) رواه الترمذى وأبو داود . . يراجع : التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول جـ٢ ص : ٣٤٢ .

= وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ
وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١) .

لما ذكر الله تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما ، وحالهم عنده من الفوز والنجاة ، عطف بحال الاشقياء العاقين للوالدين « والذى قال لوالديه أف لكما » وهذا عام فى كل من عق والديه وكذب بالحق فقال لوالديه أف لكما . فهما يرشدانه إلى الهداية والصلاح ، وهو يقابل ذلك بالعقوق والتعدى والانكار للبعث والجزاء . وهما يسألان الله فيه أن يهديه ويقولون لولدهما « ويلك آمن إن وعد الله حق » فيقول : « ما هذا إلا أساطير الأولين » (٢) .

وتكفلت السنة النبوية بالنهى الشديد عن هذا العقوق ، وبيان جزائه وعاقبته . روى البخارى عن أبى بكرة قال : « قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : « بلى يارسول الله » . قال : « الإشراك بالله وعقوق الوالدين » ، وكان متكئا فجلس ، فقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور » (٣) .

وروى البخارى ومسلم عن المغيرة بن شعبة عن النبى ﷺ وسلم أنه قال : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال » (٤) .

ومن العقوق أن يتسبب الانسان فى شتم والديه وسبهما : فعن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال « قال رسول الله ﷺ : من الكبائر شتم الرجل

---

(١) سورة الاحقاف - آية ١٧ : ١٨ .
(٢) يراجع تفسير ابن كثير المجلد الثالث ص : ٣٢٠ إلى ٣٢١ ،
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه البخارى ومسلم . . يراجع فتح البارى للعسقلانى جـ٢ ص : ٣١٧ .

والديه » . قالوا : يارسول الله هل يشتم الرجل والديه ؟ » قال : نعم : يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه» (١) .

والله سبحانه وتعالى يعجل عقوبة العاق فى الدنيا قبل الآخرة : فعن رسول الله ﷺ أنه قال : « كل الذنوب يؤخر الله ما يشاء منها إلا عقوق الوالدين ، فإن الله يعجل لصاحبه فى الحياة الدنيا قبل الممات :(٢) .

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه الحاكم وقيل : صحيح الإسناد .

المبحث الثاني

واجبات الآباء

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

«سورة التحريم - آية ٦»

واجبات الآباء

حقوق الابناء

الأبناء أمانة وضعها الله بين أيدى الآباء . وهم مسئولون عنها ، فإن أحسنوا اليهم بحسن التربية كانت لهم المثوبة ، وإن أساءوا تربيتهم استوجبوا العقوبة .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . الإمام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته . وكلكم راع ومسئول عن رعيته » (١) .

والأبناء يخلقون مزودين بقوى فطرية تصلح لأن توجه للخير ، كما تصلح لأن توجه للشر . وعلى الآباء أن يستغلوا هذه القوى ويوجهوها وجهة الخير ويعودوهم العادات الحسنة حتى ينشأ الطفل نشأة خيرة ينفع نفسه وينفع أمته .

قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴿٦﴾ ﴾ (٢) .

قال على رضى الله عنه : « أى أدبوهم وعلموهم » . وقال ابن عباس : « اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصى الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار » . وقال مجاهد : « اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله » . وقال قتادة : « تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله ، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه ، فإن رأيت لله معصية قَرَّعْتَهُمْ عنها وزجرتهم عنها » . وقال

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٢) سورة التحريم - آية ٦ ، يرجع الى الترغيب والترهيب جـ ٤ : ١٣٥ .

الضحاك : « حق على المسلم ان يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وماناهم الله عنه » .

وفي معنى هذه الآية الحديث الشريف : « مروا الصبي بالصلاة اذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوهم عليها » (١)

قال الفقهاء : « وهكذا في الصوم ، ليكون ذلك تمرينا له على العبادة لكي يبلغ وهو مد ، على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر » (٢) .

ويقول الر ول الكريم ﷺ : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » (٣) .

وفي هذا الحديث إرشاد إلى ما ينبغي ان يكون عليه الآباء من الكرم في معاملة الأبناء ، ليكون تصرف الأبناء في مستقبل الأيام فيه معاني الكرم والوفاء .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع » (٤) . وذلك لقرب ولده فهو أولى بمعروفه والأدب له وللناس .

وعن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن » (٥) .

والأدب الحسن أن يعلمه كيف يأكل وكيف يشرب وكيف يعامل الناس وكيف يسعى لعيشه بينهم ويحسن عشرتهم ، ويعلمه الواجب عليه لربه ولخلقه ، فيدخل في هذا تعليمه بما يناسب الزمان والمكان مع المحافظة على الدين ، والتوفيق من الله تعالى يهبه لمن يشاء .

١ـ مساواة الذكور والاناث في التربية

لايفرق الإسلام بين الذكور والإناث في هذه الناحية . فلكل من الجنسين الحق في أن يربى تربية حسنة ، وفي أن يتعلم العلم النافع ، ويدرس المعارف الصحيحة ، ويأخذ بأسباب التأديب ووسائل التهذيب لتكمل إنسانيته ، ويستطيع النهوض بالأعباء الملقاة على عاتقه .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي

(٢) انظر : تفسير ابن كثير المجلد الثالث : ص : ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد جـ ٨ ص : ١٥٨ .

(٣) رواه ابن ماجه عن ابن عباس : انظر الترغيب جـ ٤ ص : ١٤٢ باب الترغيب في تأديب الأولاد .

(٤) رواه الترمذي .

(٥) رواه الترمذي ويراجع : التاج الجامع للأصول جـ ٥ ص : ٨٢٧ ، الترغيب جـ ٤ ص : ١٤٢ .

والدليل على ذلك . ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « من كانت له أنثى فلم يَئِدْهَا ولم يُهِنْهَا ، ولم يُؤْثِرْ ولده ـ يعنى الذكور ـ عليها أدخله الله الجنة »(١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « من كن له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن أدخله الله الجنة برحمته إياهن » فقال رجل : « واثنتان يا رسول الله » . قال : « واثنتان » . قال رجل : « يا رسول الله وواحدة » قال : « وواحدة » (٢) .

٢ـ اختيار الأم الصالحة

تعتمد التربية أساسا على اختيار الزوجة الصالحة والأم المحمودة التى تغرس فى أبنائها بذور الأدب والأخلاق الحسنة لأنه كما يقول الشاعر :

الأم مدرسة اذا أعددتها ★★★ أعددت شعبا طيب الأعراق

فيجب على الآباء نحو أبنائهم اختيار الأم الصالحة التى تحقق الهدف المرجو من الزواج وهو اعداد الجيل الصالح المسؤول ، فأخلاق الأم تنعكس على أخلاق أبنائها . ولذا حثت الشريعة الاسلامية الرجل عند رغبته فى الزواج أن يختار الأم الصالحة ذات الدين لأنها أفضل .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك » (٣) فالمقاصد التى يقصدها الناس فى اختيار المرأة أربع خصال غالبا تنكح لمالها بأن يرغب فى المال ويرجو مواساتها ، ولحسبها يعنى مفاخر آباء المرأة فإن التزويج فى الأشراف شرف وجاه ، ولجمالها فإن الطبيعة البشرية راغبة فى الجمال وكثير من الناس تغلب عليهم الطبيعة ، ولدينها أى لعفتها عن المعاصي وبعدها عن الرِّيَب وتقربها إلى بارئها بالطاعات . فالمال والجاه مقصد من غلب عليه حجاب الرسم ، والجمال وما يشبهه من الشباب مقصد من غلب عليه حجاب الطبيعة ، والدين مقصد من تَهَذَّبَ بالفطرة فأحب أن تعاونه امرأة فى دينه ورغب فى صحبة أهل الخير(٤) .

---

(١) رواه ابو داود والحاكم .
(٢) رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، الترغيب والترهيب جـ ٤ ص : ١٣٧ .
(٣) رواه الخمسة .
(٤) أنظر حجة الله البالغة للدهلوى جـ ٢ ص : ١٢٣ .

وعنه ﷺ : « إن الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » (١) . وعنه ﷺ : « خير نساء ركبن الإبل صالحو نساء قريش أَحْنَاهُ (٢) على ولده فى صغره ، وأَرْعَاهُ (٣) على زوج فى ذات يده » وقيل : « يارسول الله ، أىُّ النساء خير ؟ » . قال : « التى تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ، ولاتخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره » . ولابن ماجة والبزار والبيهقى : « لا تَزَوَّجُوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين . لأمة سوداء ذات دين أفضل » (٤) .

فهذه الأحاديث منفردةً أو متضافرةً تحث الزوج على اختيار الزوجة الصالحة التى يكون الدين عصمتها فى حياتها . ولقد بين الدهلوى ـ فى حجة الله البالغة ـ أهمية اختيار الأم المحمودة بقوله : « لابد من الارشاد الى المرأة التى يكون نكاحُها موافقا للحكمة موفرا عليه مقاصد تدبير المنزل ، لأن الصحبة بين الزوجين لازمة ، والحاجات من الجانبين متأكدة ، فلو كان لها جبلة سوء وفى خلقها وعاداتها فظاظة وفى لسانها بَذَاءٌ ضاقت عليه الأرض بما رحبت وانقلبت عليه المصلحة مفسدة . ولو كانت صالحة صلح المنزل كل الصلاح وهيأت له أسباب الخير من كل جانب ، وهو قوله ﷺ : « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » .

وفى بيان الصفات المستحبة فى المرأة يقول الدهلوى « يستحب أن تكون المرأة من كورة وقبيلة عادات نسائها صالحة ؛ فإن الناس بمعادن كمعادن الذهب والفضة ، وعادات القوم ورسومهم غالبة على الانسان وبمنزلة الأمر المجبول هو عليه . وبَيَّنَ أن نساء قريش خير النساء من جهة أنهن أحنى إنسان على الولد فى صغره وأرعاه على الزوج فى ماله ، وهذان من أعظم مقاصد النكاح ، وبهما انتظام تدبير المنزل .

وقال ﷺ : « تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم الأمم » ، لأن تواد الزوجين به تتم المصلحة المنزلية ، وكثرة النسل بها تتم المصلحة المدنية والمالية . وود المرأة لزوجها دَالٌ على صحة فراجها وقوة طبيعتها ، مانعٌ لها من أن يطامح

---

(١) رواه مسلم والنسائى .

(٢) أحناه : من الحنو والشفقة .

(٣) وأرعاه : من الرعاية والحفظ أنظر : التاج الجامع للأصول جـ٢ ص : ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٤) التاج الجامع للأصول جـ ٢ ص : ٢٨٢

بصرها الى غيره ، باعث على تحملها بالامتشاط وغير ذلك ، وفيه تخصيص فرجة ونظره » (١) .

٣ ـ حق النسب

وهب الله الناس نعمة الوجود وشرفهم بأنهم خلقه وأثر قدرته ، وتعهدهم بالنعم ووزعها بينهم على مقتضى حكمته . واذا كانت سنة الله فى خلقه أن يوجد المخلوق طفلا لا يستقل بنفسه ولا يقدر أن يشب من غير معين ، كان من لطيف رحمته أن يوجد بينهم رابطة كريمة قوية تبعث القوى الكبير على رعاية الطفل الصغير ، مدفوعا فى هذا بعامل المحبة ووازع من الحنو لا يشاركه فيه أجنبى يقلل عطفَه ولا دخيل يشاركَه حنانَه . فأقام بينهم رابطة النسب وعَدَّها إحدى نعمه التى أنعم بها على عباده ، ومظهرا من مظاهر قدرته ، فقال جل ثناؤه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (٢) .

وحق النسب من أهم حقوق الأولاد على أبيهم ، لأنهم ثمرة الزواج المقدس بين أبويهم . وقد ذكر القرآن الكريم ذلك بقوله :

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴿٢٣٣﴾ ﴾(٣) .

فإضافة الولد لأبيه دليل على أنه المختص بالنسبة إليه .

ولما كانت هذه الصلة العظيمة على هذا الجانب من الخطورة فلذلك لم يتركها الشارع نهبا للأهواء والعواطف تهبها لمن تشاء وتحرم منها من أرادت ، بل تولاها بتشريفه ، واعتنى بها أعظم عناية ، وأحاطها بسياج منيع يحفظها من الفساد

---

(١) حجة الله البالغة للدهلوى جـ٢ ص : ١٢٣ .

(٢) سورة الفرقان ـ آية ـ ٥٤

(٣) سورة البقرة ـ آية ٢٣٣

والانحلال والاضطراب ، فقضى على الادعاء والتبنى الذى كان مشهورا فى الجاهلية وصدر الاسلام ، فقال عز من قائل :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ④ ﴾ (١) .

وأمر بنسبة هؤلاء الأبناء الى آبائهم إن عُرِفُوا ، فإن لم يعرف لواحد منهم أبٌ دُعِىَ أخا فى الدين أو مولى ، فقال سبحانه :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ⑤ ﴾ (٢) .

وهذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداءالاسلام من جواز ادعاء الابناء الاجانب وهم الادعياء . فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة وهذا هو العدل والقسط والبر .

روى البخارى عن عبدالله بن عمر قال (٣): «إن زيد بن حارثة رضى الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد ابن محمد حتى نزل القرآن ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك . ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعىِّ وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه . وقال عز وجل :

﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ㊲ ﴾

---

(١) سورة الأحزاب ـ آية ٤ .
(٢) سورة الأحزاب ـ آية ٥
(٣) اخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى
(٤) سورة الأحزاب ـ آية ٣٧

وقال تبارك وتعالى فى آية التحريم :

﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١) .

احترازا عن زوجة الدَّعِى فإنه ليس من الصُّلب (٢) .

فأما دعوة الغير ابنا على سبيل التكريم والتحبيب فليست مما نُهِىَ عنه فى هذه الآية . بدليل ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قدمنا على رسول الله ﷺ - أُغَيْلِمَةَ بنى عبدالمطلب ، على حجرات لنا من جمع ، فجعل يلطخ أفخاذنا ويقول : « أُبَيْنِىَّ لا ترموا الجمارة حتى تطلع الشمس » (٣) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « قال رسول الله « يا بُنَىَّ » .

وقوله تعالى : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ أمرٌ منه سبحانه برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عُرِفُوا ، فان لم يعرفوا فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم عوضاً عما فاتهم من النسب . ولهذا قال رسول الله ﷺ لعلى رضى الله عنه : « أنت منى وأنا منك » . وقال لجعفر رضى الله عنه : « أشبهت خَلْقِى وَخُلُقِى » . وقال لزيد رضى الله عنه : « أنتَ أخونا ومولانا » . كما قال تعالى : ﴿ فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ .

وقد جاء فى الحديث : « ليس من رجل إدَّعِىَ الى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر » (٤) . وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد فى التبرِّى من النسب المعلوم ولهذا قال تعالى : ﴿ أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ﴾ .

وفى هذا يقول الدهلوى فى حجة الله البالغة :

« من الناس من يقصد مقاصد دَنِيَّةً فيرغب عن أبيه وينتسب الى غيره وهو ظلم وعقوق لأنه تخييب أبيه ، فإنه طلبٌ بقاءِ نسله المنسوب اليه المتفرع عليه وتركُ شكرِ نعمته واساءةٌ معه . وأيضا فإنّ النصرة والمعاونة لابد منها فى نظام الحى والمدينة ، ولو فُتح بابُ الانتفاء من الأب لأهملت هذه المصلحة ولاختلطت

---

(١) سورة النساء - آية ٢٣

(٢) يراجع : تفسير ابن كثير المجلد الثالث : ص٨٠ ، تفسير القرطبى المجلد ٦ ص١١٩٩

(٣) أخرجه أحمد وأهل السنن إلا الترمذى

(٤) أخرجه البخارى ومسلم

أنساب القبائل . وقال ﷺ « أيَّما امرأةٍ أدخلت على قوم مَن ليس منهم فليست من الله فى شيء ولن يدخلها الله الجنة ، وأيما رجل جَحَدَ ولده وهو ينظر اليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الخلائق » (١) .

وهذا لأن انكار الأب يترتب عليه تعريضه وأُمِّهِ للذل الدائم والعار الذى لاينتهى . وفى هذا من الضرر ما لايخفى وهو يشبه قتل الأولاد من وجه .

وكذلك نهى الأبناء عن انتسابهم الى غير آبائهم ، فقال ﷺ : « من ادعى الى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » (٢) . لأن انتساب الولد الى غير أبيه عقوق للأب واساءة اليه وترك لشكر نعمته عليه .

وجعل الشارع لنشوء النسب سببا واضحا هو الاتصال بالمرأة عن طريق الزواج أو مِلْكِ اليمين . وأبطل ما كان يجرى عليه أهل الجاهلية من الحاق الأولاد عن طريق العهر والزنا . قال ﷺ : « الولد للفراش وللعاهر الحَجَرُ » (٣) . ومعناه أن من يجيء من الأولاد ثمرة لفراش صحيح قائم على عقد الزواج أو ملك اليمين يلتحق نسبه بأبيه ، وأن العهر والزنا لايصلح أن يكون سببا للنسب وانما يكون سببا لشيء آخر وهو الرجم بالحجارة (٤) .

الاستلحاق موجب لثبوت النسب

والاستلحاق موجب لِلُحُوقِ النسب وليس من التبنى المحرم المنهى عنه فى شيء ، لأن من شرط الحل فى الاستلحاق الشرعى أن يعلم المستلحِقُ أن المستلحَقَ ابنهُ ، أو يظن ذلك ظنا قويا . وحينئذ شرع له الإسلام استلحاقه وأحَلَّهُ له وأثبت نسبه منه . أما التبنى المنهى عنه فهو دعوى الولد مع القطع بأنه ليس ابنه ، وأين هذا من ذاك ؟ (٥)

---

(١) حجة الله البالغة جـ ٢ ص : ١٤٤

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجة عن سعد وأبى بكر جميعا ، الترغيب أن ينتسب الإنسان الى غير أبيه جـ٤ ص : ١٤٣

(٣) رواه أبو داود ، سنن أبى داود جـ ٣ ص : ٧٠٥

(٤) انظر الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن القيم من ص : ٢٥٢ : ٢٦٠

(٥) انظر : روائع البيان تفسير آيات الأحكام للصابونى جـ٢ ص : ٢٦٣ ، الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن القيم ص : ٢٦١

هل يلحق ولد اللعان بأمه؟

إذا نفى الرجل ابنه وتم اللعان بِنَعْتِهِ له انتفى نسبه من أبيه، وسقطت نفقته عنه ، وانتفى التوارث بينهما ، ولحق بأمه فهى ترثه وهو يرثها لحديث عمر ابن شعيب : « وقضى رسول الله ﷺ فى ولد المتلاعنين أنه يرث أمه وترثه أمه ، ومن رماها به جلد ثمانين » (١) .

ويؤيد هذا الحديثُ الأدلةَ على أن الولد للفراش ، ولا فراش هنا لنفى الزوج إياه ، وأما من رماها به اعتبر قاذفا وجلد ثمانين جلدة ، لأن الملاعنة داخلة فى المحصنات ، ولم يثبت عليها مايخالف ذلك ، فيجب على من رماها بابنها حد القذف . ومن قذف ولدها يجب حدُّهُ كمن قذف أمه سواء بسواء .

أما بالنسبة للأحكام الشرعية فإنه يعامل كأنه أبوه من باب الاحتياط فلا يعطيه زكاة المال ، ولو قَتَلَهُ لا قصاص عليه ، ولاتجوز شهادة كل منهما للآخر ، ولا يعد مجهول النسب فلا يصح أن يدعيه غيره ، واذا أَكَذَبَ نفسه ثبت نسبُ الولد منه ويزول كل أثر اللعان بالنسبة للولد .

وروى الإمام الفخر الرازى عن الشافعى رحمه الله أنه قال : « يتعلق باللعان خمسة أحكام : درء الحد ونفى الولد ، والفرقة ، والتحريم المؤبد ووجوب الحد عليها ، ولكها تثبت بمجرد اللعان ، ولاتفتقر الى حكم الحاكم (٢) .

٤- اختيار الاسم

أوصى رسول الله ﷺ الآباء بحسن اختيار اسماء أبنائهم ، فعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إنكم تُدعَوْنَ يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم » (٣) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : وان أحب اسمائكم الى الله عبدالله وعبدالرحمن » (٤) .

(١) رواه أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده
(٢) انظر تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص: ٣٤٦ ، تفسير آيات الأحكام للصابونى جـ٢ ص: ٩٥
(٣) رواه أبو داود
(٤) رواه مسلم والترمذى وأبو داود

وعن أبي وهب الجُشَمِيِّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « تسمّوا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء الى الله عبدالله وعبدالرحمن وأصدقها حارث (١) وهمام ، وأقبحها حرب(٢) وَمُرَّة(٣) » .

يتضح مما سبق أن الأسماء المحبوبة ثلاثة أقسام : فأفضلها واعلاها عبدالله وعبدالرحمن ونحوهما مما أضيف الى إسم من أسماء الذات العالية كعبدالرحيم وعبدالسلام ، وأوسطها أسماء الأنبياء كمحمد وأحمد وبقية أسمائه وأسماء إخوانه المرسلين والنبيين صلى الله وسلم عليهم جميعا ، وأصدقها ما كان وصفا فى الإنسان كحارث وهمام (٤) .

عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ كان يغير الاسم القبيح (٥) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن أبنة لعمر كان يقال لها عاصية فسماها رسول الله ﷺ : بجميلة (٦) .

٥ـ العقيقة

وهى مايعبر به عن الاحتفال بقدوم الولد واعلان نسبه . وفى بيان حكمتها والمصالح المترتبة عليها يقول الإمام الدهلوى (٧) : « كان العرب يَعقون عن أولادهم ، وكانت العَقِيقَةُ أمرا لازما عندهم وسنة مؤكدة . وكان فيها مصالح كثيرة راجعة الى المصلحة المالية والمدنية والنفسية . فأبقاها النبى ﷺ وعمل بها ورَغَّبَ الناس فيها ، فمن تلك المصالح التلطف باشاعة نسب الولد إذ لابد من إشاعته لئلا يقال فيه مالا يحبه ولايحسن أن يدور فى السكك ، فينادى أنه ولد لى ولد فتعين التلطف بمثل ذلك ، ومنها اتباع السخاوة ، وعصيان داعية الشح ، ومنها أن النصَارَى كان إذا ولد لهم ولد صبغوه بماء أصفر يسمونه المعمودية وكانوا

(١) لأن حارثا بمعنى كاسب ، وهماما بمعنى من به هم وكل انسان لايخلو من كسب وهم بل عدة هموم
(٢) لما فى حرب فى البشاعة ولما فى مر من المرارة
(٣) رواه أبو داود والنسائى
(٤) التاج الجامع للأصول المجلد الخامس ص : ٢٧١ ، ٢٧٢
(٥) رواه الترمذى
(٦) رواه الترمذى وابن ماجة انظر الترغيب فى الأسماء الحسنة والترهيب من الأسماء القبيحه » بن المنذرى جـ٤ ص : ١٤٩ . ويراجع حجة الله البالغة جـ٢ ص : ١٤٥
(٧) حجة الله البالغة جـ١ ص : ١٤٤

يقولون : يصير الولد به نصرانيا ، وفى مشاكلة هذا الاسم نزل قوله تعالى :

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً (١٣٨) ﴾ (١) .

فاستحب أن يكون للحنيفيين فعل بإزاء فعلهم ذلك يشعر بكون الولد حنيفيا تابعا لملة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، وأشهر الأفعال المختصة بهما المتوارثة فى ذريتهما ما وقع له عليه السلام من الإجماع على ذبح ولده ، ثم نعمة الله عليه أن فداه بذبح عظيم . وأشهر شرائعهما الحج الذى فيه الحلق والذبح فيكون التشبه بهما فى هذا تنويها بالملة الحنيفية ونداء أن الولد قد فعل به مايكون من أعمال هذه الملة ومنها أن هذا الفعل فى بدء ولادته يخيل إليه أنه بذل ولده فى سبيل الله كما فعل إبراهيم عليه السلام وفى ذلك تحريك سلسلة الإحسان والانقياد ، قال ﷺ : « مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دما وأميطوا عنه الأذى » (٢) وقال ﷺ : « الغلام مُرْتَهَنٌ (٣) بعقيقته يُذْبَحُ عنه يوم السابع ويُسَمَّى ويحلق (٤) » .

٦ - الحقوق التربوية

والمقصود بالتربية : إعداد الطفل بدنيا وعقليا وروحيا ، حتى يكون عضوا نافعا لنفسه ولأمته .

ولقد أفرد الإمام الغزالى لهذه الحقوق جزءا خاصا قدم له بواجب الآباء والمربين فى توجيه أبنائهم لتحسين أخلاقهم ، فقال :

« اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها ، والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل مانقش ومائل الى كل ما يمال به إليه ، فإن عُوِّدَ الخيرَ وعُلِّمَهُ نشأ عليه وسَعَدَ فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبوه وكل معلم له

(١) سورة البقرة - آية ١٣٨

(٢) رواه الخمسة الا مسلما ، التاج الجامع للأصول جـ٣ ص : ١٠٧

(٣) أى كالشىء المرهون لايتم الانتفاع والاستمتاع به دون فكه ، ويحتمل انه أراد بذلك أن سلامة المولود ونشأه على النعت المحبوب رهينة بالعقيقة .

(٤) سنن أبى داود جـ ٣ ص : ١٠٦

ومؤدب ، وان عود الشر وأُهمل اهمال البهائم شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة عَلِيِّهِ والوالى له . وقد قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فَبِأنْ يصونَه عن نار الآخرة أولى . وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء .

وأوجَبَ أن تكون التربية من أول مراحل الصبى ونشأته وهى مرحلة الولادة والرضاعة بألا تستعمل فى حضانته وارضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال : فإن اللبن الحاصل من الحرام لابركة فيه ، فإذا وقع عليه نشوء الصبى انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه الى مايناسب الخبائث » (١) .

والمقصود بالإعداد البدنى : تهيئة الطفل ليكون سليم الجسم ، قوى البنية قادرا على مواجهة الصعاب التى تعترضه ، بعيدا عن الأمراض والعلل التى تشل حركته ، وتعطل نشأته .

ومعنى اعداده عقليا : أن يُهَيَّأ كى يكون سليم التفكير ، قادرا على النظر والتأمل ، يستطيع أن يفهم البيئة التى تحيط به ، ويحسن الحكم على الأشياء ، ويمكنه أن ينتفع بتجاربه وتجارب الآخرين .

وأما اعداده روحيا : فمعناه أن يكون جياش العواطف ، ينبسط للخير ويفرح به ويحرص عليه ، وينقبض عن الشر ويضيق به ويفر منه (٢) .

أولا : وسائل اعداد الفرد بدنيا

والوسائل التى وضعها الاسلام لجعل الفرد صحيح البدن ، بعيدا عن الأسقام والعلل ، والتى يجب على المربى أن يأخذ بها فى التربية تتلخص فيما يلى :

١ ـ أن يحرص على النظافة فى البدن والثوب والمكان ، إذ ان النظافة ركن من أركان الصحة ودعامة من دعائمها . وأبلغ دليل على ذلك أن العبادات الإسلامية تقوم على الطهارة والنظافة وتجعل الطهارة شرطا لصحة الدخول فى العبادة وتفسد عند عدمها .

---

(١) احياء علوم الدين للغزالى جـ٣ ص : ٧٠ وما بعدها

(٢) يراجع : منهج التربية الاسلامية لمحمد قطب ص : ١٢٨ اسلامنا للسيد سابق ص : ٢٣٦ ـ ٢٤١

٢ ـ أن يُعَوَّدَ الطفلُ الأكل من الطيبات التى تغذى البدن وتقويه مع البعد عن الإسراف الذى يضر الجسم ويعرضه لكثير من الأمراض لقوله تعالى :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴿٣١﴾ ﴾(١) .

ويرشدنا الغزالى بقوله :

« وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغى أن يؤدب فيه مثل أن لايأخذ الطعام الا بيمينه ,وأن يقول (بسم الله) عند أخذه وأن يأكل مما يليه ، وأن لا يسرع فى الاكل وأن يجيد المضغ ، وأن لا يوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه » أ هـ (٢) .

٣ ـ أن يُحَبَّبَ اليه ممارسة الألعاب الرياضية مثل السباحة والرماية والمصارعة وركوب الخيل ، وأن يمنع عن النوم نهارا فإنه يورث الكسل ، ولا يمنع منه ليلا ، ويُعَوَّدُ فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لايغلب عليه الكسل . ويُعَوَّدُ أن لا يكشف أطرافه ولايسرع المشى ولايرخى يديه بل يضمهما الى صدره .

ثانيا : وسائل اعداد الفرد عقليا

الاسلام دين الفطرة ، فهو يحترم الطاقات البشرية كلها ، لأنها هبة الله المنعم الوهاب

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣)

ولكنه يعطيها أقدارها الصحيحة ، ومن ثم فهو يحترم الطاقة العقلية ، ويشجعها ويربيها لتتجه نحو الخير .

---

(١) سورة الأعراف ـ آية ٣١

(٢) إحياء علوم الدين جـ ٣ ص : ٧٢

(٣) سورة الملك ـ اية ٢٣ .

ويمكن تلخيص هذا الاعداد باتخاذ الوسائل الآتية :

١ - القراءة والكتابة والتعليم . يقول الله تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ (١)

ويرشدنا الإمام الغزالي (٢) الى تدعيم هذه الناحية التربوية والعقلية بقوله : « ينبغى حفظ الصبيان عن رداءة الأخلاق من كذب وحسد ونميمة ، وانما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب . ثم يشغل فى المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين . وينبغى ان يؤذن له بعد الانصراف من الكُتّابِ ان يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب فى اللعب ، فإن منع الصبى من اللعب وارهاقه فى التعليم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا . وينبغى ان يُعَلَّمَ طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو اكبر منه سنا » .

٢ - التأمل والتفكير ، وهما ضروريان لتنمية العقل واستقلاله بالفهم والادراك . والقرآن الكريم حافل بالآيات التى تدعو الانسان الى التأمل وايقاظ النفس واستشعارها لعظمة الله وقدرته فى الكون لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤ ﴾ (٣)

---

(١) سورة العلق آيات ١ - ٥

(٢) إحياء علوم الدين، المجلد الثالث ص : ٧٣ .

(٣) سورة البقرة - اية ١٦٤ .

ثالثا : وسائل الاعداد الروحى

يوجه الاسلام عناية خاصة لتربية الروح لأنها فى نظره مركز الكيان البشرى ونقطة ارتكازه والمهيمن الأكبر على حياة الانسان ، لانها صلة الانسان بالله :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (١)

ويمكن أن نلخص وسائل الاعداد الروحى فيما يلى :

١ ـ ابراز قيمة الفضائل وآثارها الفردية والاجتماعية ، واظهار مساوىء الرذائل وآثارها امام الطفل بقدر ما يتسع له فهمه ، وذلك بمراقبته وتعويده على الحياء والاحتشام وان يحبب اليه الايثار ويحفظه عن الصبيان الذين عُوِّدوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يُسمعه ما يُرغبه فيه .

٢ ـ ان يكون الآباء أنفسهم مثلا صالحا لأبنائهم ، فان الاطفال من عاداتهم ان يتشبهوا بآبائهم ويحاكوهم فى اقوالهم وافعالهم . والقدوة الصالحة ماهى الا عرض مجسم للفضائل . وان الطفل الذى يرى والديه يهتمان بأداء الشعائر والبعد عما يخل بتعاليم الدين مثل الكذب ، والغدر ، والنميمة والأثرة ، والبخل وغير ذلك من الصفات الذميمة لابد وأن يتأثر تأثرا بالغا بما يراه ويشاهده من والديه . وفى هذا يقول الغزالى (٢) : « فأوائل الامور هى التى ينبغى ان تراعى فان الصبى بجوهره خلق قابل للخير والشر جميعا ، وانما ابواه يميلان به الى احد الجانبين . قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، وانما ابواه يهودانه او ينصرانه او يُمَجِّسَانِهِ » (٣) .

٣ ـ تلقين الطفل مبادىء الدين . وتمرينه على العبادات ، وتعويده ممارسة فعل الخير ، فإن ذلك يجعل منه نواة صالحة لمجتمع سليم راق « ومهما بلغ سن التمييز . فينبغى ان لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ، ويعلم كل ما يحتاج اليه فى حدود الشرع » (٤) .

---

(١) سورة الحجر ـ اية ٢٩ .
(٢) إحياء علوم الدين ، مجلد ٣ ص : ٧٣
(٣) متفق عليه من حديث ابى هريرة .
(٤) إحياء علوم الدين ، ص : ٧٣

يقول الرسول الكريم ﷺ « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

٤ ـ على الآباء ان تكون معاملتهم لأولادهم قائمة على اساس الملاطفة وخفض الجناح . وقد كان النبى ﷺ يعلم أصحابه ان يعاملوا أولادهم بالرفق واللين ويضرب لهم المثل بما يمارسه هو بنفسه . فعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التيمى فقال : « ان لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا » . فنظر اليه رسول الله ﷺ ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » (١) . وقال اسامة بن زيد رضى الله عنهما : « كان رسول الله ﷺ يأخذنى فيقعدنى على فخذه ويعقد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول : « اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما » (٢) . وفيه عظيم الملاطفة للأطفال .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « جاء أعرابى الى النبى ﷺ فقال : « أتُقَبِّلون الصبيان فما نقبلهم » فقال النبى ﷺ : « أو أملك لك ان نزع الله من قلبك الرحمة » (٣) . ففيه ان العطف على الاولاد من الرحمة المحمودة ، وأن تركه من القسوة المشئومة . وعنها قالت : « جاءتنى امرأة ومعها ابنتان تسألنى فلم تجد عندى غير تمرة واحدة فأعطيتها . فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت . فدخل النبى ﷺ فحدثته ، فقال : « من بلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له سترا من النار » (٤) فالمرأة مع شدة جوعها لم تطعم من التمرة شيئا بل قسمتها بين بنتيها رحمة بهما وشفقة عليهما .

يقول الغزالى : « مهما ظهر من الصبى خلق جميل ، وفعل محمود فينبغى أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين اظهر الناس . فان خالف ذلك فى بعض الاحوال مرة واحدة فينبغى ان يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له ان يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، ولا سيما اذا ستره الصبى واجتهد فى اخفائه ، فان إظهار ذلك عليه ربما يفيد جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة . فعند ذلك ان عاد ثانيا فينبغى ان يعاتب سرا ويعظمَ الامر فيه . ولا تكثر القول عليه

---

(١) رواه البخارى وابو داود .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه الشيخان .. ويراجع التاج الجامع للاصول . المجلد الخامس ص : ٨٢٧ .
(٤) رواه الشيخان والترمذى .

بالعتاب فى كل حين فانه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه الا احيانا . والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح » (١) .

٥ ـ ومما هو ضروري : ان يحبب الآباء ابناءهم فى اختيار الاصدقاء الأخيار ومزاملة اصحاب الخلق الفاضل ، فان الاطفال يحاكى بعضهم بعضا ويتشبه كل بالآخر .

ويُحْفَظُ الصبى عن الصبيان الذين عُوِّدُوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء (٢)

ولننظر الى الصورة المثلى للتربية الحسنة كما يرويها القرآن الكريم فى حديث لقمان وهو يعظ ابنه اذ يقول :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣) .

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ =

---

(١) احياء علوم الدين . المجلد الثالث ص : ٧٣ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر .

(٣) سورة لقمان ـ اية ١٣ .

﴿مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (١).

ففى هذه الآيات الكريمة نرى تدرج الدعوة وأخذها بالأهم فالمهم فى خطوات أو مراحل متتابعة ومتكاملة لا انفصال بينها.

أولا : جانب العقيدة : متمثلا فى قوله : ﴿ يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم . يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة او فى السموات او فى الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير﴾ .

وبعد تثبيت العقيدة واستقرارها فى الضمير بعد الايمان بالله وحده لا شريك له ، واليقين بالآخرة لا ريب فيه والثقة بعدالة الجزاء لا يفلت منه مثقال حبة من خردل : بعد ذلك تأتى المرحلة الثانية .

ثانيا : تطبيق العقيدة : متمثلا فى التوجه الى الله بالصلاة والى الناس بالدعوة الى الله والصبر على تكاليف الدعوة ومتابعتها التى لابد ان تكون . ﴿ يا بنى أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ .

ثالثا : ثم ينتقل الى الجانب الأخلاقى والتربوى ، الى ادب الداعية الى الله ، فالدعوة الى الخير لا تجيز التعالى على الناس والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير ، ومن باب أولى يكون التعالى والتطاول بغير دعوة الى الخير اقبح وارذل ﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ . ويفرق صاحب المنار بين المختال والفخور بقوله (٢) « المختال : هو المتكبر الذى يظهر على بدنه اثر من كبره فى الحركات والاعمال فيرى نفسه اعلى من نفوس الناس ، وانه يجب على غيره ان يتحمل منه ما لا يتحمله هو منه . فالمختال

---

(١) سورة لقمان - آيات ١٦ - ١٩ .

(٢) يراجع : فى ظلال القران جـ ٢١ ص - ٧١ : ٧٥ . تفسير المنار جـ ٥ ص : ٩٥ - ٩٧ وتفسير ايات الاحكام للسايس جـ ٢ ص : ٣ وما بعدها . اسلامنا لسيد سابق ص : ٢٣٦ - ٢٤١ .

من تمكنت فى نفسه ملكة الكبر وظهر اثرها فى عمله وشمائله فهو شر من المتكبر غير المختال .

والفخور : هو المتكبر الذى يظهر أثر الكبر فى قوله كما يظهر فى فعل المختال . فهو يذكر ما يرى انه ممتاز به على الناس تبجحا بنفسه وتعريضا باحتقار غيره . فالمختال الفخور مبغوض عند الله تعالى لأنه احتقر جميع الحقوق التى وضعها الله عز وجل وأوجبها للناس ، وعَمِىَ عن نعمه تعالى عليهم وعنايته بهم . بل لا يجد هذا المتكبر فى نفسه معنى عظمة الله وكبريائه . لأنه لو وجدها لتأدب وشعر بضعفه وعجزه وصغاره » .

المبحث الثالث

الرضـــــــاع

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ
يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى
ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ
لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ
فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ
أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

« سورة البقرة - آية ٢٣٣ »

الرضـــاع

تعريف الرضاع فى اللغة

الرضاع والرضاعة بكسر الراء فيهما وفتحها . وأنكر الأصمعف الكسر مع الرضاعة . وفعله فى الفصيح من حد علم يعلم . . . مصدره رضاعا ورضاعة بالفتح (١) وهو لغة مَصُّ اللبن من الثدى .

تعريفه شرعا

هو مص الرضيع اللبن من ثدى آدمية فى وقت مخصوص ، هو مدة الرضـاع فخرج بذلك الرجل والبهيمة . (٢)

وقيل : مص من دون الحولين لبنا ثاب عن حمل أو شربه ، أو نحوه(٣) والأصل فيه قوله تعالى :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ

---

(١) مختار الصحاح ص : ٢٦٥

(٢) يراجع فتح القدير للكمال بن الهمام جـ ٣ ص : ٢

(٣) الإحكام شرح أصول الأحكام جـ ٤ ص : ٧٥

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ (١)

فالآية واضحة الدلالة على أحكام كثيرة منها :

١ ـ وجوب الرضاع على الأم ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ .

٢ ـ استحقاق الأم الأجرة على الرضاع اذا قامت به ﴿ وعلى المولود لـه رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ .

٣ ـ المدة التى تستحق الأم فيها الرضاعة ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ .

٤ ـ مقدار أجرة الرضاعة : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ .

٥ ـ من تجب عليه أجرة الرضاعة : ﴿ وعلى المـولود لـه رزقهن ﴾ ، ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ .

مدة الرضاعة

اختلف الفقهاء فى مدة الرضاع :

والكلام فى مدة الرضاع من ناحيتين :

(أ) ناحية كونه سببا من أسباب التحريم .

(ب) وناحية كونه حقا للطفل ، واتصاله بهذه المثابة بالنفقة ، وأن مؤونته فى الأصل على الأب وهى ما يهمنا فى بحثنا الا أننا سنتعرض للكلام عن الناحية الأولى نظرا لانبناء الناحية الثانية عليها .

---

(١) « سورة البقرة ـ اية ٢٣٣ »

أ ـ مدة الرضاع من حيث كونه سببا للتحريم

اختلفت آراء الفقهاء فى تحديد مدة الرضاع الذى يكون سببا فى التحريم . فذهب أبوحنيفة إلى أنها ثلاثون شهرا . . . وقال الصاحبان (أبويوسف ومحمد) إنها سنتان فقط ، وقال زفر : ثلاث سنين(١) .

وروى عن مالك (٢) : ان ما كان فى الحولين يحرم ، ومالم يكن فى الحولين لايحرم . . . وروى عنه أنه رأى الشهر والشهرين بعد الحولين رضاعا ، فقد قال : الرضاع حولان وشهران بعد ذلك . . وروى عنه أنه رأى ما بعدهما رضاعا إذا لم ينقطع الرضاع عنه .

وقال ابن وهب : « كل صبى كان فى المهد يخرج منه أو فى رضاعة حتى يستغنى عنها بغيرها ، فما أدخل فى بطنه من اللبن فهو يحرم » .

وقيل كذلك ان الشهر أو الشهرين يدخلان فى حكم الحولين ان لم يقع الفطام ، فان وقع الفطام ولو قبل الحولين ، ثم وقع الرضاع فيهما بعد الاستغناء عنه ، وانتقال عيشه إلى الطعام ، فقال ابن القاسم لايحرم ؛ فمناط هذا الرأى الاستغناء وعدمه .

وعند الشافعية : أن التحريم بالرضاع لا يثبت فيما يرضع بعد الحولين (٣) .

وعند الحنابلة : أن الاعتبار بالعامين لابالفطام ، فلوفطم قبل الحولين ثم ارتضع فيهما حصل التحريم ، ولو لم يفطم حتى تجاوز الحولين ثم ارتضع بعدهما وقبل الفطام ، لم يثبت التحريم (٤) .

الادلة :

استدل ابو حنيفة على رأيه بما يلى :

أولا : قوله تعالى

﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴿١٥﴾ ﴾ (٥)

بمعنى أن مدة كل من الحمل والفصال ثلاثون شهرا ، لأن الله تعالى ذكر فى الآية الكريمة شيئين وذكر لهما مدة ، فكانت هذه المدة مضروبة لكل واحد من هذين الشيئين .

(١) يراجع البدائع جـ ٤ ص : ٧٢٦ .

(٢) يراجع رأى المالكية فى : المدونة الكبرى جـ ٥ ص : ٨٨ ـ ٩١ ، مواهب الجليل شرح مختصر خليل جـ ٤ ص : ١٧٩ .

(٣) المهذب للشيرازى جـ ٢ ص : ١٦٦ .

(٤) يراجع المغنى : جـ ٩ ص : ٢٠٣

(٥) سورة الأحقاف ـ آية ١٥

لكن النقص فى مدة الحمل ثبت بقول عائشة : « الولد لايبقى فى بطن أمه أكثر من سنتين ولو بقدر فلكة مغزل » . ومثل هذا لايعرف الا سماعا ، اذ المقدرات لايهتدى العقل اليها ، وانما أمكن تخصيص هذه الآية بخبر واحد لأنها قابلة للتأويل بمعنى آخر ، فلم تكن دلالتها قطعية ؛ دليل ذلك أن الصاحبين وغيرهما وزعوا الأجل الوارد فيها على أقل مدة الحمل وهى ستة أشهر وأصغر مدة الرضاع وهى سنتان فتكون الثلاثون عندهم بيانا للمدتين ، لا لكل واحدة منها (١) .

ثانيا : بالمعقول ، فقالوا انه لابد من تغير الغذاء لينقطع الإنبات باللبن ، ويكون ذلك بزيادة مدة يتعود الصبى فيها على غير اللبن ، فقدرت هذه المدة بأدنى مدة الحمل لأنها معتبرة ؛ فان غذاء الجنين يغاير غذاء الرضيع كما يغاير غذاء الفطيم . . ويستند زفر على هذه الأدلة أيضاً . . غير انه يقدر مدة التحول من الغذاء باللبن الى الغذاء بغيره بعام ، لأن العام عنده حسن للتحول من حال الى حال ، اذ هو مشتمل على الفصول الأربعة (٢) .

واستدل الصاحبان والمالكية والشافعية بما يلى :

أولا : قوله تعالى :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (٣)

فهذه الآية عندهم تدل على أنه لارضاع بعد تمام الرضاع وهو الحولان المنصوص عليهما فى هذه الآية . . وقوله تعالى : ﴿ فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور ﴾ وهذا لايكون إلا قبل تمام المدة ، لأن الآية قيدته بالتراضى والتشاور وهما ليسا بلازمين بعد تمام المدة « يراجع التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٦ ص : ١١٨ » . .

وقد أفتى بذلك عبدالله بن مسعود . . فقد روى يحيى بن سعيد أن رجلا قال لأبى موسى الأشعرى : انى مصصت من ثدى امرأتى لبنا فذهب فى بطنى . قال أبو موسى : لا أراها إلا قد حرمت عليك . . قال عبدالله بن مسعود : أنظر ما تفتى

---

(١) يراجع : بدائع الصنائع جـ ٤ ص : ٧٢٦

(٢) يراجع : الهداية وفتح القدير للكمال بن الهمام جـ ٣ ص : ٥ ـ ٧

(٣) سورة البقرة ـ آية ٢٣٣

به الرجل . فقال أبو موسى : فما تقول أنت ؟ . فقال عبدالله : لارضاع إلا ما كان فى الحولين . فقال أبو موسى : لا تسألونى عن شىء مادام هذا الحبر بين أظهركم .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه قوله : لارضاع إلا ما كان فى الحولين (١) والحديث دال على اعتبار الحولين وانه لايسمى الرضاع رضاعا الا فى الحولين وهو الذى تدل عليه الآية : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين . ﴾

ثانيا : استدلوا من المعقول بأن الشارع لم يحرم اطعام الرضيع غير اللبن قبل الحولين ليلزم زيادة مدة التعود على السنتين ، بل يجوز أن يعود مع اللبن غيره قبل الحولين ، بحيث إذا وصل إلى الحولين تكون العادة قد استقرت فيفطم عند تمامها عن اللبن دفعة ، وعلى ذلك فلا تكون الزيادة على الحولين لازمة فى العادة ولا فى الشرع ، فلا يكون هناك محل لها (٢) .

ب. مدة الرضاع من حيث استحقاق الأجر

على الرغم من اختلاف الفقهاء فى تحديد مدة الرضاع بالنسبة لثبوت التحريم إلا أننا نرى اتفاقهم على تحديدها بالسنتين من حيث استحقاق الأجر فجاء فى الدر المختار فيما يتعلق بمدة الرضاع قوله : أما لزوم أجر الرضاع للمطلقة فمقدر بحولين بالاجماع . (٣) وفى حاشية ابن عابدين نقلا عن البحر أن أكثر المشايخ على أن مدة الرضاع فى حق الأجرة حولان عند الكل ، حتى لاتستحق بعد الحولين اجماعا ، وتستحق فيهما اجماعا (٤) .

وقال الجصاص فى تفسير قوله تعالى : ﴿ حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ إنه لا يخلو توقيت الحولين من أحد معنيين : إما أن يكون تقديرا لمدة الرضاع الموجب للتحريم ، أو لما يلزم الأب من نفقة الرضاع . فلما قال فى نسق

---

(١) رواه الدارقطنى وابن عدى مرفوعا وموقوفا ، ورجحا الموقوف .

(٢) يراجع : المغنى لابن قدامة ج٩ ، ص : ٢٠٣ ، الهداية وفتح القدير جـ٣ ، ص : ٥ ، المهذب للشيرازى جـ٢ ، ص : ١٦٦ سبل السلام للصنعانى جـ٣ ، ص : ٢١٦ .

(٣) الدر المختار وهو على هامش حاشية ابن عابدين ج٢ ، ص٥٥٥

(٤) حاشية ابن عابدين جـ٢ ، ص : ٩٣١

التلاوة بعد ذكر الحولين : ﴿ فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ دل ذلك على أن الحولين ليسا تقديرا لمدة الرضاع الموجب للتحريم ، لأن الفاء للتعقيب فواجب أن يكون الفصال الذى علقه بإرادتها وتشاورهما بعد الحولين . فقد دل ذلك على أن ذكر الحولين ليس هو من جهة توقيت نهاية الرضاع الموجب للتحريم وانه جائز أن يكون بعدهما رضاع . . ودل ما وصفناه على أن ذكر الحولين انما هو توقيت لما يلزم الأب فى الحكم من نفقة الرضاع ويجبره الحاكم عليه (١) .

ومدة الرضاع كذلك بالنسبة لاستحقاق الأجر عند الشافعية سنتان ، لأنها عندهم بالنسبة للتحريم سنتان (٢) أيضاً ونظيره عند الحنابلة سنتان أيضاً . .

ففى الكشاف (٣) أن المولود له تلزمه نفقة الظئر لما فوق الحولين لقوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ (٤)

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لارضاع بعد الحولين » .

وفى شرح العناية : ان الحديث محمول على مدة الاستحقاق . وقد أبهم فى الهداية الاستحقاق لأن بعضهم قال : المراد من الارضاع بعد الحولين لايستحق الولد الرضاع بعد الحولين . وقال بعضهم بنفى استحقاق الأجرة . . وكثير منهم قالوا : ان مدة الرضاع فى حق استحقاق الأجرة على الأب مقدرة بحولين عند الكل حتى لاتستحق المطلقة أجرة الرضاع بعد الحولين بالإجماع (٥) .

طبيعة الرضاع

يشتمل الحديث فى هذا القسم جانبين هما : هل الارضاع واجب على الأم وهل الارضاع واجب للأم ؟

الجانب الأول : **هل الارضاع واجب على الام ؟**

---

(١) أحكام الجصاص جـ ٢ ، ص : ٤٠٩

(٢) المهذب للشيرازى جـ ٢ ، ص : ١٧٩

(٣) كشاف القناع عن متن الاقناع جـ ٣ ، ص : ٣١٨

(٤) سورة البقرة ـ آية ٢٣٣ .

(٥) يراجع : البدائع جـ ٤ ، ص : ٧٢٦

الأم أقرب الناس الى ولدها ، وهى أكثرهم شفقة به وحنانا عليه ، ولبنها أفضل للطفل مما عداه باتفاق الأطباء ؛ لأنه يلائم حال الطفل بحسب درجات سنه . . لهذا جاءت النصوص الشرعية بأمر الوالدات بإرضاع أولادهن . فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ . . وهذا النص وان كان فى صورة خبر إلا أنه خبر فى معنى الأمر ، وهو يدل على الوجوب دلالة مؤكدة ، وإنما جاز ذلك لوجهين : الأول : تقدير الآية ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ فى حكم الله الذى أوجبه ، إلا أنه حذف لدلالة الكلام عليه . والثانى : أن يكون معنى ﴿ يرضعن ﴾ : ليرضعن إلا أنه حذف ذلك فى الكلام مع زوال الإبهام (١) .

ومن ثم اتفق فقهاء المسلمين على أن الرضاع واجب على الأم ديانة ، سواء أكانت متزوجة بأب الرضيع أم كانت مطلقة منه وانتهت عدتها ؛ فان امتنعت عن ذلك مع القدرة عليه كانت مسئولة عن ذلك امام الله . وعلى ذلك أجمع فقهاء المسلمين . فقال الحنابلة : على الأب أن يسترضع لولده إلا أن تشاء الأم أن ترضعه بأجر مثلها فتكون أحق به من غيرها سواء كانت فى حبال الزوج أو مطلقة (٢) . وقال المالكية : على الأم المتزوجة بأب الرضيع أو الرضيعة رضاع ولدها من ذلك الزوج بلا أجر تأخذه من الأب (٣) .

وقال الشافعية : على الأم ارضاع ولدها اللباء ـ أى اللبن النازل أول الولادة ـ لأن الولد لايعيش بدونه غالبا ، وغيرها لايغنى ، ولها أن تأخذ الأجرة إن كان لمثله أجرة ، ولا يلزمها التبرع بإرضاعه . ثم بعد إرضاع اللباء إن لم يوجد إلا هى أو أجنبية وجب على الموجود منهما إرضاعه إبقاء للولد (٤) وقال الجصاص فى أحكامه (٥) : الأم أحق برضاع ولدها فى الحولين وانه ليس للأب أن يسترضع له غيرها إذا رضيت بأن ترضعه .

هذا فى وجوب الإرضاع عليها ديانة . . أما وجوب الإرضاع عليها قضاء فيتوقف الحكم فيه على ما ان كانت الأم فى حبال الزوج ، أو أجنبية عنه . . . فان لم تكن فى حباله فإن العلماء على أن الأم لاتجبر على إرضاع ولدها لأن الرضاع من

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص : ١١٧
(٢) المغنى والشرح الكبير جـ ٩ ص : ٣١٢
(٣) الشرح الصغير جـ ٢ ص : ٧٥٤
(٤) مغنى المحتاج جـ ٣ ص : ٤٤٩
(٥) احكام الجصاص جـ ١ ص : ٤٠٤ .

النفقة ، والنفقة على الأب وحده لايشاركه فيها أحد ، فليس له أن يجبر أم الولد على من ترضعه له . وقد قال صاحب المغنى إنه لا يُعْلَمُ فى عدم إجبارها على الإرضاع خلاف إذا كانت مُفارِقة (١)

ومحل هذا ألا تكون ألأم متعينة للإرضاع ، بأن كان الولد مثلا لا يلقم ثدى غيرها ، أو لم يكن للأب ولا للصغير مال ولم يوجد من يقوم بإرضاعه بدون أجر ، أو لم يوجد من يرضع الولد أصلا لا بأجر ولا بدون أجر . . ففى هذه الحالات وأمثالها يكون الرضاع متعينا عليها دفعا للهلاك عن الولد . فالأمر يدخل بذلك فى حيز الضرورة . والمعروف ان الضرورات تبيح المحظورات فأولى أن تلتزم بسببها الأم بارضاع ولدها الذى تعين عليها إرضاعه احياء له (٢) .

وإن كانت فى حبال الزوج حقيقة أو حكما (كالمعتدة من طلاق رجعى) فقد اختلف الفقهاء فى وجوب الارضاع عليها :

١ ـ ففريق يرى أن الارضاع ليس واجبا عليها . . فلا يكون للزوج أن يجبرها على القيام به قضاء . . وهذا لايمنع ـ كما بينًا ـ انه واجب عليها ديانة ؛ وهو مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة والثورى . . فقال الحنفية : لايجب الارضاع على الأم قضاء ، وان كان يجب عليها ديانة ؛ فان امتنعت عن ارضاع ولدها مع القدرة عليه لايجبرها القاضى على ارضاعه الا اذا تعينت للارضاع . . ووجهتهم فى ذلك ان الرضاع حق للأم كما هو حق للولد ولا يجبر أحد على استيفاء حقه الا اذا وجد ما يستدعي هذا الاجبار . . ولأن الأم أكثر الناس حنانا وشفقة على ولدها فاذا امتنعت عن ارضاعه كان امتناعها دليلا على عدم قدرتها على الارضاع ، فلو ألزمناها به عند الامتناع لأدى ذلك إلى الاضرار بها ، واضرار الأم بسبب ولدها لايجوز لقوله تعالى ﴿ لا تضار والدة بولدها ﴾ (٣) .

وذهب الحنابلة فى المشهور عنهم إلى أن إرضاع الولد على الأب وحده ، وليس له اجبار أمه على رضاعه دنيئة كانت أو شريفة ، سواء كانت فى حبال الزوج أو مطلقة ، ولا نعلم فى عدم اجبارها على ذلك اذا كانت مفارقة خلافا فأما اذا كانت مع الزوج فكذلك عندنا (٤) .

---

(١) المغنى جـ ٩ ص : ٣٢١

(٢) يراجع : بدائع الصنائع جـ ٥ ص : ٢٢٥٢ ، مغنى المحتاج جـ ٣ ص : ٤٤٩ والشرح الصغير جـ ٢ ص : ٧٥٤ وأحكام الجصاص جـ ١ ص : ٤٠٤ ـ ٤٠٧ .

(٣) يراجع : أحكام الجصاص جـ ١ ص : ٤٠٤ ـ ٤٠٧

(٤) المغنى جـ ٩ ص : ٣١٢

وقال الشافعية : ان وجدت الأم والأجنبية لم تجبر الأم على ارضاعه وان كانت فى نكاح أبيه لقوله تعالى :

﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ ﴾ (١)

وان امتنعت حصل التعاسر (٢) . قالوا فى مقتضاه كما فى الآية ان ترضع له أخرى ولو كان الارضاع واجبا على الأم لما كان ذلك ، بل كان يتعين عليها الارضاع حتى عند الاختلاف ، بل ان معنى الجبر على الارضاع واضح فى حالة الاختلاف أكثر من وضوحه فى حالة عدم الاختلاف (٣) .

وحملوا الأمر الوارد فى قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ على الندب من حيث أن تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من سائر الالبان ، ومن حيث أن شفقة الأم عليه أتم من شفقة غيرها . هذا اذا لم يبلغ الحال فى الولد الى حد الاضطرار بأن لايوجد غير الأم أو لايرضع الطفل الا منها . فواجب عليها عند ذلك ان ترضعه كما يجب على كل احد مواساة المضطر فى الطعام (٤) .

ولكن يرى هذا الفريق أن الأم اذا تعينت تجبر على ارضاع ولدها . وتتعين الأم للارضاع اذا وجدت حالة من الحالات الآتية :

الحالة الأولى :

أن يكون الأب فقيرا فلم يجد مالاً يَسْتَأْجِرُ به من ترضع ولده ولم يكن للصغير مال كذلك ، ولم يجد من يقوم بارضاعه بدون أجر .

الحالة الثانية :

ألا يوجد من يرضع الولد أصلا لا بأجر ولا بدون أجر .

الحالة الثالثة :

أن يمتنع الولد عن الرضاع من غير الأم .

فاذا وجدت حالة من هذه الحالات الثلاث أجبرت الأم على ارضاع ولدها صيانة له من الهلاك .

---

(١) سورة الطلاق آية ٦

(٢) مغنى المحتاج جـ ٣ ص ٤٤٩

(٣) الأحوال الشخصية فى الشريعة الاسلامية فقها وقضاء لعبد العزيز عامر ص : ١٥٨

(٤) أنظر تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص : ١١٧

٢ ـ ويرى فريق آخر أن الأم تجبر على ارضاع ولدها . . . ومن هذا الفريق ابن أبي ليلى والحسن بن صالح وأبو ثور . . . وهو أيضا رواية عن مالك (١) لعموم قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ . ويرى هذا الفريق أن هذه الآية وان كانت فى صورة الخبر الا أنه خبر فى معنى الأمر ، وهو يدل على الوجوب دلالة مؤكدة . . ومادام الحال كذلك فان الأم ترضع ولدها وتجبر على ذلك قضاء اذا امتنعت عنه ، امتثالا لهذه الآية الكريمة .

٣ ـ وفريق ثالث يرى أن المرأة اذا كانت ممن لم تجر عادة مثلها على ارضاع ولدها فانها لا تجبر على ارضاعه ، وان كانت تجرى عادة مثلها أن ترضعه فإنها تجبر على إرضاعه وقد اعتمد هذا الرأى على العرف والعادة واعتبره مخصصا لعموم النصوص ، وهو المشهور عن مالك كما ورد ذلك فى الشرح الصغير (٢) : ان الأم يجب عليها ارضاع ولدها قضاء ، كما يجب عليها ديانة ، إلا لعلو قدر بأن كانت من أشراف الناس شأنهم عدم ارضاع نسائهم أولادهن فلا يلزمها إرضاع ، فإن أرضعت فلها الأجرة فى مال الولد إن كان له مال وإلا فعلى الأب لقوله تعالى

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۝٢٣٣ ﴾(٣) .

ويقول القرطبى فى كتابه ـ الجامع لأحكام القرآن ـ مؤيدا لرأى مالك ومفسرا له : « والأصل أن كل أم يلزمها إرضاع ولدها كما أخبر الله عز وجل ، فإنه أمر الزوجات بارضاع أولادهن ، وأوجب لهن على الأزواج النفقة والكسوة والزوجية قائمة . الا أن مالكا رحمه الله دون فقهاء الأمصار إستثنى الحسيبة فقال : لايلزمها ارضاعه : فأخرجها من الآية وخصصها بأصل من أصول الفقه وهو العمل بالعادة (٤) وهذا أصل لم يتفطن له الا مالك ، والأصل البديع فيه أن هذا أمر كان فى الجاهلية فى ذوى الحسب ، وجاء الاسلام فلم يغيره ، وتمادى ذوو الثروة والأحساب على تفريغ الأمهات للمتعة بدفع الرضعاء للمرضع الى زمانه فقال به » .

---

(١) المغنى جـ ٩ ص : ٣١٢

(٢) الشرح الصغير جـ ٢ ص : ٧٥٤

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٣ ص : ١٧٢

(٤) ومن هنا إستنبط الفقهاء قاعدة : العادة محكمة .

وقد بين ابن رشد (١) اختلاف الفقهاء فى جبر المرأة وعدم جبرها على ارضاع ولدها بقوله : « إن الفقهاء قد اختلفوا فى حقوق الزوج على الزوجة بالارضاع . فقال قوم إن ذلك يجب على الدنيئة ولا يجب على الشريفة الا اذا تعين عليها بأن كان الطفل لا يقبل ثدى غيرها . وان هذا هو مشهور قول مالك . وقال فريق ان ارضاع المرأة ولدها واجب عليها على الاطلاق . ولم يوجب ذلك عليها فريق آخر على الإطلاق . وسبب اختلافهم هو اختلاف المذاهب فى تفسير قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ ، فمن قال بأنها تتضمن حكم الرضاع بمعنى أنه واجب أوجب الرضاع على الوالدة على أساس أن هذه الآية من الأخبار التى مفهومها مفهوم الأمر . ومن قال بأنها تتضمن أمره فقط قال بعدم وجوب الإرضاع على الوالدة لأنه لا دليل على الوجوب . ومن قال بالتفرقة بين النساء بحسب مركزهن فى المجتمع فقد اعتبر فى هذا الرأى العرف والعادة » .

والذى نميل اليه رأى القائلين بعدم اجبار الأم على الرضاع قضاء وان (٢) كان ذلك واجبا عليها ديانة الا اذا تعينت ضرورة من الضرورات التى سبق ذكرها .. والذى يؤيدنا فى هذا :

أن النفقة على الأب لايشاركه فيها أحد ... ويدخل فى النفقة الارضاع فعليه مؤونته ، فان قبلت الأم الارضاع فبها ونعمت ، وإن أبت فان عليه أن يسترضع أخرى لقوله تعالى : ﴿ وان تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ .. ولاشك أنها اذا امتنعت عن الاوضاع مع طلبه فانهما يكونان قد تعاسرا بذلك .

وقد بينا فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لاتضار والدة بولدها ﴾ أى بأن تلتزم ترضعه مع أنها تكره ذلك ولاتريده ، اذ جبرها عليه مع هذا فيه اضرار بها والا تمنع أن تضار والدة بولدها ..

أما الوارد فى الآية الكريمة ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ فانها ظاهرها الخبر - كما بينا - وليس المراد هنا بالخبر ايجاب الرضاع على الأم وأمرها به على أساس أن الأمر قد ورد فى صيغة الخبر كقوله تعالى :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ (٣)

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد جـ٢ ص : ٤٩

(٢) تقصد بذلك الأم المطلقة ، أى التى ليست فى حبال الزوج - كما بينا

(٣) سورة البقرة - آية ٢٢٨

ودليل كونه ليس مرادا قوله تعالى

﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ (١)

وقوله تعالى

﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ۝ ﴾ (٢)

فهاتان الآيتان قرينة تصرف الخبر الظاهر بمعنى الأمر الى الندب والاباحة ، وأنها مخيرة فى أن ترضع .. ويكون الوجوب خاصا بما اذا تعينت حالة من الحالات التى يجب على الأم فيها ارضاع ولدها محافظة عليه من الهلاك والضياع (٣) ..

الجانب الثانى : هل الارضاع واجب للأم ؟

لما كانت الأم أقرب الناس الى ولدها وأكثرهم حنانا وشفقة عليه كانت أحق بارضاعه من غيرها .. فاذا رغبت فى ارضاع ولدها بدون أجر لم يكن للأب أن يمنعها لأن فى إرضاع الأم رعاية لمصلحة الصغير ، ولايترتب عليه اضرار بالأب فلايكون هناك مبرر لمنع الأم منه ولأن فى منع الأم من ارضاع ولدها اضرارا بها وهو لايجوز لقوله تعالى : ﴿ لاتضار والدة بولدها ﴾ . روى عن الحسن (٤) ومجاهد وقتادة قالوا : هو المضارة فى الرضاع . ومعناه لاتضار والدة بولدها بأن لاتعطى اذا رضيت بأن ترضعه بمثل ماترضعه به الأجنبية بل تكون هى أولى لما تقدم فى أول الآية من قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ .. فجعل الأم أحق برضاع الولد هذه المدة ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ لاتضار والدة بولدها ﴾ وقال : ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ فلم يسقط حقها من الرضاع الا عند التعاسر ، ويحتمل أن يريد به أنها لا تضار بولدها اذا لم تختر أن

سورة الطلاق - آية ٦

سورة الطلاق - آية ٦

يراجع : التفسير الكبير للفخر الرازى جـ٦ ص : ١١٧

يراجع : أحكام الجصاص جـ١ ص : ٤٠٥ ومابعدها

ترضعه بأن ينتزع منها ولكنه يؤمر الزوج بأن يحضر الظئر إليها حتى ترضعه فى بيتها . .

ولما كانت الآية محتملة للمضارة فى نزع الولد منها واسترضاع غيرها وجب حمله على المعنيين ، فيكون الزوج ممنوعا من استرضاع غيرها اذا رضيت هى بأن ترضعه بأجرة مثلها وهى الرزق والكسوة بالمعروف . وإن لم ترضع أجبر الزوج على احضار المرضعة حتى ترضعه فى بيتها حتى لايكون مضارا لها لولدها . .

وأما اذا كان الأجر الذى طلبته الأم أكبر من الأجر الذى طلبته المرضعة الأخرى ـ حتى ولو كان الأجر الذى تطلبه هو أجر المثل ـ فان الأم لاتكون أحق بارضاعه وذلك لقول الله تعالى :

﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ (١)

فإنه سبحانه وتعالى نهى عن اضرار الوالدة بسبب ولدها كما نهى عن اضرار الوالد بسبب الولد ، ومن الاضرار بالوالد أن تلزمه بالأجرة التى تطلبها مع وجود من يقع بهذا العمل مجانا أو بأجر أقل من الأجر الذى تطلبه الأم سواء كان الأب معسرا أو موسرا (٢) . . ولقوله تعالى :

﴿ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ (٣) .

وقيل : تجاب الأم الى الأجر الذى حددته لوفور شفقتها . ومحل الخلاف اذا استمرأ الولد لبن الأجنبية ، والا أجيبت الأم الى ارضاعه بأجرة المثل قطعا لما فى العدول عنها من الاضرار بالرضيع (٤) . .

وقال الحنابلة (٥) : إن كانت الأم مطلقة وطلبت أجر المثل فأراد انتزاعه منها ليسلمه الى من ترضعه بأجر المثل أو أكثر لم يكن له ذلك وإن وجد متبرعة أو من ترضعه دون أجر المثل فله انتزاعه منها فى ظاهر المذهب ، لأنه لايلزمه التزام

---

(١) سورة البقرة ـ آية ٢٣٣

(٢) يراجع : فتح القدير جـ٣ ص : ٣٤٥ ، ٣٤٦

(٣) سورة البقرة ـ آية ٢٣٣

(٤) يراجع : مغنى المحتاج جـ٣ ص : ٤٤٩

(٥) يراجع : المغنى لابن قدامه جـ٩ ص : ٣١٢ ، ٣١٣ ومنهاج الطالب فى المقارنة بين المذاهب ، د. عبدالسميع إمام من صفحة ١٠٤ إلى صفحة ١٠٧ .

المؤونة مع دفع حاجة الولد دونها ، والديل على وجوب تقديم الأم - إذا طلبت أجر مثلها - على المتبرعة قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ . . وقوله تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ . . ولأن الأم أحنى وأشفق ولبنها أمرأ من لبن غيرها فكانت أحق به من غيرها . . ولأن فى إرضاع غيرها تفويتا لحق الأم فى الحضانة وإضرار بالوالد ، ولايجوز تفويت حق الحضانة الواجب والاضرار بالولد لاسقاط حق أوجبه الله تعالى على الأب . .

وأما اذا طلبت الأم أكثر من أجر مثلها ووجد الأب من ترضعه بأجر مثلها أو متبرعة جاز انتزاعه منها لأنها اسقطت حقها باشتراطها وطلبها ما ليس لها فدخلت فى عموم قوله تعالى : ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ . . وان لم يجد مرضعة الا بمثل تلك الأجرة فالأم أحق لأنهما تساوتا فى الأجر فكانت الأم أحق كما لوطلبت كل واحدة منهما اجر مثلها . .

واذا سلمه الأب الى المرضعة لزمها أن تقوم بارضاع الطفل عند أمه أو ترضعه فى بيتها ثم ترده الى أمه لأن الحضانة حق لها ، وامتناعها عن الرضاع لايسقط حقها فى الحضانة على نحو ماسيأتى تفصيله فى فصل الحضانة . .

الأجرة على الارضاع :

أ- هل الأم تستحق أجرة على إرضاع ولدها ؟..

اذا قامت الأم بارضاع ولدها من تلقاء نفسها . أو لاجبارها على ارضاعه بواسطة القضاء فهل تستحق أجرة على الرضاع ؟ . . يختلف هذا الحكم باختلاف قيام الزوجية أو عدمها . . وتفصيل ذلك :

أولا : حكم استحقاق الأم أجرة الرضاع إذا كانت زوجة أو مطلقة رجعيا ..

ان قامت الأم بالرضاع حال قيام الزوجية أو فى عدة الطلاق الرجعى فلا تستحق أجرة على الرضاع ، لأن الزوج مكلف بالانفاق عليها فى حال الزوجية وفى حال العدة من الطلاق الرجعى ، لاتستحق عليه نفقة ثانية لئلا يؤدى ذلك الى اجتماع الأجرة والنفقة فى حال واحدة وهو لايجوز لكفاية النفقة الواجبة لها على

الزوج للقيام بهذا الحق ، فيكون المراد بقوله تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴿٢٣٣﴾ ﴾(١) .

فإذا كان فى شأن المنكوحات إيجاب زيادة النفقة على الأب للأم المرضعة لأجل الولد ، والا فالنفقة تستحقها المنكوحة من غير ولد (٢) . .

والى هذا ذهب الحنفية :

فقال ابن عابدين فى حاشيته (٣) : « ان فعل الإرضاع واجب على الأم ، ومؤونة هذا الارضاع واجبة على الأب لأنها المؤونة حال الزوجية وفى العدة قبل البينونة فلا يلزم بأجرة الرضاع حتى لا يجتمع عليه فى وقت واحد نفقتان » .

وعند مالك أن الزوجة تجبر على ارضاع ولدها من زوجها بالمجان اذا كانت الزوجية قائمة أو كانت فى عدة طلاق رجعى ، إن كانت الزوجة أو المعتدة ممن ترضع مثلها . وعلى ذلك فلا تستحق والدة الصغير إذا كان عليها إرضاعه أجرَ الرضاع مادامت فى حال قيام الزوجية أو فى أثناء العدة من طلاق رجعى . فمالك يتفق مع مذهب الحنفية فى عدم استحقاق الارضاع الأجرة فى هذه الحالة بصرف النظر عن اختلافهما فى جبر والدة الصغير على الارضاع أو عدم جبرها . والمهم فى هذا المجال أن من تجبر على الارضاع عند مالك لا تستحق عليه أجرا حال قيام الزوجية وفى العدة من الطلاق الرجعى (٤) .

وعند الشافعية (٥) أن الزوجة والزوج اذا رضيا أن ترضع هى ولدهما فان الأمر لا يعدو أن تكون قد رضيت بالارضاع دون أن تطلب على ذلك اجرا ، أو ان تكون قد رضيت بذلك وطلبت عليه أجرا . . فان كانت الأولى فقد اختلف الرأى فى لزوم الزيادة فى نفقتها من عدمه : (أ) ففريق على أن الزيادة فى النفقة بسبب الارضاع تلزمه . وأساس هذا الرأى أن المرضع تحتاج وهى ترضع أكثر من

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٣٣
(٢) يراجع : بدائع الصنائع جـ ٥ ص : ٢٢٥٢
(٣) انظر : حاشية ابن عابدين جـ ٢ ص : ٩٢٩ . ٩٣٠
(٤) يراجع : الاحوال الشخصية فى الشريعة الاسلامية لعبد العزيز عامر ص ١٦٦ ، ١٦٧
(٥) يراجع : المهذب للشيرازى جـ ٢ ص ١٧٩ . ١٨٠

حاجتها وهى لا ترضع .. لأن الإرضاع يستنفد منها جزءا من الغذاء بما يستهلك فى الرضاع من لبنها . فناسب هذا أن تزداد نفقتها حتى تعوض مايفقد منها فى الارضاع .

(ب)وفريق على أن الزيادة لا تلزمه بسبب الرضاع تأسيسا على أن النفقة مقدرة فلا يسوغ أن تجب زيادة هذا المقدر لحاجة المرضعة .. ونظير ذلك أنه لا تجب الزيادة فى نفقة كثيرة الأكل لحاجتها بسبب كثرة أكلها .

والحالة الثانية اذا رضيت بالارضاع وطلبت عليه أجرا . فقد اختلف الرأى كذلك :

(أ) ففريق على أنه لا يجوز ان يستأجرها على الارضاع ، لأن الوقت الذى يضيع فى الارضاع من حق الزوج فله أن يستمتع فيه بها وهو قد استحق هذا الاستمتاع ببذل هو النفقة .. فلا يجوز لها مع هذا البدل أن تأخذ أجرا . والمراد من ذلك أن منفعة الاستمتاع بالزوجة حق له ولا يسوغ أن يستأجر منها ما هو أو بعضه حق له .

(ب) وفريق على أن هذا الاستئجار جائز له ويجوز لها أخذ الأجرة على الارضاع ، ذلك لأن الارضاع لا يعدو أن يكون عملا تقوم به الزوجة أو من هى فى حبال الزوج وهى تستحق عليه (الارضاع) أجرا نظير قيامها بالنسج مثلا فلها عليه الأجر ، وكما انها تستحق الأجر على الارضاع بعد أن تبين من زوجها فهى تستحق عليه الأجر من زوجها قبل البينونة .

وعند الحنابلة (١) : أن الأم اذا طلبت ان ترضع ولدها بأجر مثلها فهى أحق به . ولم يفرقوا فى ذلك بين أن تكون فى حال الزوجية أو تكون أجنبية عن والد الصغير ، وسند هذا الرأى عندهم :

١ ـ أن الارضاع بالأجر عقد إجارة يجوز للزوجة أن تباشره مع غير الزوج اذا رضى الزوج بذلك فجاز من الزوج . ومثل ذلك أن تؤجر نفسها لحياكة أو خدمة أو نحو ذلك .

٢ ـ وردوا على قول الشافعية بأن المنافع مملوكة له بقولهم : انه لو ملك منفعة الحضانة لملك إجبارها عليها ولم تجز إجارة نفسها لغيرها بإذنه ولكانت الأجرة له . وانما امتنعت إجارة نفسها لأجنبى بغير إذنه لما فى ذلك من تفويت استمتاعه بها فى

---

(١) أنظر . المغنى لابن قدامة جـ ٩ ص : ٣١٢

بعض الأحيان . ولهذا جازت بإذنه ، واذا استأجرها هو فقد أذن لها فى اجارة نفسها ، فصح هذا الاستجار كما يصح من الأجنبى (١) .

والذى نميل اليه هو رأى القائلين بأن الزوجة أو المطلقة رجعيا لا تستحق أجرة على الارضاع اذا أرضعت ولدها من زوجها أو مطلقها حال قيام الزوجية أو فى عدة الطلاق الرجعى . ذلك لأن أم الصغير فى هذه الحالة تتقاضى من والده نفقتها ، فهى تأخذ رزقها وكسوتها منه ، فلا محل لأخذ أجر على الارضاع . لكن ان احتاجت الأم زيادة فى النفقة بسبب ارضاع الولد فاننا نرى أنه يجب على زوجها أو مطلقها الوفاء بهذه الزيادة ، ذلك لأنه مما لا جدال فيه أن المرضعة تستنفد منها الرضاعة كثيرا من مادة جسمها ويترتب عليها فى كثير من الأحيان الضعف والهزال اذا لم تتعهد المرضعة نفسها بغذاء خاص وبعناية خاصة فتسويتها مع ذلك بغير المرضعة فى النفقة فيها احجاف بها .

يعجبنى ماذكره ابن قدامة (٢) فى المغنى وفيه ما نصه : « وان أرضعت المرأة ولدها وهى فى حبال والده فاحتاجت الى زيادة نفقة لزمه لقوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ ولأنها تستحق عليه قدر كفايتها ، فاذا زادت حاجتها زادت كفايتها . وهذا يؤيده قوله تعالى : ﴿ لا تضار والدة بولدها ﴾ اذ أن القول بعدم الزيادة فى النفقة بسبب حاجتها فيه ضرر بها ، والآية الكريمة تمنع أن تضار والدة بولدها » .

ثانياً : حكم استحقاق الأم أجرة الرضاع إذا كانت مطلقة بائنة.

ان قامت الأم بالرضاع بعد انتهاء الزوجية ، وانقضاء العدة ، أو فى عدة الوفاة فانها تستحق الأجرة على الرضاع من غير خلاف بين العلماء لقوله تعالى :

﴿ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ ٦ ﴾ (٣)

---

(١) يراجع : المغنى جـ ٩ ص : ٣١٣

(٢) المغنى : لابن قدامة جـ ٩ ص : ١١٣

(٣) سورة الطلاق ـ أية ٦

فان الله تعالى أوجب على الأزواج أن يعطوا مطلقاتهم أجرة الارضاع اذا قمن به ، ولأن الأم فى هذه الحالة لاتجب لها النفقة على الأب لانفصام عرى الزوجية وانقطاع آثارها بانقضاء العدة أو الوفاة ، وفى إلزامها بدون أجر مع ضعفها وانقطاع نفقتها إضرار بها وهو لا يجوز لقوله تعالى : ﴿ لا تضار والدة بولدها ﴾ . (١)

ومما تقدم يتبين أن المدار فى استحقاق الأم أجرة الرضاع أو عدم استحقاقها على وجوب النفقة لها وعدم وجوبها . فان وجبت لها النفقة على الأب لقيام الزوجية أو قبل انقضاء العدة فلا تستحق الأجرة على الرضاع لكيلا تجمع بين نفقتين الا فى حالة احتياجها ـ كما بينا ـ ، وان لم تجب لها النفقة على الأب استحقت الأجرة على الرضاع ، لأنها فى هذه الحالة لاتجب لها النفقة على الأب فتكون كالأجنبية فى دفع أجرة الرضاع .

من تجب عليه أجرة الرضاع ؟

. الرضاع هو الغذاء الذى يحتاج اليه الطفل فى مبدأ حياته ، فهو بالنسبة للصغير كالطعام بالنسبة للكبير . وعلى هذا تكون أجرة الرضاع على من تجب عليه النفقة . والذى تجب عليه النفقة هو الأب لا يشاركه فيها أحد ، وفى هذا يقول المولى عز وجل :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴿٢٣٣﴾ ﴾(٢) .

فالله تعالى كما وصى الأم برعاية جانب الطفل فى قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ وصى الأب برعاية جانب الأم حتى تكون قادرة على رعاية

---

(١) تراجع آراء الفقهاء فى هذه المسألة فى كل من : مغنى المحتاج جـ ٣ ص ٤٤٩ مع الشرح الصغير جـ ٢ ص : ٧٥٤ ، المغنى جـ ٩ ص : ٣١٢ ، بدائع الصنائع جـ ٥ ص : ٢٢٥٢ ، واحكام الجصاص جـ ١ ص : ٤٠٤ وأحكام القرطبى جـ ٢ ص : ٦٦٨٩

(٢) سورة البقرة ـ آية ٢٣٣

مصلحة الطفل فأمره برزقها وكسوتها بالمعروف . والمعروف فى هذا الباب قد يكون محدودا بشرط وعقد . وقد يكون غير محدود الا من جهة العرف : لأنه اذا قام بما يكفيها فى طعامها وكسوتها فقد استغنى عن تقدير الأجرة . فان كان ذلك أقل من قدر الكفاية لحقها من الجوع والعرى فضررها يتعدى الى الولد .

ويقول سبحانه : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ وهو يدل على أن الأم يلزمها إرضاع ولدها : وأن على الأب أن يقوم بالإنفاق عليها ان كانت زوجة أو فى حكم الزوجة . واعطائها أجرة إن لم تكن زوجة ولا فى حكم الزوجة . وهذا يدل على أن احتياج الطفل الى رعاية الأم أشد من احتياجه الى رعاية الأب ، لأنه ليس بين الطفل وبين رعاية الأم واسطة الْبَتَّة . أما رعاية الأب فإنما تصل الى الطفل بواسطة ، فانه يستأجر المرأة على ارضاعه وحضانته بالنفقة والكسوة ، وذلك يدل على أن حق الأم أكثر (١) من حق الأب .

والأب لا يكلف الانفاق على الصبى وعلى أمه الا بما تتسع له قدرته لقوله تعالى :

﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۝٢٣٣ ﴾ (٢)

ولقوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۝٧ ﴾ (٣)

وهذا اذا لم يكن للصغير مال ، فان كان له مال وجبت الأجرة فى ماله لأنها قائمة مقام النفقة ، والنفقة لا تجب على الغير الا عند الحاجة ، واذا كان للصغير مال إنتفت هذه الحاجة .

واذا كان الأب فقيرا ولم يكن للصغير مال أجبرت الأم على ارضاعه ، واذا وجبت لها الأجرة كانت دينا على الأب يطالب بها عند يساره لقوله تعالى : ﴿ لا تضار والدة بولدها ﴾ ، بأن يضيق عليها النفقة والكسوة أو بأن يسىء عشرتها . واذا مات الأب ولم

---

(١) يراجع : التفسير الكبير للفخر الرازى جـ٦ ص : ١٢٠

(٢) سورة البقرة ـ آية ٢٣٣

(٣) سورة الطلاق ـ آية ٧

يكن للوليد مال وامتنعت الأم عن الارضاع فعلى الوارث مثل ذلك . يعنى إن مات المولود له لزم وارثه أن يقوم مقامه فى أن يرزقها ويسكوها بالمعروف وتجنب الضرار .
واختلف العلماء فى أنه أى وارث فقيل : هو العُصُبات دون الأم ، والاخوة من الأم ، وقيل : هو وارث الصبى من الرجال والنساء على قدر النصب من الميراث . وقيل : الوارث ممن كان ذا رحم محرم دون غيرهم من ابن العم .

والراجح كما قال الامام الفخر الرازى (١) بعد ذكر آراء المفسرين فى المراد من قوله تعالى ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ : واعلم أن ظاهر الكلام يقتضى أن لا فضل بين وارث ووارث ، لأنه تعالى اطلق اللفظ . فغير ذى الرحم بمنزلة ذى الرحم ، كما أن البعيد كالقريب ، والنساء كالرجال . ولولا أن الأم خرجت من ذلك من حيث مرذكرها بإيجاد الحق لها ـ يقصد قوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ ـ لصح أيضا دخولها تحت الكلام لأنها قد تكون وارثا كغيرها .

الخلاصة

نخلص مما تقدم الى أن الرضاع فى معناه العام حق من حقوق الطفل ثابت بمقتضى النصوص الشرعية ، فلا مجال للخلاف فيه ، وانما كانت اختلافات الفقهاء ناتجة عن اجتهاد اصحاب كل مذهب فى فهم وتفسير النصوص الشرعية . وهذه الاختلافات لا تمس جوهر هذا الحق الأصلى المقرر وانما هى تتناول كيفية تحقيق هذا الحق وتحديد المسئولية فيه .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ٦ ص : ١٢٢ ويراجع تفسير القرطبى مجلد ٢ص : ٨٧٥ وما بعدها ، وتراجع آراء الفقهاء فى : مغنى المحتاج جـ٢ ص : ٤٤٩ ، والشرح الصغير جـ٢ ص : ٧٥٤ ، والإحكام شرح اصول الأحكام جـ ٤ ص : ٦١ ، والمغنى جـ ٩ ص : ٣١٣ وما بعدها ، وأحكام الجصاص جـ ١ ص : ٤٠٤ .

المبحث الرابع

الحضانة

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴿٤٤﴾ ﴾

«سورة آل عمران - آية ٤٤»

الحضانة

تعريف الحضانة لغة

الحضانة بكسر الحاء وفتحها مصدر حضن . ويقال : حضن الصبى حضنا بفتح الحاء وحضانة : جعله فى حضنه بكسر الحاء ، والحضن ما دون الابط إلى الكشح . وحضن الطائر بيضه إذا ضمه الى نفسه تحت جناحه . وحضنت المرأة ولدها حضانة ، (وحاضنة) الصبى التى تقوم عليه فى تربيته و(احتضن) الشيء فى حضنه (١) .

وفى الشرع

حفظ من لايستقل بأمره وتربيته ووقايته مما يهلكه أو يضره (٢) . وعرفها صاحب البدائع بأنها ضم الأم ولدها الى جنبها واعتزالها اياه من أبيه ليكون عندها فتقوم بحفظه وامساكه وغسل ثيابه (٣) .

وقد جاءت الحضانة فى القرآن بلفظ آخر يفيد نفس المعنى وهو الكفالة وذلك قول تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) مختار الصحاح ص : ١٤٢ .

(٢) سبل السلام جـ ٣ ص : ٢٢٦

(٣) بدائع الصنائع جـ ٥ : ٢٢٥٢ .

(٤) سورة آل - عمران - آية ٤٤ .

وقوله تعالى :

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ (١) .

أى : يتعهده بالرعاية والحفظ والتربية والتنمية .

الاصل فى ثبوت الحضانة من الكتاب

أما الكتاب : فقوله تعالى :

﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ (٢) .

قال الجصاص (٣) « وفى هذا دلالة على أن الأم أحق بإمساك الولد ما دام صغيرا وان استغنى عن ا لرضاع بعدما يكون ممن يحتاج الى الحضانة ؛ لأن حاجته الى الأم بعد الرضاع كما هى قبله . فاذا كانت فى حالة الرضاع أحق به وان كانت المرضعة غيرها ، علمنا أن فى كونه عند الأم حقا لها وفيه حق للولد أيضا : وهو أن الأم ارفق واحنى عليه ، وذلك فى الغلام عندنا الى أن يأكل وحده ويشرب وحده ويتوضأ وحده ، وفى الجارية حتى تحيض » . ثم قال : « حكمت الآية أيضا أن الأم أحق بإمساك الولد من الأب » .

من السنة

أولا : ماروى عن عبدالله بن عمرو ان امرأة قالت : « يارسول الله إن ابنى هذا كانت بطنى له وعاء . وثديى له سقاء وحجرى له حواء ، وأن اباه طلقنى واراد ان ينزعه منى » . فقال رسول الله ﷺ « أنت أحق به مالم تنكحى » (٤) .

والحديث دليل على أن الأم أحق بحضانة ولدها إذا أراد الأب انتزاعه منها . وقد ذكرت هذه المرأة صفات اختصت بها تقتضى استحقاقها وأولويتها بحضانة ولدها . وأقرها ﷺ على ذلك وحكم لها . والحكم الذى دل عليه الحديث لا خلاف فيه وقضى به أبوبكر ثم عمر .

---

(١) سورة طه - آية ٤٠ (يراجع : معجم ألفاظ القرآن) .
(٢) سورة البقرة - آية ٢٣٣ .
(٣) يراجع : أحكام الجصاص جـ ١ ص : ٤٠٥ .
(٤) رواه أحمد وابوداود وصححه الحاكم .

ثانيا : ابن عباس : ريحها وفراشها وحرها خير له منك حتى يشب ويختار لنفسه (١) ودل الحديث على أن الأم إذا نكحت سقط حقها فى الحضانة : واليه ذهب الجمهور (٢) .

من الاجماع

فقد حكى ابن المنذر الاجماع عليه . وقال ابن تيمية : « أما الصغير فالأم أصلح له من الأب لأنها أرفق بالصغير واخبر بتغذيته وحمله وتنويمه واصبر وارحم به ، فهى اقدر واصبر وارحم واخبر فى هذا الموضع » (٣) .

حاجة الولد إليها

الولد منذ أن يولد محتاج لمن يعنى به ويقوم على تربيته وحفظه وتدبير كل ما يلزمه فى حياته ، لأنه فى حياته الأولى يكون عاجزا عن القيام بمصالح نفسه غير مدرك لما يضره وما ينفعه .

والشارع قد ناط هذا الأمر بوالدى الصغير لأنهما أقرب الناس إليه فى هذه الحياة . ووزع الأعباء عليهما كل فيما يصلح له .

أما عن تربيته ورعاية شؤونه فى المرحلة الأولى فقد جعلها للأم ، وأما عن ولاية التصرف فى نفس الولد وماله فقد جعلهاللأب .

وفى هذا يقول ابن القيم فى زاد المعاد :

« الولاية على الطفل نوعان : نوع يقدم فيه الأب على الأم ومن جهتها وهى ولاية المال والنكاح ، ونوع تقدم فيه الأم على الأب وهى ولاية الحضانة والرضاع . وُقدِّمَ كل من الأبوين فيما جُعِلَ له من ذلك لتمام مصلحة الولد وتوقف مصلحته على من يلى ذلك من أبويه ، وتحصل به كفايته وحسن تربيته . ولما كان النساء أعرف بالتربية وأقدر عليها وأرأف وأفرغ لها لذلك قدمت الأم فيها على

---

(١) اخرجه عبدالرزاق فى مصنفه.
(٢) يراجع : سبل السلام جـ ٣ ص: ٢٢٦، نيل الأوطار جـ ٦ ص: ٣٦٩.
(٣) شرح أصول الأحكام جـ ٤ ص: ٨٠

الأب . ولما كان الرجال أقوم بتحصيل مصلحة الولد والاحتياط له فى البِضْعِ قدم الأب فيها على الأم . فتقديم الأم فى الحضانة من محاسن الشريعة والاحتياط للأطفال والنظر اليهم . وتقديم الأب فى ولاية المال والتزويج كذلك » أ هـ (١) .

نقول : والذى يدل على أن الأم أحق بالولد فى الحضانة فى حياته الأولى من أبيه ما قدمناه من أدلة .

وكون الأم أحق بالطفل من الأب لايعرف فيه خلاف بين أهل الفقه ما دامت الأم قد اجتمعت لها شرائط الحضانة ، ولم يقم بالولد وصف يقتضى تخييره على نحو ما سيأتى ذكره .

طبيعة الحضانة

جعل الشارع الحقَّ فى حضانة الولد فى مراحل حياته الأولى لأمه ؛ لقوله ﷺ : « أنت أحق به مالم تنكحى » .

ولما كان المعروف أن المراد بالحضانة حفظ الصغير ورعايته والقيام على تربيته ، فهل تعتبر الحضانة لذلك حقا للولد على حاضنته فتجبر على الحضانة ، أم تعتبر حقا للحاضنة ، فلا تجبر عليها اذا أبتها ؟

اختلفت آراء الفقهاء فى هذه المسألة : فذهب فقهاء الحنفية الى رأيين : الرأى الأول : أن الحضانة حق للحاضنة فلا تجبر عليها ، واستدلوا على ذلك بأن الحاضنة لاتجبر على الحضانة لاحتمال عجزها لأن شفقتها كاملة على المحضون ، وهى لاتصبر عنها فى الأغلب الا عن عجز ، فلا معنى لايجابها عليها لأنها محمولة عليها دون الجبر .

وقالوا كذلك فى تفسير آية :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص : ١٣٢.

(٢) سورة البقرة - آية ٢٣٣

و ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

انهما اذا اختلفا فقد تعاسرا ، فتكون الآية الأولى للندب ، لا للوجوب . ومقتضى ذلك أن الوالدة لا تجبر .

وقال آخرون : بأن الحضانة حق للولد ، فتجبر الحاضنة وهو رأى ابن ابى ليلى ، والحسن بن صالح (٢) .

ونتيجة لهذاالرأى : أن الزوجة لو اختلعت على أن تترك ولدها عند الخروج فإن الخلع جائز ، والشرط باطل : لأن حق الولد أن يكون عند أمه لما كان اليها محتاجا (٣) .

وقد استدل من قال بالجبر على الحضانة :

أولا : بأن قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ أمر ، والأمر يفيد الوجوب . وأما آية **﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾** فان الكلام فيها ليس فى الحضانة بل فى الإرضاع ، والأمر هنا حضانة لا إرضاع .

ثانيا : حق الولد أن يكون عند أمه ما كان اليها محتاجا .

وخلاصة القول عند الحنيفة فى هذه المسألة أن البعض قال بأن الفتوى على عدم الجبر ، وأن البعض قال بأن الأولى الإفتاء بالجبر ، وقال آخرون بأن الحضانة حق للحاضنة وحق للمحضون .

وهناك اتفاق على أن الأم تجبر على الحضانة اذا تعين عليها ذلك بأن لم يوجد غيرها ، أو لم يقبل الحضانة غيرها ، أو لم يكن للأب ولا للصغير مال .

وذهب فقهاء الحنابلة (٤) الى أن الحضانة حق للحاضنة وللمحضون معا اذا احتاج الطفل لها ولم يوجد غيرها .

ففى كشاف القناع أن الأم اذا امتنعت عن الرضاعة لا تجبر عليها ، وأن الام أو غيرها اذا امتنعت عن الحضانة انتقلت الى من بعدها ، كما لو لم تكن موجودة . وَسَوَّى بين الامتناع عن الحضانة وبين ألا تكون الحاضنة أهلا للحضانة . وفيه

---

(١) سورة الطلاق - آية ٦

(٢) يراجع : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق جـ ٣ ص : ٤٧ .

(٣) نفس المرجع السابق ص : ٤٧ .

(٤) يراجع : كشاف القناع جـ ٢ ص : ٣٢٦ - ٣٢٨ ، زاد المعاد جـ ٤ ص : ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

كذلك أن من أسقط حقه فى الحضانة يسقط لإعراضه عنه ، وله العود فى حقه متى شاء لأنه يتجدد بتجدد الزمان كالنفقة وهذا يفيد أن الحضانة حق للحاضنة ، لأنها لا تستطيع أن تمتنع عن الحضانة ولا تجبر عليها أو تسقط حقها فيها من غير أن تؤخذ جبرا الا أن تكون الحضانة حقا لها لا عليها . ولكن فيه أيضا أن الحضانة واجبة . لأن الصغير يهلك بتركها ، فوجب حفظه من الهلاك ، كما يجب الانفاق عليه وانجاؤه من المهالك . وهذا يفيد أن عدم جبر الحاضنة على الحضانة مرده أن يكون هناك غيرها ممن هو أهل للحضانة ، اذ فى هذا الفرض لا يضيع الولد ، بل يكون عند آخر يحضنه . أما اذا لم يوجد الا الحاضنة التى لها الحضانة ، فانها تجبر عليها ولا تملك الامتناع عنها أو أن تسقط حقها فيها : لأن هذا ان كان لها ضاع الولد ، ولم يوجد من يربيه . فيصير هملا ، والشارع لا يرضى ذلك والذى يؤيد ذلك أيضا فى كلام الكشاف أنه ذكر أن الأم أو غيرها اذا امتنعت عن الحضانة انتقلت الى من بعدها كما لو لم تكن . فمرد عدم الاجبار عند الامتناع أن يوجد بعد الممتنعة من تتوافر فيه شروط الحضانة (١) .

وذهب المالكية (٢) الى رأيين : أحدهما أن الحضانة حق للحاضن والثانى حق عليه . واستدل من قال انها حق للحاضن بقوله ﷺ : « أنت أحق به ما لم تنكحى » .

وثمرة الخلاف بين القائلين بأن الحضانة حق لها لا للمحضون تظهر فى حالات منها :

أولا : أن من له الحضانة هل له أن يسقطها ؟

فمن قال إن الحضانة حق الحاضنة قال بأن لها اسقاطها .

ومن قال بأن الحضانة حق على الحاضن قال بأنه ليس لها أن تسقطها .

ثانيا : فى أجرة الحضانة .

إن قيل إن الحضانة حق على الحاضن ، وجب عليه خدمة المحضون مجانا .

وأن كان الحاضن فقيرا فله الأجر على قولين فى ذلك ، وأن قيل إن الحضانة حق للحاضن ، فلا يجب عليه خدمة الولد أيام حضانته الا بالأجرة (٣) .

---

(١) يراجع : كشاف القناع جـ ٣ ص : ٣٢٦ - ٣٢٨ .
(٢) يراجع : مواهب الجليل جـ ٤ ص : ٢١٦ .
(٣) يراجع : زاد المعاد لابن القيم جـ ٤ ص : ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

نخلص مما تقدم الى أن الآراء فى طبيعة الحضانة ثلاثة :

الأول : أنها حق للحاضنة .

الثانى : أنها حق للمحضون .

الثالث : أنها حق لهما معا .

والراجح : أن الحضانة حق للحاضن والمحضون معا . فالمحضون صاحب حق فى أن يكون عند أمه ، أو فى حضانة النساء عموما ، على الترتيب الذى أورده الفقهاء فى فترة معينة من حياته ، اذ النساء أقدر على أمور الحضانة من الرجال فى هذه الفترة وفى أن يكون عند أبيه أو عند الرجال على الترتيب الوارد أيضا فى الفقه ، فى فترة معينة لأن الرجال فيها أقدر على التعليم والتثقيف وبأخذ الغلام بأخلاق الرجال وحفظ البيت من السقوط فى هوة الفساد ، فى عصر عم فيه الفساد ، واشتدت الحاجة الى ذلك .

ومن ناحية أخرى : هى حق للحاضن ، لأن الشارع جعل لها ذلك بنظام خاص ، ومصلحة المحضون فى ذلك ومصلحة الحاضن فى أن يشب المحضون على الجادة وأن يبتعد عما هو شائن ، وأن يسير فى الطريق السوى .

واذا كانت الحضانة للمحضون وحقا للحاضن ، فهى من ناحية أخرى تكون واجبة على الحاضنة وواجبة على المحضون ، لأن الواجب هو الذى يقابل الحق ، فلا يمكن أن يحصل هذا الحق الا بجعل الحضانة واجبة على الحاضن وواجبة على المحضون سويا .

ومقتضى ذلك أن الحاضنة تجبر على الحضانة ، والحاضن كذلك يجبر عليها إذ فى هذا الجبر رعاية حق المحضون ، وأن الحاضنة لا يمكنها أن تمتنع عن الحضانة أو تسقط حقها فيها لأن حق المحضون متعلق بأن يكون عندها .

وليس معنى ذلك أن تتعين الحضانة فى شخص معين ولا تتعداه الى غيره مادام الغير المتوافرة فيه الشروط موجوذا وقابلا لها ، بل إن للحاضن ترك حقه أو اسقاطه أو الاتفاق مع آخر على تحمل الحضانة بشرط أن يوجد هذا الآخر ، وأن يكون مستجمعا للشرائط التى تؤهله للحضانة ، وهذا فيه رعاية لمصلحة المحضون ، لأنه سيكون فى حضانة من هو أهل للحضانة ، وسوف لا يكون فى كنف راغب عنها قد تؤدى به هذه الرغبة عنها الى ألا يقوم على مصالح المحضون ، كما يجب أن تكون الحضانة .

لكن إذا لم يكن هناك غير الحاضنة التي لها الحضانة من يصلح لها ، أو غير من عليه الحضانة من الرجال فإنها فى هذه الحالة تصير متعينة فلا يملك أن يسقطها ولا أن يمتنع عنها بحال ، حتى لا يظل الولد بلا حاضن صالح أو يكون عند غير أهل الحضانة .

من تكون له الحضانة

قلنا إن الأم هى أحق بالولد فى الحضانة من الأب ، لأنها أصبر على ذلك من الأب وأقدر عليه ، وأشفق على الصغير .

واذا لم تكن هناك أم تحضن الصغير ، بأن تكون قد ماتت ، أو لم تقبل الحضانة أو أسقطت حقها فيها ـ على قول من لا يجبرها عليها ـ أو كانت غير أهل للحضانة بأن تزوجت مثلا بغير محرم للصغير ، فإن قرابة الأم تقدم على قرابة الأب للاعتبارات المذكورة .

والى هذا ذهب فقهاء الحنفية : فقالوا (١) : يلى الأم من النساء فى حضانة غيرها على الترتيب الآتى : الجدة من جهة الأم ، يدل على ذلك :

١ ـ ما رواه أبو بكر بن أبى شيبة فى مصنفه أن عمر بن الخطاب طلق زوجته جميلة بنت عاصم ، فتزوجت ، فأخذ عمر ابنه عاصما ، فلحقت به أمه جميلة وأخذته ، فترافعا الى أبى بكر الصديق ، وهما متشبثان ، كل يدعى الولد فقال أبو بكر لعمر : « خل بينها وبين ابنها » ففى هذه الحادثة حكم أبو بكر برفض دعوى عمر ضم ابنه عاصم وأبقاه مع أمه .

٢ ـ أن ولاية الحضانة تستفاد من قبل الأم ، لأنها أحق الناس بالصغير فكانت التى من قبل الأم أولى من غيرها ، وأم الأم من قبل الأم ، فهى تدلى الى الصغير بالأم .

والمقصود بأم الأم ، الأم وإن علت : لكن هناك قيد فى أم الأم البعيدة ، هو أن الحق فى الحضانة يثبت لها عند أهلية القربى ، يعنى التى هى أقرب منها فلا يكون لها حق عند أهلية القربى .

ثم الجدة من قبل الأب ، أى أم الأب ـ وإن علت ـ وذلك بالشرط المذكور فى أم الأم ـ وإن علت ـ وهو عدم أهلية القربى .

---

(١) بدائع الصنائع جـ ٥ ص : ٢٢٧٤ .

ثم الأخوات . فأم الأب أولى من الأخت ، لأن لها أولادا فكانت أدخل فى الولاية وكذا هى أشفق ، ولأنها أقرب إليه ولا يشاركها فى القرب إلا أبوه وليس له مثل شفقتها ، ولا يتولى الحضانة بنفسه وانما يدفعه الى امرأته .

وتقدم الأخت الشقيقة ، ثم الأخت لأم ، ثم الأخت لأب ، وانما كانت الأخت لأم مقدمة على الأخت لأب فى الحضانة لأن حق الحضانة ـ كما بينا ـ لقرابة الأم ولكن الخالة أولى فى الحضانة . من الأخت لأب لقول رسول الله ﷺ : « الخالة والدة » ، لأن الخالة تدلى الى الصغير بالأم بينما تدلى الأخت لأب بالأب فكانت الخالة أولى باعتبار المدلى به .

ثم بنت الخالة الشقيقة ، ثم الأم ثم بنت بنت الأخت لأب ، ثم يأتى دور العمات لأب وأم ، ثم لأم ، ثم لأب ، ثم خالة الأم ، ثم خالة الأب ، ثم عمات الأمهات ، ثم عمات الآباء .

حضانة العصبات

حضانة العصبات تكون فى السن الذى يجب فيه وجود الصغير مع النساء فى إحدى حالتين :

١ ـ ألا يكون للصغير أحد من محارمه النساء .

٢ ـ أن يكون لهنساء من المحارم الصالحات من حيث الأصل للحضانة لكن سقط حقهن بأى سبب من أسباب سقوط الحق فى الحضانة .

ويلاحظ أن الذى يحكم المسألة بالنسبة للعصبات أنهم فى استحقاق الحضانة يتبعون الإرث ، فتكون الحضانة على الترتيب الذى فى باب الإرث .

فيقدم الأقرب فالأقرب (١) ، وعلى ذلك فإن أول العصبات استحقاقا للحضانة هو الأب، ثم الجد أبو الأب وإن علا ، ثم الأخ الشقيق ، ثم الأخ لأب ، ثم ابن الأخ الشقيق ، ثم ابن الأخ لأب ثم العم الشقيق ، ثم العم لأب .

حضانة ذوى الأرحام

المقصود بذوى الأرحام فى الحضانة غير المقصود بهم فى باب الميراث . فهم فى باب الفرائض كل قريب ليس صاحب سهم ولا عاصبا ، فالأخ من الأم ليس فى باب الفرائض من ذوى الأرحام لأنه من أصحاب الفروض .

(١) يراجع : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق جـ ٣ ص : ٤٧ ، ٤٨ .

والمراد بذوى الأرحام فى الحضانة : كل قريب ذى رحم محرم من المحضون وهو غير عصبة مثل : الأخ لأم ، والعم من الأم والخال (١) .

ودور ذوى الأرحام فى الحضانة يأتى بعد العصبات ، سواء انعدم هؤلاء أو وجد بعضهم لكنه كان ساقط الحق فى الحضانة كابن عم الصغيرة .

والحضانة لذوى الأرحام مناطها المحرمية فيجب أن يكون طالب الحضانة من ذوى الأرحام رحما محرما . وعلى ذلك لاحق لولد الخال والخالة لأن كلا منهما ليس محرما للصغير وهما من ذوى الأرحام فلا تكون لهم حضانة(٢) .

وأصل الخلاف بين الفقهاء فى ترتيب أهل الحضانة هو تكييف تقديم الأم على الأب فى الحضانة . والأم مقدمة على الأب فى الحضانة عند الجميع مادامت توافرت فيها شروط الحضانة التى قررها الشارع .

ومعلوم أيضاً أن الولاية على الطفل نوعان :

نوع يقدم فيه الأب على الأم ، وعلى من فى جهتها . وهـذا النوع من ولاية المال وولاية النكاح ، لأن الرجال أعرف بتحصيل مصلحة الولد فى النكاح وبما ينفعه .

(٢) ونوع فيه الأم على الأب ، وهو ولاية الحضانة والرضاع ، لأن النساء أقدر على التربية وأصبر ، وفيهن زيادة شفقة (٣) .

وبناء على هذا قال قوم إن الأم قدمت على الأب بسبب الأمومة .

وقال غيرهم انها قدمت على الأب لأن النساء أقدر على الحضانة من الرجال فيكون تقديم الأم لأنها أنثى .

فمن قال بأن الأم مقدمة لأجل الأمومة قدم معها أقاربها على نساء العصبة فقد قدم أم الأم على أم الأب ، والأخت من الأم على الأخت من الأب ، والخالة على العمة .

---

(١) نفس المصدر السابق ص : ٤٨ .

(٢) يراجع ترتيب المستحقين للحضانة فى المذاهب المختلفة فى الكتب التالية :
المهذب جـ ٢ ص : ١٨١ : ١٨٣ ، نهاية المحتاج جـ ٦ ص : ٢٧٠ : ٢٧١ ، مواهب الجليل جـ ٤ ص : ٢١٥ ، الدسوقى على الشرح الكبير جـ ٢ ص : ٤٨٨ ، كشاف القناع جـ ٣ ص : ٣٢٧ ، المغنى جـ ٩ ص : ٣٠٩

(٣) انظر زاد المعاد جـ ٤ ص : ٢٤١ ، ٢٤٢ .

ومن قال بأن الأم مقدمة على الأب لأجل الأنوثة لم يمنع تقديم نساء العصبة على أقارب الأم ، لأن الأنوثة التى هى مناط التقديم توافرت فى نساء العصبة توافرها فى أقارب الأم .

وهذان الاتجاهان روايتان عن أحمد ، مقتضى الأولى تقديم أقارب الأم ، والثانية تقديم أقارب الأب . وقالوا : إن الرواية التى تقدم أقارب الأب على أقارب الأم هى الأصح دليلا ، واختارها ابن تيمية .

وعلى هذه الرواية قدموا الأخت من الأب على الأخت من الأم ، وقدموا العمة على الخالة . وعلى هذه الرواية أيضاً يقدم أقارب الأب على أقارب الأم . فالأخ للأب أحق من الأخ للأم ، والعم أحق من الخال . وذلك عند من يجعل لأقارب الأم من الرجال مدخلا فى الحضانة .

وقال ابن القيم : « ان هذا يدل على تقديم جهة الأبوة على جهة الأمومة فى الحضانة وأن الأم انما قدمت لكونها أنثى ، لا لتقديم جهتها على جهة الأبوة » .

وقال تأييدا لترجيح جهة الأبوة فى الحضانة : « إن أصول الشرع وقواعده شاهدة على تقديم جهة الأب على جهة الأم ، وذلك فى الميراث وولاية النكاح وغير ذلك . ولم يُعهد فى الشرع تقديم قرابة الأم على قرابة الأب فى حكم من الأحكام » .

ورجح ـ بناء على ذلك ـ الجدة أم الأب على أم الأم ، والأخت للأب على الأخت للأم ،والعمة على الخالة ، وهو المنصوص عليه عن أحمد فى إحدى الروايتين .

وعلى هذا الأصل تقدم الأنثى على الذكر إن اتفقت القرابة والدرجة وأصل هذا تقديم الأم على الأب . وان اختلفت القرابة قدمت قرابة الأب على قرابة الأم . فتقدم الأخت للأب على تلك التى للأم ، والعمة على الخالة ، وعمة الأب على خالته . وقال ابن القيم إن من لم يعتبر هذا الاصل وقع فى التناقض ولم يجر على وتيرة واحدة . ومثل لهذا بأمثلة منها :

١ ـ أن مالكا وأبا حنيفة والشافعى وأحمد فى احدى روايتيه يقدمون أم الأم على أم الأب ، لكن الشافعى لم يطرد على هذا الأصل ، وكذلك أحمد : أن الأول فى ظاهر مذهبه والثانى فى المنصوص عنه ، يقدمان الأخت للأب على الأخت للأم ، وهذا جرى على أصل آخر وترك للقياس ، فى حين أن أبا حنيفة جرى على أصله ومعه أيضاً المُزَنى وابن شريح فقالوا بتقديم الأخت للأم على الأخت للأب

٢ ـ ان الشافعى فى الجديد قدم الخالة على العمة مع تقديمه الأخت للأب على الأخت للأم وهو قبل ذلك قدم أم الأم على أم الأب ، وكان القياس يقتضى حسب أصله أن تقدم الأخت للأم على الأخت للأب .

٣ ـ ومن أصحاب أحمد من قدم الخالة على العمة ، وقدم الأخت للأب على الأخت للأم . وكان القياس يقتضى تقديم الأخت للأم على الأخت للأب .

٤ ـ وان مالكا قدم كذلك الخالة على الأب وأمه . ومن اصحابه من قدم خالة الخالة ، وفى هذا تقديم لقرابة الأم .

٥ ـ وان مالكا قدم كذلك الخالة على الأب وأمه . ومن أصحابه من قدم خالة الخالة ، وفى هذا تقديم لقرابة الأم وان بعدت على الأب نفسه وعلى قرابته ، مع أن الأب وأقاربه أكثر شفقة من هؤلاء ، وأرعى لمصلحة الولد أيضاً .

٦ ـ وأحمد فى إحدى الروايتين عنه يقدم الأخت من الأم والخالة على الأب كذلك ، وهذا غاية البعد ومخالفة القياس . ولا يسنده إدلاؤها بالأم ، لأنها لا يساويانه وليس أحد أقرب إلى ولده منه (١) .

وقد تكلم ابن القيم عن بعض ضوابط الفقهاء فى ترتيب من لهم الحضانة ، ومن هذه الضوابط أن الاعتبار فى الحضانة بالولادة المحققة ، وهى الأمومة ثم الولادة الظاهرة وهى الأبوة ، ثم الميراث ، ثم الإدلاء ، فتقدم الخالةعلى العمة لإدلائها بالأم .

وبعد ذكر هذه الطريقة حمل عليها وندد بفسادها . ومما قاله : « ان من لوازم تقديم الأمومة تقديم من فى جهتها على الأب ومن فى جهته . ومن ذلك تقديم الأخت لأم وبنت الخالة على الأب وأمه ، وهذا ليس بسائغ فضلا عن مخالفته لأصول الشرع » (٢) . ثم انتهى بضابط لابن تيمية خلاصته أن الحضانة ولاية تعتمد على الشفقة والتربية والملاحظة ؛ فأحق الناس بها أقومهم بهذه الصفات وهم أقاربه يقدم منهم أقربهم اليه ، وأقومهم بصفات الحضانة . فاذا اجتمع أكثر من واحد ، واستوت درجتهم ، قدمت الأنثى على الذكر ، فتقدم الأم على الأب ، والجدة على الجد ، والخالة على الخال ، فإن كانا ذكرين أو أنثيين قدم أحدهما بالقرعة .

---

(١) راجع : زاد المعاد جـ ٤ ص : ٢٤٢ ـ ٢٤٦ .
(٢) راجع : زاد المعاد جـ ٤ ص : ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

وان اختلفت درجتها من الولد :

فإن كانوا من جهة واحدة قدم الأقرب اليه ، فتقدم الأخت على ابنتها والجد أبو الأم على الأخ للأم ، وهذا أحد الوجهين فى مذهب أحمد . وقيل لاحضانة للأخ لأم مطلقا ، لأنه ليس عاصبا ولا من نساء الحضانة ومثله الخال ولا نزاع أن أبا الأم وأمهاته أولى من الخال .

وان كانوا من جهتين لقرابة الأم وقرابة الأب . كالعمة والخالة والأخت للأب والأخت للأم ، وأم الأب ، وأم الأم ، قدم من فى جهة الأب فى كل ذلك فى احدى الروايتين .

وكل هذا اذا استوت الدرجة ، أو كانت جهة الأب أقرب للطفل .

لكن ان قربت جهة الأم عن جهة الأب قدم الأقربَ إلى الطفل لقوة شفقته وحنوه .

ومن قدم قرابة الأب إنما قدمها مع مساواة قرابة الأم لها ، أما إن بعدت قرابة الأب قدمت قرابة الأم .

وقال ابن القيم : « ان هذا الضابط يمكن به حصر جميع مسائل هذا الباب وجريها على القياس الشرعى ، فأى مسألة وردت فى الباب أمكن أخذها من هذا الضابط مع كونه مقتضى الدليل ، ومع سلامته من التناقض » (١) .

شروط الحضانة فى النساء

أولا : البلوغ

يشترط فى الحاضنة أن تكون بالغة ، لأن الحضانة من باب الولاية والصغير ليس من أهل الولاية . وكون البلوغ شرطا فى الحضانة متفق عليه بين سائر الفقهاء ، لأن الطفل محتاج إلى من يخدمه ويقوم على شئونه ، فكيف يكون له أن يتولى شؤون غيره » (٢) .

ثانيا : العقل

ويأخذ حُكْمَ الصغر الجنون ، فالمجنون لايستطيع القيام بشؤون نفسه فلا يكون له تولى شؤون غيره وسواء كان الجنون مطبقا أو متقطعا .

---

(١) زاد المعاد جـ ٤ : ص٢٥١ ، ٢٥٢

(٢) المغنى جـ ٩ ص : ٢٩٧ ، كشاف القناع جـ٣ ص : ٣٢٨ ، زاد المعاد جـ٤ ص : ٢٦٠ .

والمعتوهة كذلك تأخذ حكم المجنونة والصغيرة ، لأنها محتاجة لرعاية الغير فلا ترعى هى غيرها ، وكلا المجنون والمعتوه ولايتهما لغيرهما كالصغير فلا ولاية لهما تسبغ على محضون ، اذ الحضانة من الولاية .

وهذا الشرط فى شقيه يتفق أيضاً مع المعقول ، اذ لا يتصور أن يكون الشخص قاصرا فى حق نفسه وتكون له ولاية على غيره ، وهو مع ذلك فى حاجة الى اشراف الغير وتوجيهه وارشاده والأخذ بيده فى شئون نفسه وحياته فكيف يسوغ أن يتولى هو هذا الاشراف على الغير ، لا شك أنه إن قبل بذلك لم يكن فيه نظر للصغير المستحق الحضانة ولم تكن فيه مصلحة له ، وهذا ينافى مقاصد الشارع الحكيم ؛ فكان البلوغ والعقل ـ لكل ما تقدم ـ من شروط الحضانة(١) .

ثالثا : عدم الفسق

الفسق مانع من الحضانة باتفاق جميع الفقهاء . فذهب فقهاء الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة الى ان الفاسقة ليست أهلا للحضانة لأن الفاسق غير موثوق به فى أداء واجبه من الحضانة ، وفى حضانته للولد ضرر ، لأنه ينشأ على طريقته فى الحياة فاسقا ، وهذا ينافى مقاصد الحضانة التى هى نفع الولد وتحقيق مصلحته ، ودفع الضرر عنه ، ولأن الحضانة من باب الولاية ، ولا ولاية للفاسق (٢) .

وذلك على الرغم من اختلافهم فى تحديد الفسق المانع من الحضانة ، فالبعض ذهب إلى أن مطلق الفسق يمنع الحضانة ، فالفاسقة بترك الصلاة لا حضانة لها . والبعض ذهب الى أن المراد بالفسق فى هذا المجال ، الفسق الذى يضيع به الولد ، كالزنى المقتضى لاشتغال الأم عن الولد بالخروج من المنزل ونحو ذلك ، كأن تكون سارقة ، أو نائحة ، فالمناط هو ضياع الولد ، حتى لقد قيل ان الحاضنة لو كانت صالحة كثيرة الصلاة ، قد استولت عليها محبة الله تعالى وخوفه حتى شغلت بذلك عن الولد ولزم ضياعه انتزع منها . ولا يعقل أن تكون الذمية

---

(١) يراجع فى شرط العقل : حاشية الدسوقى على الشرح الكبير جـ٢ص : ٤٨٩ ، نهاية المحتاج جـ٦ ص : ٢٧٣ ، والمغنى جـ٩ ص : ٢٩٧ ، وزاد المعاد جـ٤ ص : ٢٦٠ .

(٢) يراجع : حاشية الدسوقى على الشرح الكبير جـ٢ ص : ٤٨٩ ، نهاية المحتاج جـ٦ ص : ٢٧٣ ، المغنى جـ٩ ص : ٢٩٦ .

أحق بولدها المسلم ما لم يعقل الأديان ، ثم لا تكون المسلمة الفاسقة فسقا لا يضيع به الولد أهلا لحضانته .

وفى زاد المعاد حمل على الذين يجعلون الفسق من الحضانة وقال : « ان عدالة الحاضن ليست بشرط » ، وتعجب كيف يمنعون حضانة الفاسق ولا يمنعون حضانة غير المسلم ، مع أن الكفر هو أكبر فسق . وقال : « ان اشتراط العدالة فى الحاضن فى غاية البعد ، ولو اشترط ذلك لضاع أطفال العالم ولعظمت المشقة على الأمة . . ولم يزل أطفال الفساق بينهم من حين قام الاسلام إلى أن تقوم الساعة وهم الأكثرون . ونظير ذلك اشتراط العدالة فى ولاية النكاح مع أن أكثر الأولياء الذين يلون ذلك من الفساق وان النبى ﷺ لم يمنع فاسقا من تربية ابنه ، ولا فعل ذلك الصحابة رضى الله عنهم من بعده وزيادة على ذلك فإن العادة جارية على أن الرجل إن كان فاسقا يحتاط لابنته ولا يضيعها ويحرص على خيرها بجهده » (١) . وعلى ذلك فقد تحرر من الفسق أقوال ثلاثة :

الأول : أن الفسق مانع مطلقا من الحضانة ، فمثلا الفاسقة بترك الصلاة لاحضانة لها .

الثانى : أن الفسق يمنع الحضانة ، اذا كان فسقا يضيع به الولد ؛ أما الفسق الذى لايضيع به الولد فانه ليس مسقطا للحضانة .

الثالث : أن الفسق ليس بمانع من الحضانة .

والراجح : هو القول الثانى الذى يجعل المناط فى الفسق المانع هو ضياع الولد . فلا نجعل الفسق الذى لايضيع به الولد مسقطا للحضانة ولا يقال ان الذمية تفعل ما تفعل مما يوجب الفسق على جهة اعتقاده ، وانه لا تقاس بها الفاسقة المسلمة ؛ لأنه يجب النظر الى المسألة فى المقام الأول من جهة الولد لا من جهة الحاضنة . فيستوى فعل الذمية موجب الفسق على سبيل الاعتقاد أو على غير ذلك .

والذى يجعل للذمية الحضانة رغم اختلاف الدين هو ان الشفقة موجودة لديها مع ذلك فتكون لها الحضانة ما دام ان الصغير لايعقل الأديان ، ولا يخاف ان يألف الكفر ، وفى المسلمة الشفقة موجودة فتتبعها الحضانة ، ويكفى قيد ألا يكون الفسق مما يضيع به الولد او ألا يعقل الصغير ذلك .

---

(١) يراجع زاد المعاد جـ٤ ص : ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

والذى يؤيد مانذهب اليه ان كثيرا من الفقهاء ضربوا فى معرض الفسق أمثلة ظاهرة منها تعود الفاسق ارتكاب المحرمات .

مثال ذلك : مافى الشرح الكبير من أنه لاحضانة لفاسق كشريب الخمر المشتهر بزنى ولهو محرم . ومعنى هذا انه لم يرتكب هذه الأفعال مرة واحدة بل انها جرت منه مجرى العادة ، وهذا يرجح معه ضياع المحضون .

أما عدم اشتراط العدالة مطلقا ، وهو ماذهب اليه ابن القيم ، فنرى أن هناك حالات قد تكون صارخة ، فيكون من مصلحة المحضون عدم بقائه مع حاضنه الفاسق .

والأمر فى تحديد الفسق الذى يضيع به الولد والذى يضيع به امر يترك للقضاء وهو فى كل حالة تعرض عليه يتحرى الوقائع ويحكم فى الأمر المعروض عليه بالحضانة او بعدمها ، تبعا لما يراه من عدم تحقيق الفسق الذى يضيع به الولد او تحققه . .

رابعا : الأمانة

يشترط فى الحاضنة ان تكون أمينة على المحضون .

أما عن المقصود بالأمانة ، فقد قيل ان الحاضنة اذا كانت تخرج كل وقت وتترك الولد ضائعا فانها تكون غير مأمونة عليه ، فلا تكون لها حضانته اذ ليست أهلا لها . وعبر الزيلعى (١) عن صفة الخروج بأن تخرج كل ساعة وتترك البنت ضائعة ، فقال : « وفى الكافى : اذا خلع الرجل امرأته وله منها بنت سنها احدى عشرة سنة فضمتها اليها ، وتخرج من بيتها فى كل ساعة ، وتترك البنت ضائعة ، فله ان يأخذها » .

وقال ابن عابدين عن الخروج كل وقت ، ان المعتبر كثرة الخروج لأن المدار على ترك الولد ضائعا ، والولد فى حكم الأمانة عندها ، ومُضَيِّعُ الأمانة لا يُسْتَأْمَنُ .

وعلى ذلك فليس المقصود بعبارة « تخرج كل وقت » أو « كل ساعة » استمرار الخروج كل الوقت ، بحيث لايكون لها فى البيت مع الصغير قرار البتة ؛ بل المقصود ان تخرج خروجا يتسم بالكثرة التى تفوت على الصغير مصلحته فى حضانة الحاضنة له . وتقدير الخروج الذى يتصف بهذه الصفة ويكون له هذا الأثر أمر يقدره القاضى بالنظر لكل حالة تعرض عليه .

---

(١) تبيين الحقائق جـ٣ص : ٤٦ ، ٤٩ .

وليس بشرط أن يكون الخروج لمعصية ، بل ان الخروج ان كان لمعصية فقد يدخل فى حيز آخر ، ويكون عدم الأهلية للحضانة مرده سوء السيرة او الاشتهار بالفجور ، وعلى ذلك فقد يكون الخروج الذى ان ضاع معه الصغير يجعل الحاضنة غير أهل لحضانته ـ لغير معصية ، بل قد يكون لسعى على العيش كمثل غاسلة او قابلة .

وتأكيدا لهذا المعنى جاء فى الفتح : « ان كانت فاسقة او تخرج كل وقت » فَعَطْفُ الخروج كل وقت على الفسق يفيد ان المقصود بالخروج كل وقت شىء آخر غير الفسق ، اذ المعروف فى علم الأصول ان العطف يفيد المغايرة (١) .

ويمكن ـ بناء على ماتقدم ـ القول بأن الخروج من مسكن الحضانة اذا كثر لدرجة تفوت المصلحة من الحضانة او تجعل الصغير معرضا للضياع أولا يكون معها النظر له او تجعله على خطر من حيث الصيانة او الحفظ فانه يمنع الحضانة ، تأسيسا على أن الحاضنة التى بهذه الصفة غير مأمونة على الصغير .

وقد يقال ـ قياسا على ماتقدم ـ بعدم الأمانة ، وبعدم استحقاق الحضانة لمن تشتغل بالتدريس خارج مسكن الحضانة ، وتخرج بسبب ذلك وقتا كثيرا من اليوم ، ولمن تعمل طبيبة او حكيمة او ممرضة او موظفة فى أية وظيفة ، أو كانت تقوم خارج البيت بأى عمل يجعلها تتركه كثيرا ولكن يمكن القول ايضا بأن عبارات الفقهاء تفيد أنه يشترط لعدم أهلية الحاضنة للحضانة فى الأحوال المذكورة كثرة الخروج مع ترك الولد ضائعا ، بمعنى أنها لو أكثرت الخروج لكن لم تتركه مضيعا ، كأن تتركه فى مكان امين وتقيم عليه من يؤتمن عليه حتى ترجع ، نقول انه يمكن بناء على ذلك ألا يكون مجرد كثرة الخروج مسببا لعدم استحقاق الحضانة ما دامت الحاضنة لاتترك الولد مضيعا . الأوفق ان يقال ان المدرسة والطبيبة ومثيلاتهما مأمونات على الحضانة ؛ لأن هذه الحرف مشروعة ، وقد تتعين لكسب العيش ، ثم هى لاتستغرق فى العادة الا جزءا من النهار دون الليل . وفى مكنة من تكون فى مثل هذه الحالات أن توفق بين عملها خارج مسكن الحضانة وبين واجباتها كحاضنة ، وفضلا عن ذلك فإن تغير الظروف يؤيد هذا الاتجاه . وقد صار اشتغال المرأة بمثل هذه المهن شيئا مألوفا وهذا له اعتبار (٢) .

---

(١) يراجع : الأحوال الشخصية فى الشريعة الاسلامية لعبد العزيز عامر ص : ٢٤٢ ، ٢٤٣ نقلا من حاشية ابن عابدين جـ٢ ص : ٢٧٢ .

(٢) الأحوال الشخصية لعبد العزيز عامر ص : ٢٤٤ .

خامسا : إتحاد الدين

بمعنى : هل تحضن الذمية ابنها المسلم .

قال الزيلعى فى شرحه على الكنز (١) إن الذمية أحق بولدها المسلم ما لم يعقل دينا : لأن الحضانة تبنى على الشفقة والأم الذمية أشفق عليه ، ولا يرفع من هذه الشفقة لا تختلف معه فى الدين لأن الشفقة باختلاف الدين فيكـون دفعه إليها على الرغم من اختلافها معه دينا أنظر له ما لم يكن يعقل أما إذا عقل الصغير الأديان فإنه ينزع منها لاحتمال حدوث الضرر .

وكون الذمية تحضن المسلم ليس معناه أن تفعل معه ما هو ممنوع فى الاسلام فليس لها أن تغذيه بلحم الخنزير ، ولا أن تسقيه الخمر ، وان خيف عليه من ذلك ضم الى اناس من المسلمين » .

وخلاصة ما تقدم أنه يفرق بين حالتين :

الأولى : أن يعقل الصغير الأديان : وهنا ينزع من حاضنته الذمية ، أمًّا كانت أو غيرها وقيل إن ذلك يقدر بسبع سنين .

الثانية : ألا يعقل الأديان ، وهنا نفرق :

١ ـ فإن خيف أن يألف الصغير الكفر مع انه لم يعقل الأديان ينزع من حاضنته حرصا على مصلحته .

٢ ـ وان لم يكن هناك خوف من ذلك فإنه يبقى فى حضانة الذمية على ما هو حتى يعقل الأديان ومدار بقاء الحضانة للذمية على المسلم أن مناط الحضانة الشفقة فى الحاضنة وهى متوفرة بالفطرة على الرغم من اختلاف الدين .

واتحاد الدين كذلك ليس بشرط فى الحاضنة عند ابى ثور وهو قول لبعض المالكية وعلى هذا الرأى لا يمنع كفرها أن تحضن ولدها المسلم لوفرة شفقتها عليه بطبيعتها ولا يمنع من ذلك اختلاف الدين ، (يراجع الشرح الكبير . . المغنى) .

وزاد فى الشرح الكبير أن الإسلام ليس بشرط فى الحضانة سواء كان الحاضن ذكرا أو أنثى .

وقالوا : إن الطفل لا ينزع من حاضنته الذمية أو المجوسية حتى ولو خيف أن تطعمه لحم الخنزير أو تسقيه الخمر بل ان الحاضنة فى هذه الحالة تضم الى أناس من المسلمين أو الى مسلم يراقبها فى الولد حرصا على مصلحته وعلى دينه .

---

(١) الزيلعى جـ٣ ص : ٤٩ .

وقالوا : ان مثل الأم المجوسية أو الذمية الجدة والخالة والأخت المجوسيات أو الذميات .

ومما استندوا اليه كذلك ما روى عن عبدالحميد بن جعفر عن أبيه عن جده رافع بن سنان أنه أسلم وأبت امرأته أن تسلم فأتت النبي ﷺ فقالت : « ابنتى وهى فطيم (أو مشبهة) ، وقال رافع : « ابنتى » . فقال النبى ﷺ « أقعد » ناحية » وقال لها « أقعدى ناحية » وقال « أدعواها » فمالت الصبية الى أمها فقال النبى ﷺ « اللهم اهدها » فمالت الى أبيها فأخذها وقالوا إن فى هذا دليلا على أن الأم غير المسلمة تحضن ابنتها المسلمة (١) ولكن قال آخرون ومنهم الشافعى وسوار والعنبرى والحنابلة بأن اختلاف الدين مانع من الحضانة وقال صاحب المغنى ان مالكا قال بذلك ، ومن حججهم :

١ ـ أن فى حضانة الكافر ضررا بينا على الولد فهو ينشئه على إلْفِ دينه ويخرج به رويدا عن الاسلام وما دام أنه قد نشأ هكذا فإنه فى كبره إما أن يكون على دين الكفار أو يكون فى حكمهم ويصعب بعد كبره رده الى دين الحق وفى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ولا يقال إنه فى الأبوين خاصة لأنه خرج مخرج الغالب وعند فقد الأبوين أو أحدهما يقوم ولى الطفل من أقاربه مقامهما فالحديث مفيد فى هذا الغرض كذلك .

٢ ـ وأن الحضانة من باب الولاية ولا ولاية لكافر على مسلم ولذلك أمكن أن تكون لمسلم على كافر ولكافر على كافر .

٣ ـ وقالوا فى الحديث مستند المخالفين إنه روى على غير هذا الوجه ولا يثبته أهل النقل وفى إسناده مقال (٢) .

وقالوا ان الحديث قد يستدل به على صحة مذهبهم هم لأن النبى ﷺ دعا للبنت بالهداية فمالت لأبيها وهذا يفيد أن كونها مع الكافر خلاف هدى الله تـ الى .

---

١ ـ يراجع المغنى جـ ٩ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ زاد المعاد جـ ٤ ص ٢٥٨ وما بعدها .

٢ ـ يراجع المغنى جـ ٩ ص : ٢٩٧ . ٢٩٨ ، نهاية المحتاج جـ ٦ ص ٢٧٣ ، زاد المعاد جـ ٤ . ص٣ ـ ٢٥٨ ـ ٢٦٠ وقد جاء به عن حديث رافع بن سنان أنه من رواية عبدالحميد بن جعفر بن عبدالله بن الحكم بن رافع بن سنان الأنصارى الأوسى وقد ضعفه إمام العلل يحى بن سعيد القطان وكان سفيان الثورى يحمل عليه وضعفه كذلك ابن المنذر وغيره وقد اضطرب فى القصة فروى أن الصغير كان بنتا وروى أنه كان ابنا وقال ابن القيم ايضا ردا على المخالفين انهم يمنعون الـ ـانة بالفسق والبون شاسع بينه والكفر فكيف لا يكون اتحاد الدين شرطا .

ونرى اشتراط اتحاد الدين في الحضانة ، فان نشوء الولد منذ نعومة أظافره في بيت مسلم يختلف عنه ان لو كان في بيت غير مسلم حتى وان كان في السن الأولى . والصغير قد تنطبع في ذهنه صور المرئيات في مستهل حياته فيكون لها تأثير في حياته وفي سلوكه المستقبل . والدين جماع كل الفضائل فيجب أن يحتاط غاية الاحتياط في توفير الجو المناسب للطفل لكي يشب على الدين .

والشفقة وان كانت أصيلة في الحاضنة بالنسبة للمحضون ، إلا أنها قد تعتبر أن من الشفقة عليه أن ينشأ على دينها ، لأنها اختارته ، واختيارها له مظنة إيمانها بأنه في نظرها الدين الحق . ويجب ان تسد في وجه فساد دين المحضون كل ذريعة . والقول بأن المحضون ينتزع من الحاضنة اذا عقل الأديان أو خيف أن يألف الكفر قول فيه مخاطرة بالنسبة له وصعوبة في التطبيق العملي . فالولد مع حاضنته تحت سقف واحد ، وقلما يُعْرَفُ ما تقوم به من حيث تربيته على دينها ، فقد تتخذ في سبيل ذلك كل حيلة لإخفاء قصدها وفعلها ، أما نزعه عندما يعقل الأديان فقد قالوا انه في السابعة وقبل ذلك يكون قد استقر في ذهنه ما يفسد عليه عقيدته .

والقول أيضا بضم الحاضنة الى أناس من المسلمين عند الخوف على المحضون من الحاضنة قول إن تحقق لا يبعد خطر التأثير على الولد مطلقا ، فهي تظل ألصق الناس به وأقربهم اليه ، ثم إن هذا القول فيه صعوبات عملية في تحقيق موجب الضم ومداه ، وفي اختيار الرقيب .

ويريح من هذا كله أخذ الأمر من أصله ، وجعل الحضانة على الولد لمن اتفق معه في الدين . وبهذا يصلح أمره ويبعد الضرر عنه ، ويجعله بمنجى من الهلاك بضياع دينه ؛ لأن ضياع الدين هلاك ، والحضانة إنما شرعت للحفظ والصيانة ومراعاة مصلحة الولد في المقام الأول .

سادسا : زواج الحاضنة بغير محرم للمحضون

آراء الفقهاء في إسقاط الحضانة لتزوج الحاضنة بغير محرم للصغير :

١ ـ قيل إن الحضانة تسقط بالتزوج مطلقا ، وسواء أكان المحضون ذكرا أم أنثى . وعلى هذا الرأى مالك والشافعى وأبوحنيفة واحمد في المشهور عنه ، وهو المأثور عن القاضي شريح .

٢ ـ وقيل ان الحضانة لا تسقط بالتزوج مطلقا ، سواء كان المحضون ذكرا أو انثى . وهذا الرأى عليه الحسن البصرى ، وهو قول ابن حزم الظاهرى .
٣ ـ وقيل بالتفرقة بين أن يكون المحضون ذكرا أو أنثى ، فإن كان ذكرا تسقط الحضانة بالتزوج ، وان كان المحضون أنثى لا تسقط الحضانة بالتزوج بل تبقى مع أمها المدة التى يجب أن تبقى عندها فيها شرعا . وهذا الرأى هو احدى الروايتين عن احمد بن حنبل .
٤ ـ وقيل : ان كان تزوج الأم بنسيب من الطفل لا تسقط الحضانة . وتفرع من هذا الرأى خلاف سببه اختلافهم فى النسيب الذى لا تسقط بالتزوج به الحضانة :

ـ ففريق اكتفى باشتراط كونه نسيبا ليس غير . وهذا ظاهر قول أصحاب أحمد . وفريق آخر أضاف أن هذا النسيب يجب لكى تبقى الحضانة مع التزوج به أن يكون ذا رحم محرم للمحضون . وعلى هذا الرأى أبوحنيفة .
ـ وفريق لم يكتف بذلك بل اشترط ان يكون بين الزوج والطفل قرابة ولادة بأن يكون جدا له . لا مطلق نسيب ولا حتى رحما محرما . وعلى هذا الرأى مالك وبعض أصحاب أحمد .
أما حجج أصحاب الرأى الأول : فإن أهمها حديث عمرو بن شعيب : « أنت أحق به ما لم تنكحى » ، فالحديث جعل لها حق الحضانة حتى تتزوج ، وعندها لا يكون لها هذا الحق . وكذلك إجماع الصحابة على أن الحضانة للأم حتى تتزوج فتسقط عنها . يدل على ذلك خبر عمر بن الخطاب فى النزاع حول ابنه عاصم فقد قال له الصديق ابوبكر : « إنها أحق به ما لم تتزوج » . وقد وافقه عمر على هذا الحكم ، وكان بمحضر من الصحابة فلم ينكر عليه أحد ذلك . وعلى حكم أبى بكر سار القضاة ابتداء من شريح لا يختلفون فيه زمانا ولا مكانا .

وأما حجج من لم يسقط الحضانة بالتزوج مطلقا فمنها :

١ ـ احتجاج أبى محمد بن حزم بما رواه عن طريق البخارى عن عبدالعزيز بن صهيب ، قال : « قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس له خادم ، فأخذ أبوطلحة بيدى ، وانطلق بى الى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أنسا غلام كيس فليخدمك » ، قال : « فخدمته فى السفر والحضر » . وان أنسا كان فى حضانة أمه ولها زوج وهو أبوطلحة ، بعلم رسول الله ﷺ وهو لم ينكر ذلك» .

٢ ـ وقولهم بأن أم سلمة لما تزوجت برسول الله ﷺ لم تسقط بزواجها كفالتها لبنيها .

وحجة من لم يسقط الحضانة بالتزوج ان كان المحضون بنتا ما روى من أن عليا وجعفرا وزيدا بن حارثة تنازعوا فى حضانة ابنة حمزة ، فقال على : « ابنة عمى وأنا أخذتها » . وقال زيد : « بنت أخى » ، لأن رسول الله ﷺ آخى بين زيد وحمزة . وقال جعفر : « بنت عمى ، وعندى خالتها » . فقال الرسول ﷺ : « الخالة أم » وسلمها الى جعفر ، فقد جعل الرسول ﷺ لها الحضانة وهى متزوجة (١) .

ونحن نرى أن تزوج الأم يسقط حضانتها للصغير ذكرا كان أو أنثى ، وأن هذا الزواج لكى يسقط الحضانة يجب أن يكون بأجنبى من الصغير . أما اذا كان بذى رحم محرم منه فان الحضانة لا تسقط ولا يلزم أن يكون الزوج بينه وبين المحضون قرابة ولادة . ومن ناحية أخرى لا يكفى لمنع السقوط مجرد كونه نسيبا ، أى نسيب . فالحديث الشريف صريح فى أن بقاء الحضانة منوط بعدم تزوج أم المحضون ، فاذا تزوجت لم تبق لها الحضانة ، بل تسقط . وهذا أمر مجمع عليه من الصحابة ، وعليه العمل ، ولا يعتد بمن يخالف .

ومن البيِّن أن زوج الأم من شأنه أن يبغض الصغير ـ ولد زوجته ـ ولا يشفق عليه . ولما كانت له القوامة على المرأة ، فإن هذا الولد إن ظل مع أمه رغم تزوجها فإنه سيعيش عادة عيشة لا تصلح لكى تربى فيه كريم الصفات وحسن الأخلاق ، عيشة لا يشعر فيها بالعطف من الرجل الذى يعيش معه ، فينشأ وتنشأ معه عقد تحيل حياته المستقبلة الى شر ونفور وسوء طباع ، فلا يكون صالحا لنفسه ولا للمجتمع . أما احتمال أن يكون زوج الأم على خلاف ذلك فإنه احتمال نادر ، والنادر لا يقام له وزن ، ولا يكون له حكم .

ومن المعلوم أيضا أن الأم الزوجة تكون فى خدمة زوجها ورعاية أموره وأمور بيته . وهذا يمنعها من القيام بواجب الحضانة نحو الولد على مراد الشارع . وزوجها له حق منعها من ذلك فوجب إسقاطها بالتزوج .

أما القول بعدم السقوط مطلقا فمستنده ضعيف جدا ، لأن التشبيه بأولاد أم

---

(١) يراجع فى ذلك : الزيلعى على الكنز جـ٣ ص : ٤٧ ، ٤٨ ، والمغنى لابن قدامه جـ٩ ص : ٣٠٦ ، ٣٠٧ وزاد المعاد جـ٤ ص : ٢٥٥ ـ ٢٥٨ ، والأم للشافعى جـ٥ ص : ٨٣ ، وحاشية الدسوقى على الشرح الكبير جـ٢ ص : ٤٩٠ ، ٤٩١ .

سلمة فى حجر النبى ﷺ وفى بيت النبوة ، ذلك البيت الذى خرج من خدم النبى ﷺ مشاهير علماء الحديث والدين ؟ . فالكل كان يتمنى أن يخدم النبى ﷺ ، فكيف يعترض على كون أولاد أم سلمة فى بيت النبوة ؟ ثم لم يثبت أن أحدا ممن لهم الحضانة بعد أم سلمة طلب ذلك .

ولم يقل أحد مطلقا ، ولا هؤلاء الذين يسقطون الحضانة بالتزوج على كل حال إن بالتزوج تتخلى الأم عن المولود ، حتى ولو لم يطلبه الحاضن الذى يستحق الحضانة ؛ لأن القول بذلك يودى بالولد ويجعل الطريق العام قراره ، وهو أمر لا يعقله انسان ، ولا يستند الى منطق .
وحديث أنس كذلك ليس فيه ما يدل على أنّ أحدا من مستحقى حضانته نازع طلحة فى بقائه عنده ، وأنس رضى الله عنه كان لدى قدوم المصطفى ﷺ الى المدينة ابن عشر سنين فلم يكن فى سن الطفولة الأولى .

والأرجح أن يكون الزوج ذا رحم محرم للصغير ، فان ذا الرحم المحرم هو الذى تتوفر فيه الشفقة اللازمة بالقدر الذى تحل فيه محل شفقة الأب ، ولا يكون البون شاسعا حتى يشعر المحضون بعظم الفارق ، وهو الذى سيعطف عليه ولا يبغضه لكونه قريباً له قرابة قريبة محرمة للنكاح ، وهى قوية يرجح معها توافر الشفقة اللازمة فى الحضانة وعدم منع أمه عن شؤونها .

أما الاكتفاء بمطلق القرابة فهو غير سديد ، لأن القرابة البعيدة التى لا تحرم النكاح ليس فيها الشفقة والعطف الذى فى القرابة الأخرى . ومن ناحية أخرى فاستلزام أن يكون الزوج قريبا للمحضون قرابة ولادة أمر فيه عنت بالأم ، مع عدم الجدوى للمحضون ، فالجد كالعم والخال ونحوهما من قرابة الرحم المحرمية فى وجود قدر الشفقة الكافى فى الحضانة .

وكذلك القول بعدم السقوط بالتزوج إن كان المحضون أنثى لا يروق لأن المنازعة فى حضانة ابنة حمزة وحكم الرسول ﷺ فيها لا تدل عليه جزما ، إذ الحكم كان بضمها الى جعفر . كما أن زوجة جعفر لم تكن أم الصغيرة ، بل كانت خالتها ، ووضع المسألة حكم الأم ، وقول الرسول ﷺ : « الخالة أم » لا يفيد حكم عدم السقوط بالنسبة للأم . والحديث يدل على أن الخالة أم فى الشفقة وفى الحنو على الولد ، وأن كونها زوجة لطالب الضم فيه ضمان للمطلوب ضمه ، وهذه ميزة كانت فى جعفر جعلته يمتاز عن على لأنهما أخوان .

وهذا الرأى وان كان إحدى الروايتين عن أحمد ؛ إلا أن الرواية الأخرى القاضية بعدم التفرقة فى السقوط بين ذكر وأنثى هى الصحيحة فى مذهب أحمد . وقال صاحب المغنى إن الرسول ﷺ قضى ببنت حمزة لخالتها لأن زوجها من أهل الحضانة ، ولأنه لا يساويه فى الاستحقاق إلا على ، وأن جعفرا قد ترجح بأن امرأته من أهل الحضانة .

وخرجوا من هذا بأن المرأة اذا كانت متزوجة برجل من أهل الحضانة كالجدة المتزوجة بالجد ، لم تسقط حضانتها ، لأنه يشاركها فى قرابة الولادة وفى الشفقة على الولد ، فأشبه الأم إذا كانت متزوجة بالأب ، وأنه إذا تنازع العمان فى الحضانة وأحدهما متزوج بالأم أو الخالة فهو أحق ؛ وكذلك الحكم فى كل عصبتين تساوتا ، وكان أحدهما متزوجا بمن هى من أهل الحضانة قُدِّمَ بها لذلك (١) .

سابعا : القدرة على الحضانة

من شروط الحضانة ـ عند بعض الفقهاء ـ أن تكون الحاضنة قادرة ؛ والمقصود القدرة على شؤون الحضانة وحفظ المحضون والقيام على مصالحه . وفى الشرح الكبير أدخل العمر فى شرط الكفاية ، بمعنى القدرة على القيام بشؤون الحضانة . فقال إن الحاضن سواء كان ذكرا أو أنثى يجب أن يكون قادرا على شؤون الحضانة ، فلا حضانة لمسنة اقعدها السن عن القيام بشأن المحضون ، إلا أن يكون عندها من يحضنه . وقال إنه يدخل فى ذلك أيضا مثل العمى والصمم والخرس والمرض والإقعاد . ومعنى ذلك أن هذه الموانع إذا أقعدت الحاضنة عن شؤون الحضانة ، ولم يكن عندها من يحضن الصغير بمعنى من يساعدها على شؤون الحضانة فإنها لا تصلح للحضانة فلا تكون لها حضانة .

وفرق المصنف فى نهاية المحتاج (٢) بين من يباشر الحضانة بنفسه وبين من يدبر أمرها . فقال : انه يشترط سلامة الحاضنة من ألم مشغل كفالج أو مؤثر فى عسر الحركة ، فى حق من يباشرها بنفسه ، دون من يدبر أمرها ويباشرها عنه غيره تنفيذا لهذا التدبير .

وقال عن العمى انه يشترط كون الحاضن بصيرا عند جمع من الفقهاء ، وان

---

(١) المغنى لابن قدامه جـ٩ ص : ٣٠٦ ، ٣٠٧

(٢) نهاية المحتاج جـ٦ ص : ٣٧٣ .

آخرين خالفوهم فى ذلك فلم يشترطوه . وقال إن الأوجه أن العمى مانع من الحضانة ان احتاجت للمباشرة ولم تجد من يتولاها عنها والا فلا .

وفى الكشاف ايضا جعل العمى من العجز فقال إنه لا حضانة لعاجز عن الحضانة كأعمى ونحوه كَزَمِنٍ .

وجعل من موانع الحاضنة ايضا أن تكون الحاضنة ضعيفة البصر إذ أن ضعف البصر يمنع من كمال ما يحتاج اليه المحضون(١) .

وعلى ذلك فالمالكية والشافعية والحنابلة أيضا يدخلون العمى فى مظاهر العجز . وينوطون حضانة العمياء وغيرها من العاجزات بقدرتها على القيام بشؤون المحضون ولو كان ذلك بمساعدة غيرها . أما اذا منعها شيء من ذلك عن رعاية شؤون المحضون فلا تكون لها الحضانة .

ونرى أن كون الحاضنة بصيرة أو صحيحة أو غير كبيرة كل ذلك ليس شروطا للحاضنة ولكنه يدخل فى شرط القدرة على الحضانة الذى أورده الرملى . وعلى ذلك اذا كانت العمياء قادرة على حفظ المحضون فإنها تحضنه ، واذا كانت المريضة قادرة على حفظ المحضون بنفسها أو بغيرها فإنها تحضنه ، واذا كانت كبيرة السن قادرة على حفظ المحضون بنفسها أو بغيرها فإنها تحضنه ، واذا كانت العاجزة قادرة على حفظ المحضون بنفسها أو بغيرها فإنها تحضنه . . فشرط القدرة على الحضانة يمكن ان يتحقق فى جميع هذه الحالات مع العمى أو المرض أو الكبر أو العجز . أما إذا لم تكن العمياء أو المريضة أو الكبيرة أو العاجزة قادرة على حفظ المحضون حفظا يتحقق معه مقصود الحضانة ، فإنها لاتحضن الصغير . فالمدار إذن على القدرة وعدمها .

ثامنا : سلامة الحاضنة من الأمراض الضارة والمعدية

يجب فى الحاضنة أن تكون خالية من الأمراض المعدية والضارة . وقد مثل الفقهاء لذلك بالبرص والجذام – وذلك لما يخشى منه على المحضون من العدوى – وقالوا بسقوط حق الحاضنة إذا كانت مصابة بأحد هذه الأمراض ، ولو كان الولد مريضا كذلك بنفس المرض الذى بالحاضنة ، لما يحتمل من زيادة مرضه

(١) كشاف القناع عن متن الاقناع جـ٣ ص : ٣٢٨

بالمخالطة . وقيد ذلك فى نهاية المحتاج بالمخالطة ، مما قد يفيد أنه إذا لم تكن هناك مخالطة فلا يسقط حق الحضانة بالمرض المعدى . وقيده البعض كذلك بألا يكون المرض خفيفا فقالوا إن خفيف الجذام والبرص مغتفر ، وفاحشهما مانع من الحضانة(١) .

ونرى أن مثل الأمراض المذكورة مما يتعدى ضرره الى الغير إن وجد فى الحاضنة فإنه يسقط حضانتها . فلا جدال فى أنه يخشى على الولد من شرب لبنها ومن مخالطتها . والقول باشتراط المخالطة لسقوط الحضانة غير سديد لأن الحضانة أساسها المخالطة ، والأمر لايستغنى عن ذلك .

والقول كذلك بعدم تأثير خفيف هذه الأمراض ليس مستقيما ، لأن الضرر كامن فيها ، سواء أكانت خفيفة أم غير خفيفة ، ووجه خطورتها فى تعدى ضررها بمثل العدوى . وهذا القدر من التصور يشترك فيه المرض المعدى سواء كان خفيفا أم ثقيلا . وكل ذلك مرجعه الى الاحتياط للولد وتحرى ما فيه مصلحته والابتعاد عما فيه ضرره وما يحتمل أن يؤدى الى هذا الضرر . فالحضانة لنفع الولد وجر المصلحة له ودفع الضرر ، ولم تشرع لإيراده موارد الهلاك أو جعله فى أماكن الضرر .

---

(١) يراجع : كشاف القناع جـ٣ ص : ٣٢٨ ، حاشية الدسوقى على الشرح الكبير جـ٢ ص : ٤٨٩ ونهاية المحتاج جـ٦ ص : ٢٧٣

المبحث الخامس

الولايـــــــــــــــــة

﴿كهيعص ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً
خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن
بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي
عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ
رَبِّ رَضِيًّا ⑥﴾ .

« سورة مريم - آيات ١ - ٦ »

الولاية

تعريف الولاية لغة :

(الوَلْىُ) بسكون اللام القرب والدنو ؛ يقال : تباعد بعد وَلْىٍ ، وكل مما « يليك » أى مما يقاربك . (وأولاه) الشىء (فوليه) . والولى ضد العدو يقال منه : (تولاه) وكل من (ولى) أمر واحد فهو (وَلِيُّهُ) .

وقد يطلق الولى أيضا على المعتق والعتيق ، وابن العم ، والناصر ، وحافظ النسب ، والصديق ذكرا كان أم أنثى(١) .

والولاية بالكسر : السلطان . الولاية بالفتح والكسر : النصرة . والولى لامرىء : من يلى أمره ويقوم مقامه كولى الصبى والمجنون .

تعريف الولاية شرعا :

من المعنى اللغوى للولاية أخذ المعنى الشرعى الذى يفيد أنها تنفيذ القول على الغير شاء أم أبى . وذلك لأن الولاية تشعر بسلطة الولى على المولى ، فالمناسبة ظاهرة . وهذه السلطة لها قيود شرعية روعيت فيها صلاحية الولى للولاية ، ومصلحة المولى عليه فى نفسه وماله(٢) .

فالولاية : عبارة عن سلطة شرعية تجعل من ثبتت له القدرة على إنشاء التصرفات والعقود وتنفيذها . وهذه السلطة لاتثبت إلا لمن كان كامل الأهلية ، ففاقد الأهلية وناقصها لا ولاية لواحد منهما على نفسه أو على غيره(٣) .

والولاية لاتورث : إذ هى حاصلة من جهة المولى على التعيين(٤) .

---

(١) يراجع : مختار الصحاح ص :٧٣٦ كتاب الواو ، المصباح المنير جـ٢ ص : ٨٤٠ ومعجم ألفاظ القرآن جـ٢ من ص : ٦٨٨ الى ٦٩٤ .

(٢) يراجع : البحر الزخار جـ٣ ص ١٦٤ ، مقال الولاية لأحمد ابراهيم ص :٥٣٢ ، شرح مجلة الأحكام جـ٢ ص ٥٢

(٣) المدخل فى الفقه الاسلامى لشلبى ص :٥٠٢ .

(٤) البحر الزخار جـ٣ ص : ١٩٥ .

أقسام الولاية :

هذه السلطة التى تعنيها الولاية قد تكون ذاتية ترجع إلى ما قرره الشرع من الزام الملتزم بما التزم به فى أمر نفسه بمثل قوله تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ① ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ㉞ ﴾ (٢)

وهذه الولاية هى ولاية الإنسان على نفسه ؛ فللإنسان عند كمال الأهلية بالعقل والبلوغ الولاية التامة فى شؤونه ، مالية كانت أم غير مالية . فجميع عقوده وتصرفاته نافذة فى حق نفسه ، إلا اذا كان يترتب عليها ضرر بحق الغير فيحد منها بقدر ما يدفع ذلك الضرر . وتسمى ولاية ذاتية ، أو ولاية قاصرة .

وقد تثبت هذه السلطة لشخص بسبب أمر عارض جعله الشارع علة وسببا لثبوتها ، وفى هذه الحالة قد تكون أصلية وقد تكون نيابية أو متعدية .

الولاية الأصلية :

أما الولاية الأصلية – وتسمى الولاية الشرعية – فهى ثابتة شرعا لابتولية المالك ؛ مثل ولاية الأب ، والجد أب الأب ، والقاضى .

الولاية النيابية :

وأما الولاية النيابية فهى التى تثبت بتولية المالك ، مثل ولاية الوكيل ، فينفذ تصرفه وان لم يكن المحل مملوكا له لوجود الولاية المستفادة من الموكل ، وكما فى ولاية الوصى الذى أقامه الأب ، فإن الوصى استمد ولايته ممن أنابه ، ولولا هذه الإنابة ما ثبتت له هذه السلطة(٣)

---

(١) سورة المائدة – آية ١ .

(٢) سورة الاسراء – آية ٣٤ .

(٣) أنظر : أحكام المعاملات للخفيف ص : ٩٧ ، المدخل فى الفقه لشلبى ص : ٥٠٣ ، والأحكام الشرعية لزيد الابيانى ص : ٣٦ ، ٣٧ والحجر على الصغير والسفيه ، رسالة دكتوراه ، سعاد ابراهيم صالح . جـ ٢ ص : ٥٠٥ وما بعدها .

ومن هنا نرى أن الولاية على الغير قد تكون ثابتة من الشارع وهى الولاية الأصلية ، وقد تكون ثابتة بإنابة المالك نفسه وهى الولاية النيابية . فتكون الولاية أصلية إذا ثبتت بسبب الأبوة كولاية الأب ، وأب الأب « الجد» لأنها لم تثبت لهما إلا بسبب أمر عارض وهو ولادة المولى عليه (الصغير) لهما وهى مع ذلك ولاية أصلية ؛ فإذا باشرا أمور الصغير باشراها بأهليتهما وولايتهما ، لانيابة عن غيرهما من قاض أو أى شخص استمدا منه هذه الولاية ولذلك تستمر حتى يزول سببها وهو الصغر وضعف العقل .

فالأبوة سبب للولاية لأنها داعية إلى كمال النظر فى حق الصغير لوفور شفقة الأب ، وهو القادر على ذلك لكمال رأيه وعقله ، والصغير عاجز عن النظر لنفسه بنفسه ؛ وثبوت ولاية النظر للقادر على النظر على العاجز عن النظر أمر معقول شرعا لأنه من باب الإعانة على البر ومن باب الإحسان ومن باب إعانة الضعيف واغاثة اللهفان ، وكل ذلك حسن عقلا وشرعا ؛ لأن ذلك من باب شكر النعمة - وهى نعمة القدرة - إذ أن شكر كل نعمة على حسب نوع النعمة . فشكر نعمة القدرة يتحقق فى معونة العاجز وشكر النعمة واجب عقلا وشرعا فضلا عن الجواز .

ووصىُّ الأب قائم مقامه ، لأنه رضيه واختاره . فالظاهر أنه ما اختاره من بين سائر الناس إلا لعلمه بأن شفقته على ورثته مثل شفقته عليهم . ولولا ذلك لما ارتضاه من بين سائر الناس ، فكان الوصى خلفا عن الأب ، وخلف الشيء قائم مقامه كأنه هو .

والجد له كمال الرأى ووفور الشفقة ، إلا أن شفقته دون شفقة الأب فلا جرم إن تأخرت ولايته عن ولاية الأب وولاية وصيه(١) .

والولاية الشرعية : إما أن تكون ولاية فى النكاح فقط ، واما أن تكون فى المال فقط .

الولاية على المال:

أولا: تعريف الولاية على المال:

هى القدرة على إنشاء العقود والتصرفات المتعلقة بالأموال نافذة من غير حاجة إلى إجازة أحد .

---

(١) البدائع جـ٦ ص: ٣٠٢٨ ، ٣٠٢٩ ، مقال : الولاية لأحمد ابراهيم ص: ٥٣٢ .

وشرعت الولاية على المال لحماية الصغار والمحجور عليهم ، ووقايتهم من ضعفهم وقلة تجربتهم وعدم تمرسهم بشؤون الحياة ، ومنع التغرير بهم فى التصرفات التى تصدر عنهم ، فهى أداة ناجحة لحماية الصغير والمجنون فى نفسه وماله .

ثانيا : من تثبت عليهم الولاية :

تثبت الولاية شرعا على خمسة نفر باتفاق وهم : الصغير - سواء أكان مميزا أم غير مميز - والمجنون ، والمعتوه ، والسفيه ، والرقيق .

فأما الصغير والمجنون والمعتوه ، فالولاية عليهم لأجل حمايتهم فى نفوسهم وأموالهم وعجزهم عن التصرفات ، فكان من مقتضى رحمة الشارع وحكمته أم يتولى شؤونهم غيرهم من القادرين على العمل لصالحهم .

وأما السفيه ، فالولاية عليه لمنع تعدى ضرره الى غيره بصيانة ماله له ، والضرب على يده . والولاية عليه للحاكم فقط دون أقاربه .

وأما من عدا هؤلاء من النائمين والمغمى عليهم والسكارى بسبب هو حلال فليس لأحد ولاية عليهم ، بل الولاية لهم ، فيجب أن ينتظر زمن إفاقتهم عند الحاجة الى العقد أو التصرف .

وأما المدينون والمرضى مرض الموت فليس لأحد ولاية عليهم ، لأنهم انما منعوا مما منعوا منه محافظة على حقوق غيرهم . (١)

ثالثا : ابتداء الولاية

تبتدىء ولاية الأب على أولاده الصغار من وقت ولادتهم وتستمر حتى يبلغوا الرشد ، وتبتدىء على أموالهم من وقت تملكهم لها ، وعلى من يلحق بالصغار من المعاتيه والمجانين من وقت العته أو الجنون .

أما الجنين فلا ولاية لأحد عليه : فلو اشترىَ له شخص شيئا ، أو وهب له شيئا فلايدخل فى ملك الجنين حتى ولو ولد حيا .

وتبتدىء ولاية القاضى أو نائبه على السفيه من وقت ظهور السفه على رأى محمد وابن القاسم من المالكية ، ومن وقت الحكم بالسفه على رأى الجمهور .

---

(١) يراجع مقال الولاية : لاحمد ابراهيم ص : ٥٣٣ ، أحكام المعاملات للخفيف ص : ٩٧ .

رابعا : ترتيب الأولياء على المال

اختلف فقهاء المذاهب المختلفة فى ترتيب الأولياء على المال على الوجه التالى :

ذهب فقهاء الحنيفة (١) الى أن ولى الصبى ومن فى حكمه كالمجنون والمعتوه أبوه ، ثم وصى الأب بعد موت الاب ، ثم وصى وصى الأب ، ثم الجد الصحيح - إحترازا عن الجد الفاسد وهو أبو الأم - ، ثم وصى الجد ، ثم وصى وصيه ثم الوالى - والمراد من اليه تقليد القضاة ، لان القاضى يستمد ولايته منه ثم وصى القاضى . قالوا : وانما سمى وصى القاضى وصيا مع أن الإيصاء هو الاستخلاف بعد الموت لأنه هنا خليفة للقاضى فصار كوصى الأب .

ويستفاد من هذا الترتيب أنه لا ولاية للجد مع وصى الأب ، ولا للوالى والقاضى مع الجد أو وصيه . وبعد الجد أو وصيه لاترتيب .

وأما من عدا الأصول من العصبة كالعم والأخ ، أو من ذوى الأرحام كالأم ووصيها فلا تصح ولايتهم على مال الصبى ومن فى حكمه .

ولقد عللوا هذا الترتيب بقولهم (٢) :-

« وانما تثبت الولاية على هذا الترتيب لأن الولاية على الصغار باعتبار النظر لهم ، وشفقة الأب فوق شفقة الكل ، وشفقة وصيه فوق شفقة الجد ؛ لأنه مرضىُّ الأب ومختاره فكان خلف الأب فى الشفقه ؛ وخلف الشيء قائم مقامه كأنه هو . وشفقة الجد فوق شفقة القاضى ، لأن شفقته تنشأ عن القرابة والقاضى أجنبى ، ولاشك ان شفقة القريب على قريبه فوق شفقة الأجنبى ، وكذا شفقة وصيه لأنه مرضى الجد وخلفه فكانت شفقته مثل شفقته ، واذا كان ماجعل له الولاية على هذا الترتيب كانت الولاية على هذا الترتيب ضرورة ، لأن ترتيب الحكم يكون على حسب ترتيب العلة ، وليس لمن سوى هؤلاء من الأم والأخ والعم قاصرا الشفقة ، وفى التصرفات تجرى جنايات لايهتم لها إلا ذو الشفقة الوافرة . والام وان كان لها وفور الشفقة لكن ليس لها كمال الرأى لقصور عقل النساء عادة ، فلاتثبت لهن ولاية التصرف فى المال ولالوصيهن ، لان الوصى

---

(١) يراجع : حاشية ابن عابدين جـ ٥ : ص : ١٥١ ، ١٥٢ - تبين الحقائق جـ ٢ ص : ٣٢ ، الفتاوى الهندية جـ ٦ ص : ١٤٦ ، الفتاوى الانقروية جـ ٢ ص : ٤١٧ .

(٢) يراجع : البدائع جـ٦ ص : ٣٠٣٤ ، كما يراجع أدب الأوصياء جـ ٥ ص : ٨٤ ، الاشباه والنظائر لابن نجيم ص : ١٦٠ .

خلف الموصى قائم مقامه فلايثبت له إلا قدر ما كان للموصى وهو قضاء الدين والحفظ فقط » .

وذهب فقهاء المالكية (١) الى أن الولى أصالة على الصغير ومن فى حكمه هو الأب الرشيد ، لا الجد ولا الأخ ولا العم الا بإيصاء الأب ، ثم يليه وصى الاب ، فوصى وصيه وان بعد ، فالحاكم يليهم عند فقدهم . ولا ولاية على المال للحاضن أى الكافل الذى يكفل اليتيم ذكرا أم أنثى ، قريبا كان أم أجنبيا ، فليس له تصرف ببيع ، ولا ولاية لجد وعم وأم ، فليس لهم التصرف وينقض فعلهم .

وذهب فقهاء الشافعية (٢) الى انه اذا ملك الصبى مالا فإن الذى ينظر فى ماله أبوه إن كان عدلا ، فإن لم يوجد الأب أو كان ممن لايصلح للنظر كان النظر الى الجد أبى الأب إذا كان عدلا ، فإن لم يكن أب ولا جد نظر الوصى من قبلهما .

فإن لم يكونا ولا وصيهما فهل تستحق الام النظر؟ فيه وجهان :

الوجه الأول : تستحق النظر فى مال ولدها ، لأنها أحد الابوين .

الوجه الثانى : وهو المذهب : أنه لا وصية لها بل النظر الى السلطان لخبر : « السلطان ولى من لا ولى له » (٣) وروى عن عطاء ابن ابى رباح أنه قال فى رجل أوصى الى امرأته : لاتكون المرأة وصيا ، فإن فعلت حولت الى رجل من قومه ، ولأنها ولاية بالشيء فلم تستحقها الأم كولاية النكاح ولأن قرابة الأم لاتتضمن تعصبا فلم تتضمن ولاية كقرابة الخال .

وذهب فقهاء الحنابلة (٤) إلى أنه لاينظر فى مال الصبى والمجنون ماداما فى الحجر إلا الأب أو وصيه بعده لأنه نائبه فأشبه وكيله فى الحياة ، أو الحاكم عند عدمها ، لأن الولاية انقطعت من جهة القرابة فثبتت للحاكم .

فهم متفقون مع المالكية فى أن الجد لا يصلح وليا ، خلافا للحنفية والشافعية . وعللوا ذلك (٥) بأن الجد لا يدلى بنفسه الى الصغير ، وانما يدل الاب الأدنى فلم يل الصغير كالأخ ، ولأن الأب يسقط الأخوة بخلاف الجد وترث

---

(١) انظر : بلغة السالك جـ ٢ ص : ١٣٠ ، ١٣٩ ، حاشية الدسوقى جـ ٣ ص : ٢٩ ، ٣٠

(٢) يراجع : مغنى المحتاج جـ٣ ص : ١٧٣ ، ١٧٤ ، نهاية المحتاج جـ٤ ص : ٣٧٣ : ٣٧٤ والمجموع جـ ١٣ ص : ٣٤٥ ، منهاج الطالبين للنووى ص ٦٠ .

(٣) رواه سليمان بن موسى عن الزهرى عن عائشة ـ نيل الأوطار جـ٦ ص : ١٣٤ .

(٤) المغنى جـ٤ ص : ٥٢٦ .

(٥) الشرح الكبير اسفل المغنى جـ٤ ص : ٥١٨ ، ٥١٩ .

الأم معه ثلث الباقى فى زوج وأم وأب بخلاف الجد ، فلا يصح قياس الجد على الأب . فأما من سواهم كالعم والأخ والأم فلا تثبت لهم ولاية لأن المال محل الخصومة ، ومن سواهم قاصر الشفقة غير مأمون على المال ، فلم يل الصبى كالأجنبى .

وذهب الشيعة الإمامية (١) الى أن الولاية أولا للأب ، لأن له من الحنو مايستدعى تحرى المصلحة ، ثم وصى الأب بعده أولى من الجد لقيامه مقام الأب كوكيله ، ثم الجد إذ هو أب الأب لا غيره من الأقارب اجماعا ، ثم وصى الجد لقيامه مقامه كالوكيل ، وهما أولى من وصى وصى الأب ، ثم الولى .

تعليق على الترتيب

بعد عرضنا لترتيب الأولياء عند مختلف المذاهب نلاحظ الآتى :

(١) الإجماع من المذاهب على أولية الولاية للأب ولقد أوثر الأب على غيره من أولياء المال فى جميع المذاهب لأنه موفور الشفقة على ولده واكثر الناس حرصا على مصلحته وانظرهم لماله .

(ب) أن الحكمة من أسبقية الولاية إلى وصى الأب مع وجود الجد عند الحنفية ومن قال قولهم : ان اختيار الموصى له مع علم الأب بوجود الجد قوى الدلالة على أنه يأنس فى الوصى الكفاية وأنه يريد ان ينيبه منابه . ولما كان الأب مفضلا عن الجد فكذا من ينوب عنه ويسمى الوصى المختار . وهذا التفضيل لوصى الأب لم يسلم به كافة المذاهب لفقهية ، فالشافعية يقلدون الولاية للجد بعد الأب ثم للوصى ، ومعنى هذا أنهم يرون تفضيل الجد على وصى الأب .

(جـ) أن علماء المذهبين الحنبلى والمالكى لايرون انتقال الولاية الى الجد ويذهبون الى ان الجد لا ولاية له على مال الصغير ، وأن الولاية انما تنتقل من الأب الى وصيه ثم الى وصى وصيه ثم الى القاضي ، ويعللون حرمان الجد من الولاية على المال بأن الجد لايدلى بنفسه ، وانما يدلى بالأب الأدنى ، فلم يل مال الصغير كالأخ .

---

(١) البحر الزخار جـ٣ ص : ٣٠١

خامسا : شرائط الولاية على المال :

وهى أنواع : بعضها يرجع الى الولى ، وبعضها يرجع الى المولى عليه وبعضها يرجع الى المولى فيه .

أما الذى يرجع الى الولى فستة شروط : العقل ، والحرية ، والاسلام ، والذكورة ، والبلوغ ، والعدالة .

الشرط الأول :

العقل : ولاخلاف فى اعتباره ، لأن الولاية انما تثبت نظرا للمولى عليه عند عجزه عن النظر لنفسه ، ومن لاعقل له لايمكنه النظر ولا يلى نفسه ، فلا يلى غيره من باب أولى . وسواء فى هذا من لاعقل له لصغره كالطفل ، ومن ذهب عقله بجنون أو كبر كالشيخ اذا أفند . أما الاغماء فلا يزيل الولاية لأنه يزول عن قرب فهو كالنوم ، ومن كان يجن تارة ويفيق أخرى لم تزل ولايته ، لأنه لايستديم زوال عقله فهو كالإغماء .

الشرط الثانى :

الحرية : فلا ولاية لعبد لأن العبد لا ولاية له على نفسه فلا ولاية له على غيره من باب أولى ، وهذا الشرط متفى ـ الآن / لانعدام نظام الرق .

الشرط الثالث :

إسلام الولى إذا كان المولى عليه مسلما ، فإذا كان كافرا لاتثبت له عليه الولاية لقوله تعالى :

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ (١) .

ولأن تنفيذ الولاية للكافر على المسلم يشعر بالذل له وهذا لايجوز .

الشرط الرابع :

الذكورة : وهى شرط للولاية فى قول الجميع لأنه يعتبر فيها الكمال . والمرأة ناقصة قاصرة فلا تثبت الولاية لها لقصورها عن النظر لنفسها ، فلا تثبت لها ولاية على غيرها من باب أولى .

---

(١) سورة النساء / آية ١٤١

الشرط الخامس:

البلوغ : شرط للولاية عند أكثر أهل العلم ومنهم الثورى والشافعى واسحاق وابن المنذر وأبو ثور . وعن أحمد رواية أخرى أنه اذا بلغ عشرا زوج وتزوج وطلق وأجزت ولايته على الطلاق . ووجه ذلك أنه يصح بيعه ووصيته فى طلاقه فثبت له الولاية كالبالغ ، والأول هو الصحيح لأن الولاية يعتبر لها كمال الحال ، لأنها تتقيد بالتصرف فى حق غيره اعتبرت نظرا له ، والصبى مولى عليه لقصور عقله فلا تثبت له الولاية (١) .

الشرط السادس:

العدالة : بغير خلاف : لأن تفويض الولاية الى الفاسق يعد تضييعا للمال فلم تجز كتفويضها الى السفيه . وتكفى فى الأولياء العدالة الظاهرة لوفور شفقتهم . فإن فسق الولى نزع القاضى المال منه . كما يشترط ايضا أن يكون الولى قادرا على التصرفات التى تدخل فى ولايته . ويشترط كونه أمينا ، لأن المقصود من الولاية تحقيق مصلحة المولى عليه وهى لاتتحقق مع العجز وعدم الأمانة . ولا يشترط ان يكون الولى بصيرا ، ولايشترط كونه ناطقا . (٢)

وأما الذى يرجع الى المولى عليه فالصغر : فلاتثبت الولاية على الكبير إلا اذا كان هناك عارض لجنون ، أو عته ، أو سفه ، لأن الكبير يقدر على دفع حاجة نفسه ، فلا حاجة الى اثبات الولاية عليه لغيره ، لأن الولاية على الحر لاتثبت مع قيام المنافى للضرورة ، ولاضرورة فى حال القدرة فلا تثبت .

وأما الذى يرجع الى المولى فيه : فهو ألا يكون من التصرفات الضارة بالمولى عليه لقولى ﷺ : ﴿ لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام ﴾ وقوله ﷺ : ﴿ ليس منا من لم يوقر الكبير ، ويرحم الصغير ، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر ﴾ (٣) ، والإضرار بالصغير ليس من الرحمة فى شىء .

---

(١) يراجع : المغنى جـ٦ ص : ٣٥٦ ، ٣٥٧ـ الشرح الكبير جـ٤ ص : ٥١٩

(٢) يراجع : البدائع جـ٦ ص : ٣٠٢٩ ، الفقه الإسلامى لعيسوى ص : ٤٦٩ ، المدخل فى الفقة الاسلامى لشلبى ص : ٥٧

(٣) مسند أحمد جـ١ ص : ٢٥٧

حكم تصرف الاولياء فى اموال الصغار ومن فى حكمهم :

لقد وضع الله قاعدة عامة فى ضبط تصرف الأولياء القائمين على أموال الصغار والضعفاء ومن فى حكمهم ، وتتجلى هذه القاعدة فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ (١٥٢) (١)

ففى هذه الآية نهى سبحانه وتعالى عن قربان مال اليتيم والتعرض له ، ومن افضاء ذلك اليه والتوصل الى الاستثناء بقوله : ﴿ إلا بالتى هى أحسن ﴾ أى إلا بالخطة والطريقة التى هى أحسن الخصال والطرائق ،وهى حفظه واستثماره حتى يبلغ أشده (٢) .

الى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تفيد تصرفات الولى فى مال المولى عليه بالنظر والمصلحة ، وعلى ذلك : فيختلف حكم التصرف باختلاف نوع التصرف ، إذ أن التصرفات فى أموال الصغار منها ما هو نافع نفعا محضا ، ومنها ما هو ضار ضررا محضا ، ومنها ما هو دائر بين النفع والضرر .

التصرفات النافعة :

للولى أن يقبل الهبة والصدقة والوصية لأبنائه الصغار ، لأن ذلك نفع محض لهم فيملكه الولى ، وله أن يبيع مال ولده بأكثر من قيمته ويشترى له شيئا بأقل من قيمته ، وله أن يسلمه فى صناعة لأنه من باب تنميته وحفظ ماله ، ويجب على الولى حفظ مال المولى عليهم من أسباب التلف ، واستنماؤه قدر ما تأكله المؤن من النفقة وغيرها إن أمكن (٣) .

التصرفات الضارة :

١ ـ القرض :

اتفق فقهاء المذاهب (٤) الفقهية على أنه ليس للولى أن يقرض شيئا من مال المولى عليهم ، لأن القرض ازالة الملك من غير عوض للحال فيكون تبرعا ، والولى لايملك التبرعات .

---

(١) سورة الأنعام ـ آية ١٥٢

(٢) يراجع : القرطبى مجلد ٣ ص : ٢٥٧٠ تفسير أبى السعود ص : ٢١٥

(٣) يراجع : بدائع الصنائع جـ٦ : ص : ٣٠٣١ ، أدب الأوصياء جـ٥ ص : ١٦٢ : ١٦٣

(٤) يراجع : بدائع الصنائع جـ٦ ص : ٣٠٣٠ ، مغنى المحتاج جـ٣ ص : ١٧٥ كشاف القناع جـ٣ ص : ٤٤٩ ـ ٤٥٠

٢ - الهبة :

ليس للولى أن يهب شيئا من مال الصغير لغيره من غير عوض ، لأن الهبة إزالة للملك من غير عوض فكانت ضررا محضا ، وكذا ليس له أن يهبه بعوض وهى ماتسمى بهبة الثواب لأنه يحكم له فيها بنفس القيمة فلا فائدة من ذلك تعود على المحجور (١) .

تصرفات اخرى : وليس له أن يبيع ماله بأقل من قيمته قدر مالا يتغابن الناس فيه عادة ، وليس له أن يشترى بماله شيئا بأكثر من قيمته قدر مالا يتغابن الناس فيه عادة ، وليس له أن يؤاجر نفسه أو ماله بأقل من أجرة المثل قدر مالا يتغابن الناس فيه عادة ، وليس له أن يتصدق بماله ولا أن يوصى به لأن التصدق والوصية إزالة الملك من غير عوض مالى فكان ضررا فلا يملكه ، وليس له أن يطلق امرأته ، لأن الطلاق من التصرفات الضارة المحضة .

التصرفات الدائرة بين النفع والضرر :

وهذا القسم من التصرفات يشمل البيع والشراء والإجارة والمضاربة ، والأب يملك جميع التصرفات لوفور شفقته وحرصه على مصلحة ولده الصغير ، فيملك بيع العقار والمنقول .

حكم بيع الأب شيئا لنفسه من مال ولده الصغير :

الأصل فى العقود أن يتولاها طرفان أو عاقدان : بائع ومشتر ، لأن العقد هو ارتباط الإيجاب والقبول ، ويجب ان يحصل القبول من شخص والإيجاب من شخص آخر ، وعلى هذا فلا يصح قيام شخص بمفرده مقام العاقدين ، فيتولى طرفى العقد فى وقت واحد ، أى أنه لايجوز تولى شخص فى عقد بيع واحد الايجاب والقبول معا ، لأن أحد المتبايعين متملك والثانى مملك ، ولاتجتمع الصفتان فى وقت واحد وفى شىء واحد .

على أن لهذا الحكم مستثنيات يجوز فيها صدور الإيجاب والقبول فى البيع من شخص واحد ، ويتم العقد فيها أحيانا بالإيجاب فقط .

---

(١) تراجع آراء الفقهاء فى حكم الهبة فى البدائع جـ٦ ص : ٣٠٣٠ منح الجليل جـ٣ ص : ١٨٢ ، نهاية المحتاج جـ٤ ص : ٣٧٨ كشاف القناع جـ٣ ص : ٤٤٦

الحالة الأولى :

لأبى الصغير أن يتولى طرفى عقد البيع لولده الصغير وأن يعقد له البيع بلفظ واحد ، مثل لو أراد أبوالصغير بيع ماله لولده الصغير فقال بعت مال من ولدى الصغير ، فإنه ينعقد البيع بلا حاجة لقبول الأب ، فقد اعتبر اللفظ الواحد من الأب مقام اللفظين لداعى الشفقة الأبوية .

على أن انعقاد البيع بلفظ واحد انما يتم بانشاء العاقد البيع بألفاظ تفيد الأصالة عن نفسه ، كقوله : بعت دارى من ابنى أو اشتريت داره ، فيكون الأب أصيلا فى حق نفسه ، نائبا عن صغيره ، فاذا بلغ فالعهد اليه .

واذا اشترى مال ابنه لايبرأ من الثمن حتى يسلمه الى وصى ينصبه القاضى ثم يرده وصى القاضى اليه ، ويكون أمانة عنده ، حتى لايكون الأب مُطَالَبًا ومُطَالِبًا ، ولنفى التهمة ، ويحل للأب شراء مال طفله الصغير بيسير الغبن لا بفاحشه ، والجد أبو الأب عند انعدام الأب بمنزلته (١) وهذا عند الحنفية .

الحالة الثانية :

لو أراد أبوالصغير بيع مال ولده هذا من ولد صغير آخر له ، فله أن يتولى هنا أيضا طرفى العقد ، وذهب الحنابلة (٢) الى جواز أخذ الأب شيئا لنفسه من مال الصغير مطلقا بيعا كان أم غيره ، وقالوا إن للأب أن يأخذ من مال ولده ما شاء ويتملكه مع حاجة الأب الى ما يأخذه ومع عدمها صغيرا كان الإبن أم كبيرا بشرطين :

الأول : ألا يجحف بالابن ، ولا يضر به ، ولا يأخذ شيئا تعلقت به حاجته .

الثانى : ألا يأخذ من مال ولده فيعطيه لولده الآخر ، وذلك لأنه ممنوع من تخصيص بعض ولده بالعطية من مال نفسه فلأن يمنع من تخصيصه بما أخذ من مال ولده الآخر أولى ، واستدلوا على ذلك بأحاديث (٣) منها :

ما روى عن عمارة بن عمير عن عمته من أنها سألت عائشة رضى الله عنها : « فى حجرى يتيم ، أفآكل من ماله؟ » فقالت : « قال رسول الله ﷺ : « إن من

---

(١) يراجع الفتاوى الأنقروية جـ١ ص : ٣٠٠ ، الفتاوى الهندية جـ٣ ص : ١٧٣ - ١٧٤

(٢) المغنى جـ٦ ص : ٢٩٤

(٣) انظر شرح الزرقانى على الموطأ باب « فى الرجل يأكل من مال ولده » ص : ٢٠٥ ونيل الأوطار جـ٩ ص : ١٤

أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وولده من كسبه » وما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : « يارسول الله ، إن لى مالا وولدا وان والدى يحتاج مالى : قال « أنت ومالك لوالدك ، إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم » فدل ذلك على أن الرجل مشارك لولده فى ماله فيجوز له الأكل منه سواء أذن الولد أم لم يأذن ، ويجوز له أيضا ان يتصرف به كما يتصرف بماله ، ما لم يكن ذلك على وجه السرف والسفه .

قالوا : « وليس لغير الأب الأخذ من مال الصغير ، لأن للأب ولاية على ولده وماله اذا كان صغيرا ، وله شفقة تامة وحق متأكد ، ولايسقط ميراثه وقالوا : « الام لا تأخذ لأنها لا ولاية لها ، والجد أيضا لايلى مال ولد ابنه وشفقته قاصرة عن شفقة الأب ، وغيره من الأقارب والأجانب ليس لهم الأخذ بطريق التنبيه ، لأنه اذا امتنع الأخذ فى حق الأم والجد فى مشاركتهما للأب فى بعض المعانى فغيرهما مما لايشارك الأب فى ذلك أولى (١) » .

وقال المالكية (٢) :

للأب أن يشترى مال ابنه لنفسه ، ولا اعتراض عليه فى شىء من ذلك سواء أكان الملك عقارا ام منقولا ، الا أن يثبت سوء النظر والغبن الفاحش ، وإذا أراد الرجل التنقل من وطنه وأراد بيع مال ابنه الصغير وانتقاله مع نفسه جاز ذلك عليه وكذلك له أن يبيع مال ابنه الصغير لينفق منه على نفسه اذا احتاج الى ذلك .

وقال الشافعية : (٣)

اذا أراد الأب أن يبيع ماله بمال ابنه جاز بيعه وكذلك بيع الجد : لأنهما لايتهمان فى ذلك لكمال شفقتهما .

ويدل على ذلك ما رواه البيهقى (٤) فى باب من يشترى من ماله لنفسه من نفسه اذا كان أبا أو جدا من قبل الأب : « عن سفيان الثورى عن عبدالكريم الجزرى : قال : ماتت امرأة لخال لى ، وتركت خادما وأولادا صغارا فقال سعيد بن جبير : لابأس أن يقوم الأب أنصباء ولده ويطأها قال الشيخ أبوالوليد : قال اصحابنا : يقوم ويشترى من نفسه فيصير له » .

---

(١) يراجع : المغنى : جـ٦ ص : ٢٩٤

(٢) انظر : العقد المنظم للحكام ص : ١٩٩ وحاشية الدسوقى جـ٣ ص : ٢٩٩

(٣) انظر المجموع جـ١٣ ص : ٣٥١ ، قواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام جـ٢ ص ١٨٧

(٤) السنن الكبرى جـ٦ ص : ٣

ويحتاج أن يقول الأب : قد اشتريت هذا لنفسى من ابنى بكذا وبعث ذلك عليه ، فيجمع بين لفظى البيع والشراء .

حكم بيع الأب شيئا من مال ولده لأجنبى:

الأب مقدم على جميع الأولياء لوفور شفقته ولكن الأباء ليسوا جميعا فى درجة واحدة بالنسبة للتصرف فى أموال أولادهم ، بل هم مختلفون بحسب صفاتهم ، لأن الأب إما أن يكون معروفا بحسن الاختيار بأن يكون مشهورا بالتدبير وصلاح الرأى ، أو مستورا : واما أن يعرف بسوء الاختيار بأن يكون فاسد الرأى سيء النية .

وحكم بيع الأب شيئا لأجنبى فى الوجهين الأولين : يجوز عقده ، ولو عقارا بيسير الغبن : فلا يكون للابن نقضه بعد بلوغه رشيدا لأن للأب شفقة وافرة ولا معارض له : فالظاهر أن مباشرته على المصلحة والغبطة فينفذ فلو ادعى بعد ما طلب منه الثمن بعد البلوغ ضياعه او الانفاق عليه ، وهو نفقة مثله فى مدة صدق بيمينه .

وفى الوجه الثالث :

وهو إن كان الأب فاسقا واشتهر بسوء الاختيار بأن عرف بأنه فاسد الرأى سيء التدبير لم يجز بيع عقار ابنه ، وللابن نقضه بعد بلوغه وهو المختار ، الا اذا كان خيرا بأن باع بضعف قيمته ، وبيعه المنقول جائز ويوضع ثمنه بيد عدل .

وتناول الفقهاء تفسير الخيرية والمنفعة فقال بعضهم : أن يبيع من مال الصغير ما يساوى ثمانمائة بألف ، ويشترى له مايساوى الألف بثمانمائة وقال بعضهم : أن يبيع بالضعف ويشترى بالنصف (١) .

وجاء فى الفتاوى الهندية (٢) باع الأب ضيعة او عقارا لابنه الصغير بمثل قيمته ، فان كان الأب محمودا او مستورا عند الناس يجوز ، وان كان مفسدا لايجوز وهو الصحيح ، وان باع منقولا وهو مفسد فى رواية لايجوز إلا اذا كان خيرا للصغير وهو الاصح .

---

(١) يراجع أدب الأوصياء : جـ٣ ص : ١٢٤ ، احكام الصغار جـ١ ص : ١٩١ الفتاوى الانقروية جـ١ ص : ٣٠٠

(٢) الفتاوى الهندية جـ٣ ص ١٥٠ ، ١٧٦

المبحث السادس

النفقة

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ (٢١٥) ﴾

«سورة البقرة - آية ٢١٥»

النفقـــــــة

تعريفها

هى مايحتاج اليه الانسان من طعام وكسوة ومسكن ، ومايتبع ذلك من ماء شرب وطهارة ، وغير ذلك من زوجة وأقارب ومماليك وغيرهم بحسب العرف .

سببها

الزوجية ، والقرابة ، والملك ، والذى يهم فى هذا البحث هو النفقة بسبب القرابة .

والقرابة التى تجب بسببها النفقة نوعان : قرابة الولادة ، وهى قرابة الأصول والفروع . والأصول هم الآباء والأمهات والأجداد والجدات وان علوا . والفروع هم الأولاد وأولاد الأولاد وان نزلوا .

وقرابة غير الولادة : والمراد بها ـ عند الحنفية ـ القرابة المحرمة للزواج ، وتتناول ذوى الرحم المحرم ويقال لهم الحواشى ، وهم : الأخوة والأخوات وأولادهم والأعمام والعمات والأخوال والخالات (١) . وهذه لاتدخل فى إطار هذا البحث .

أدلة مشروعيتها

ثبتت مشروعية النفقة للآباء والأولاد بالكتاب والسنة :

(١) البدائع جـ ٥ ص : ٢٢٢٨ .

أولا : أدلة مشروعية النفقة للأبناء (الفروع) :

١ـ من الكتاب

أ ـ قوله تعالى :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾(١)

أى لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته ، وعموم الآية يدل على وجوب نفقة الزوج على زوجته وأقاربه بشرطه أى بحسب سعته .

ب ـ قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ (٢)

قال الجصاص (٣) : « حوت الآية الدلالة على معنيين : أحدهما : أن الأم أحق برضاع ولدها فى الحولين ، وأنه ليس للأب أن يسترضع له غيرها إذا رضيت بأن ترضعه . والثانى : أن الذى يلزم الأب فى نفقة الرضاع إنما هو سنتان ، وفى الآية دلالة على أن الأب لايشارك فى نفقة الرضاع لأن الله تعالى أوجب هذه النفقة على الأب للأم وهما جميعا وارثان . ثم جعل الأب أولى بإلزام ذلك من الأم مع اشتراكهما فى الميراث ، فصار ذلك أصلا فى اختصاص الأب بالزام النفقة دون غيره . كذلك حكمه فى سائر مايلزمه من نفقة الأولاد الصغار والكبار الزمنى يختص هو بايجابه عليه دون مشاركة غيره فيه لدلالة الآية عليه » .

---

(١) سورة الطلاق ـ آية ٧ .

(٢) سورة البقرة ـ آية ٢٣٣

(٣) الجصاص جـ١ ص : ٤٠٤

جـ ـ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ (١)

أى اجعلوا لهم فيها أو افرضوا لهم فيها ، وهذا فيمن يلزم الرجل نفقته وكسوته من زوجته وبنيه الأصاغر ، فكان هذا دليلا على وجوب نفقة الولد على الوالد ، والزوجة على الزوج (٢) .

٢ـ من السنة

أ ـ ماروى عن ثوبان أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله » ، قال أبو قلابة : « وبدأ بالعيال . وأى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم » .

وفى الحديث دليل على الحث على النفقة على العيال ، وبيان عظمة الثواب فيه لأن منهم من تجب نفقته بالقرابة ، ومنهم من تكون مندوبة وتكون صدقة وصلة ، ومنهم من تكون واجبة بملك النكاح أو بملك اليمين ، وهذا كله فاضل محثوث عليه ، وهو أفضل من صدقة التطوع ، ولهذا قال ﷺ فى رواية ابن أبى شيبة : « أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك »(٣) .

ب ـ ماروى عن عائشة رضى الله عنها أن هندا زوجة أبى سفيان قالت : « يارسول الله ، إن ابا سفيان شحيح (٤) ولايعطينى من النفقة مايكفينى وولدى

---

(١) سورة النساء ـ آية ٥

(٢) القرطبى مجلد ٢ ص : ١٦٠٢

(٣) صحيح مسلم جـ ٧ ص : ٨١ فضل النفقة على العيال

(٤) الشح : البخل مع الحرص فهو أخص من البخل : والبخل يختص بمنع المال ، والشح يعم كل شىء فى جميع الأحوال ، أى هو بخيل حريص . يراجع : الاحكام شرح أصول الاحكام لابن دقيق العيد جـ٣ ص : ٢٧٠

إلا ما أخذت من ماله بغير علمه » . فقال ﷺ : خذى مايكفيك وولدك بالمعروف » ، فدل الحديث على وجوب نفقة الزوجة والأولاد على الزوج ، وأن الواجب الكفالة من غير تقدير النفقة ، وأن من تعذر عليه استيفاء مايجب له من نفقة أن يأخذه : لأنه ﷺ أقرها على الأخذ فى ذلك لاسيما مع تمرد الأب ، وأن للأم ولاية الإنفاق على ولدها .

ثانيا : أدلة مشروعية نفقة الآباء (الأصول) :

ثبتت مشروعية نفقة الآباء بالكتاب والسنة والإجماع .

١ـ من الكتاب

أ ـ قوله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله

﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٥﴾ ﴾(١)

وليس من الصحبة بالمعروف تركه جائعا مع القدرة على سد جوعته . وهذا فى الوالدين الكافرين ، فالمسلمان أولى ، والإنفاق عليهما عند الحاجة من أعرف المعروف (٢) .

ب ـ قوله تعالى :

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴿٢٣﴾ ﴾(٣) .

(١) سورة لقمان ـ آية ١٤ ـ ١٥

(٢) انظر الجصاص جـ١ ص : ٤٠٨ ، البدائع جـ٥ ص : ٢٢٢٨

(٣) سورة الاسراء ـ آية ٢٣

أى وأحسنوا إلى الوالدين إحسانا ، برا بهما وعطفا عليهما ، لأن الله تعالى جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود ورباك ، وكثيرا مايقرن تعالى بين حقه وحقهما فى غير موضع من كتابه فقال :

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

وقوله :

﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢)

وغير ذلك ، فحق الله أوكد الحقوق ـ وهو عبادته ـ وأعظمها . ثم بعد حقه تعالى حق المخلوقين ، وأوكدها حق الوالدين فثنى به ، وعطف بذى القربى فى غير ما آية ووصى بذلك سبحانه وتعالى فقال :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴿١٥١﴾ ﴾ (٣)

الى قوله :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾

وقال سبحانه

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ ﴿٨﴾ ﴾ (٤)

---

(١) سورة النساء ـ آية ٣٦

(٢) سورة لقمان ـ آية ١٤

(٣) سورة الأنعام ـ آية ١٥١

(٤) سورة العنكبوت ـ آية ٨

ومن أعظم الإحسان اذا كانا أو أحدهما لايملك النفقة أن ينفق ولده عليه بالمعروف .

فالآية تدل على وجوب النفقة واتمامها للوالدين وان علوا مع حاجتهم وغنى

قال تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (٢)

٢ـ من السنة

أ ـ قوله ﷺ ـ فى حديث طارق المحاربى ، وكان قدم المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب بالناس ويقول : « يد المعطى العليا ، إبدأ بمن تعول ، أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك » (٣)

فبدأ بذكر الأم قبل الأب ، فدل على أن الأم أحق من الأب .

ب ـ ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قال رجل : يا رسول الله أى الناس أحق منى بحسن الصحبة ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك (٤) » والحديث يدل على أن الأم أحق بحسن الصحبة من الأب وأولى منه بالبر حيث لايتسع مال الابن إلا لنفقة واحد منهما . وقد حكى الحارث المحاسبى الإجماع على تفضيل الأم على الأب . وهذا لاينقص من فضل حسن الصحبة لهما معا عند المقدرة .

---

(١) الاحكام شرح أصول الاحكام جـ ٢ص : ٧١

(٢) سورة البقرة ـ آية ٢١٥

(٣) رواه النسائى : نيل الأوطار جـ ٦ ص : ٣٦٦

(٤) متفق عليه .

جـ ـ ما رواه أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن النبى ﷺ انه قال : « ان اطيب ما اكلتم من كسبكم وان أولادكم من كسبكم ، فكلوه هنيئا مريئا » (١) . فالحديث حجة بأوله وآخره : أما بآخره فظاهر لأنه ﷺ أطلق للأب الأكل من كسب ولده إذا احتاج اليه مطلقا عن الإذن والعوض فوجب القول به ، وأما بأوله فلأن معنى قوله ﷺ « وان ولده من كسبه » : أى كسب ولده من كسبه لأنه جعل كسب الرجل أطيب المأكول ، والمأكول كسبه لا نفسه . واذا كان كسب ولده كسبه فكانت نفقته فيه لأن نفقة الإنسان فى كسبه .(٢)

وفى نفس المعنى روى جابر بن عبدالله أن رجلا جاء الى رسول الله ﷺ ومعه أبوه فقال : « يا رسول الله : ان لى مالا ، وان أبى يريد أن يأخذ مالى » . فقال رسول الله ﷺ « أنت ومالك لأبيك » فأضاف مال الإبن الى الأب بلام التمليك . فلا أقل من أن يثبت له حق التمليك عند الحاجة .

يقول ابن القيم فى زاد المعاد : (٣)

« وهذا كله ـ يقصد الأدلة السابقة ـ تفسير لقوله تعالى » :

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٤)

وقوله :

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٥)

فجعل سبحانه حق ذى القربى يلى حق الوالدين وأمر الله تعالى بالاحسان اليهم ، ومن أعظم الاساءة أن يراه يموت جوعاوعريا وهو قادر على سد خلته وستر عورته » أهـ .

---

(١) نيل الأوطار جـ ٦ ص : ٣٦٦

(٢) نفس المصدر جـ ٦ ص : ٣٦٨ ، البدائع جـ٥ ص : ٢٢٨٣

(٣) زاد المعاد لابن القيم جـ ٢ ص : ١٦٣ باب حكمه صلى الله عليه وسلم فى وجوب النفقة للأقارب

(٤) سورة النساء ـ آية ٣٦

(٥) سورة الاسراء ـ آية ٢٦

ويقول ابن حزم فى المحلى : (١)

« صح عن النبى أن عقوق الوالدين من الكبائر ، وليس فى العقوق أكثر من أن يكون الابن غنيا ذا مال ، ويترك أباه أو جده يكنس الكنف ، أو يَسُوسُ الدواب ويكنس الزبل ، فما خفض لهما جناح الذل من الرحمة من فعل ذلك بلا شك » .

٣ـ أما الدليل من الاجماع :

فقد روى ابن المنذر قال : « أجمع أهل العلم على أن نفقة الوالدين الفقيرين اللذين لاكسب لهما ولا مال واجبة فى مال الولد ، وأجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم أن على المرء نفقة أولاده الأطفال الذين لا مال لهم (٢) » .

٤ـ وأما الدليل من المعقول :

فلأن ولد الانسان بعضه ، وهو بعض والده : فكما يجب عليه ان ينفق على نفسه وأهله فكذلك على بعضه وأصله .

المبادىء التى يقوم عليها نظام النفقة فى الفقه الاسلامى .

يجدر بنا قبل الحديث عن الأحكام التفصيلية لنفقة الفروع والأصول أن نذكر أهم المبادىء التى يقوم عليها نظام النفقة على الاقارب فى الفقة الإسلامى استنباطا من هذه الأدلة التى أوجبت النفقة .

أولا : الأصل أن نفقة الانسان تجب فى ماله صغيرا أو كبيرا فمن كان له مال فلا يجب على أحد أن ينفق عليه ؛ إذ أنه من شروط النفقة أن يكون المنفق عليه لامال ولا كسب يستغنى به عن انفاق غيره ، فإن كان موسرا بمال او كسب يستغنى به فلا نفقة له ، لأنها تجب للحاجة والمواساة ، ومن كان له مال لايحتاج الى من ينفق عليه .

---

(١) المحلى جـ١٠ص : ١٠٨

(٢) المغنى جـ٩ ص : ٢٥٦ .

ثانيا : أن يكون لمن تجب عليه نفقة من ينفق عليهم فاضل عن نفقة نفسه إما من ماله واما من كسبه . فأما من لايفضل عنه شيء فليس عليه شيء ، لما روى جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : « اذا كان أحدكم فقيرا فليبدأ بنفسه ثم بمن يعول » (١) . ولأنها مواساة فلا تجب على المحتاج كالزكاة (٢)

ثالثا : أن الآباء لايشاركهم أحد فى نفقة أولادهم : لأن الأولاد جزء من الوالد ، فالانفاق عليهم كالإنفاق على نفسه . واحياؤهم كإحياء نفسه ، ولأن الشرع أوجب النفقة على الأب لانتساب الولد اليه ، وأضاف الولد اليه بلام الملك ، وخصه بإيجاب نفقة الولد الصغير عليه بقوله :

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ (٣) .

أى رزق الوالدات المرضعات وسمى الأم والدة ، والأب مولود له . ولما لم يشاركه أحد فى هذه النسبة فلا يشاركه احد فيما ينبنى عليها وهو النفقة ؛ لأن من له غنم النسب يكون عليه غرم النفقة (٤)

رابعا : أن الأولاد لا يشاركهم أحد فى نفقة آبائهم . وتجب عليهم هذه النفقة بالتساوى من غير تفرقة بين الذكر والانثى ، وبين الوارث وغير الوارث ؛ لأن سبب وجود النفقة عليهم الجزئية ، أى كون الولد جزءا من أصله ، والأولاد متساوون فى هذه الجزئية فيتساوون فيما ينبنى عليها وهو النفقة . وهذا على الرواية الظاهرة فى مذهب الحنفية وعليها الفتوى (٥)

وروى الحسن عن ابى حنيفة أن نفقة الوالد تجب على الأولاد بمقدار الميراث : فيجب على الذكر ضعف مايجب على الانثى قياسا للنفقة على الميراث ، وقياسا لنفقة الأصول على نفقة غيرهم من الأقارب . وبهذا قال بعض الفقهاء من غير الحنفية . وهذا القول يتفق مع أصول الشريعة وقواعدها وهو أن الغرم بالغنم . فالذى يغنم من الاصل

(١) حديث صحيح .
(٢) المغنى جـ٩ ص : ٢٥٨
(٣) سورة البقرة ـ اية ٢٣٣
(٤) البدائع جـ٥ ص : ٢٢٣٣ .
(٥) حاشية ابن عابدين جـ٢ ص : ٦٩٦ .

اذا مات عن تركه يجب عليه ان يغرم بقدر ميراثه منه ؛ ويتفق مع قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ (١)

فإنه جعل وجوب النفقة مرتبطا بالميراث فيكون تقديرها تابعا لمقداره ، فإن زاد المقدار المستحق بالميراث زاد المقدار الواجب عليه فى النفقة،وان نقص وجب عليه بمقداره (٢) وذلك لعموم قوله سبحانه وتعالى :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ ﴿٧﴾ ﴾ (٣)

خامسا : أن الفقهاء يتفقون على مبدأ وجوب النفقة للقريب على قريبه ولكنهم يختلفون فى تحديد القرابة الموجبة للانفاق على أقوال أربعة :

القول الأول : أن القرابة الموجبة للنفقة هى قرابة الولادة المباشرة فقط . فتجب النفقة للأب والأم على الولد ذكرا كان أو أنثى . وتجب النفقة على الأب لولده ذكرا كان أو أنثى ، ولاتجب على الام نفقة ولدها . ولاتجب لغير هؤلاء الاقارب نفقة على أحد من أقاربهم . وهذا مذهب المالكية وهو اضيق المذاهب فى تحديد القرابة الموجبة للنفقة . فورد فى الشرح الصغير (٤) :

« تجب النفقة بسبب القرابة على الولد الحر الموسر كبيرا أو صغيرا ، ذكرا أو أنثى ، مسلما أو كافرا ؛ نفقة والديه الحرين وذلك مما فضل عنه وعن زوجاته ولو أربعا ، لا نفقة خادمه ودابته ، إذ أن نفقة الأبوين مقدمة على نفقتهما ما لم يكن مضطرا لهما ، والا قدمت نفقتهما على الابوين المعسرين . ولاتجب نفقة ولد على زوج أمه الفقير ، بل على أمه فقط ، ولاتجب نفقة على جد أو جدة ، ولا على ولد ابن . وتجب نفقة الولد الحر على أبيه فقط لا على أمه » والمقصود بالولد الحر : أى الفقير العديم الصنعة .

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٣٣
(٢) يراجع : احكام الجصاص جـ١ ص : ٤٠٩
(٣) سورة الطلاق - آية ٧
(٤) الشرح الصغير جـ٢ ص : ٧٥٠ : ٧٥٢ بتصرف ، حاشية الدسوقى جـ٢ ص : ٥٢٢ : ٥٢٤ والخرشى جـ٤ ص : ٢٠٢ ، ٢٠٤

وحجتهم فى ذلك قوله الله تعالى : ﴿ وبالوالدين احسانا ﴾ ، وقوله جل شأنه : ﴿ وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ ، وقول الرسول ﷺ لمن جاء يشكو إليه والده لأنه أخذ منه شيئا من ماله : « أنت ومالك لأبيك » وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن اطيب ما أكلتم من كسبكم وان أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئا مريئا » ؛ فإنها تدل على وجوب نفقة الوالدين على ولدهما . والدليل على وجوب نفقة الولد على أبيه قول الله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ ، وقول الرسول ﷺ لهند زوجة ابى سفيان : « خذى مايكفيك وولدك بالمعروف » ؛ فإن هذه النصوص تدل دلالة ظاهرة على وجوب نفقة الولد على أبيه . وحيث ان هذه النصوص قد دلت على وجوب النفقة على الأب وعلى الأولاد فقط فيقتصر فيها على مورد النص . وغير هؤلاء من الأقارب ليسوا فى قوة قرابة من ذكرهم النص حتى تثبت لهم النفقة بالقياس عليهم » أهـ .

واعترض الجصاص (١) من الحنفية على هذا الرأى بقوله : « إن ظاهر الكتاب يرده . وهو قوله تعالى : ﴿ وان جاهداك على ان تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ والجد داخل فى هذه الجملة لأنه أب . قال الله تعالى :

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٢)

وهو مأمور بمصاحبته بالمعروف لا خلاف فى ذلك . وليس من الصحبة بالمعروف تركه جائعا مع القدرة على سد جوعته . ويدل ايضا قوله :

﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ ﴿٦١﴾ ﴾ (٣)

---

(١) أحكام الجصاص جـ١ ص : ٤٠٨

(٢) سورة الحج - آية ٧٨

(٣) سورة النور - آية ٦١

فذكر بيوت هؤلاء الأقرباء ولم يذكر بيت الابن ولا ابن الابن لأن قوله ﴿ من بيوتكم ﴾ قد اقتضى ذلك كقوله (١) ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » فأضاف اليه مال الابن ، كما أضاف اليه بيت الابن واقتصر على إضافة البيوت اليه . والدليل على أنه اراد بيوت الابن وابن الابن أنه قد كان معلوما قبل ذلك أن الانسان غير محظور عليه مال نفسه ، فإنه لا وجه لقول القائل : لاجناح عليكم فى أكل مال نفسك . فدل ذلك على ان المراد بقوله : ﴿ أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ هى بيوت الأبناء وأبناء الابناء إذ لم يذكرهما كما ذكر سائر الاقرباء » أهـ .

القول الثانى : أن القرابة الموجبة للنفقة هى قرابة الولادة مطلقا ، المباشرة فيها وغير المباشرة ؛ فتجب النفقة على الأصول لفروعهم وعلى الفروع لأصولهم ومن غير تقيد بدرجة لأن الاجداد آباء وأولاد الأولاد فيدخلون فى عموم النصوص التى تدل على وجوب نفقة الآباء والأولاد ، وهى النصوص التى تقدم ذكرها فى مذهب المالكية وهذا مذهب الشافعية وهو أوسع من مذهب المالكية ؛ فذكر صاحب مغنى المحتاج (٣) :

« والموجب للنفقة قرابة البعضية فقط . فيلزم الشخص ذكرا كان أو غيره نفقة الوالد الحر وان علا من ذكر وأنثى ، والولد وان سفل من ذكر أو أنثى .

والأصل فى الأول : قوله تعالى : ﴿ وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ ، ومن المعروف القيام بكفايتهما عند الحاجة ؛ وخبر : « أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وولده من كسبه فكلوا من أموالهم » . وقال ابن المنذر : وأجمعوا على ان نفقة الوالدين اللذين لا كسب لهما ولا مال واجبة فى مال الولد . والأجداد والجدات ملحقون بهما كما الحقوا بهما فى العتق والملك وعدم القود ورد الشهادة وغيرها

والأصل فى الثانى : قوله تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ ، إذ ايجاب الأجرة لإرضاع الأولاد يقتضى ايجاب مؤونتهم . والأحفاد ملحقون بالأولاد وان لم يتناولهم إطلاق ما تقدم » أهـ .

ويمكن مناقشة قولهم بما ذكره الجصاص (٣) فى أحكامه بقوله :

---

(١) يقصد قول الرسول صلى الله عليه وسلم .
(٢) مغنى المحتاج جـ٤ ص : ٤٤٦ .
(٣) الجصاص جـ١ ص : ٤٠٧ .

« إن ظاهر قوله : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ واتفاق السلف على ما وصفنا من ايجاب النفقة يقتضيان فساد هذا القول ؛ لأن قوله : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ عائد على جميع المذكورين فى النفقة والمضارة ، وغير جائز لأحد تخصيصه بغير دلالة . وقد ذكرنا اختلاف السلف فيمن تجب عليه من الورثة . ولم يقل أحد منهم إن الأخ والعم لا تجب عليهما النفقة . وقول مالك والشافعى خارج عن قول الجميع . ومن حيث وجب على الأب وهو ذو رحم محرم وجب على من هو بهذه الصفة ؛ الأقرب فالأقرب لهذه العلة . ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ الى قوله : ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ﴾ فذكر ذوى الرحم المحرم وجعل لهم أن يأكلوا من بيوتهم ، فدل على انهم مستحقون لذلك ، لولاه ما أباحه لهم » . أهـ .

القول الثالث : أن القرابة الموجبة للنفقة هى القرابة المحرمة للزواج : فتجب النفقة على كل قريب لقريبه اذا كانت القرابة بينهما تحرم على الرجل الزواج بالأنثى . وعلى هذا القول تجب النفقة لسائر الأقارب اذا كانوا من المحارم . أما القريب غير المحرم كأبناء الاعمام أو الاخوال فلا تجب النفقة عليهم .

وهذا مذهب الحنفية . وهو أوسع من مذهب المالكية والشافعية .
وحجتهم فى ذلك (١) : أن هذه القرابة يجب وصلها ويحرم قطعها . فاذا حرم قطعها فيحرم لذلك كل سبب مفض إلى القطع . وترك الإنفاق من ذى الرحم المحرم مع قدرته وحاجة المنفق عليه تقضى الى قطع الرحم ، فيحرم الترك . واذا حرم الترك وجب الفعل ضرورة . والله سبحانه قد أمرنا فى غير موضوع أن نصل الرحم ونبرها بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (٢)

---

(١) انظر بدائع الصنائع جـ ٥ ص : ٢٢٣٣ .

(٢) سورة النساء ـ آية ١ .

وروى البخارى (١) فى صحيحه أحاديث كثيرة تدل على فضل صلة الرحم بعنوان « باب فضل صلة الرحم » منها ما روى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ان رجلا قال : « يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة » : فقال قوم : « ماله ماله » فقال رسول الله ﷺ : « أَرَبٌ ماله » (٢) ، فقال النبى ﷺ : « تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم . ذرها » (٣) . قال كأنه كان على راحلته .

وقال عياض : « لا خلاف فى أن صلة الرحم واجبة فى الجملة ، وقطيعتها مصيبة كبيرة . وللصلة درجات ، فأدناها ترك المهاجرة ، وصلتها بالكلام ولو بالسلام . ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة ، فمنها واجب ومنها مستحب واختلفوا فى حد الرحم التى تجب صلتها ؛ فقيل كل ذى رحم محرم بحيث لو كان أحدهما ذكرا والآخر أنثى حرمت مناكحتهما ، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام والأخوال . وقيل هو عام فى كل ذى رحم من ذوى الأرحام فى الميراث » . قال : « وهو الصواب » (٤) .

واستدل الحنفية على تقييد القرابة بالمحرمية بما روى عن عبدالله بن مسعود أنه كان يقرأ قول الله تعالى : ﴿ وعلى الوارث ذى الرحم المحرم مثل ذلك ﴾ بزيادة « ذى الرحم المحرم » . وهى قراءة وردت على سبيل البيان للقراءة المتواترة . وقد رويت بطريق الشهرة فتصلح ان تكون مقيدة للنص .

القول الرابع : أن القرابة الموجبة للنفقة هى القرابة التى يكون فيها القريب وارثا لقريبه المحتاج بالفرض أو التعصيب ، فتجب النفقة على الأصول لفروعهم ، وعلى الفروع لأصولهم ، كما تجب على سائر الأقارب سواء أكانوا محارم أم غير محارم متى كانوا وارثين بالفرض أو التعصيب كالأخوة والأعمام وأبنائهم .

وهذا مذهب الحنابلة ، وهو اوسع من مذهب الحنيفة ، لأنه لم يشترط القرابة المحرمية لوجوب النفقة للقريب كما اشترط الحنفية . ولهذا كان لابن العم النفقة على ابن عمه عند الحنابلة لأنه وارث ، ولا تجب عند الحنفية لأنه غير محرم .

---

(١) عمدة القارى جـ ٢٢ ص : ٩٠ : ٩٦ أحاديث فضل صلة الرحم وإثم قاطعها .

(٢) أرب : « بفتحتين » : الحاجة .

(٣) ذرها : أى اترك الراحلة ودعها .

(٤) عمدة القارى جـ ٢٢ ص : ٩٠ : ٩٦ .

وحجة الحنابلة (١) فى ذلك قوله تعالى :

﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ ؛ فإنه سبحانه علق وجوب النفقة بالوارث بلا فرق بين المحرم وغير المحرم ، فعلم من هذا ان القرابة الموجبة للنفقة هى ما كان فيها القريب وارثا للقريب المحتاج ان ترك مالا ؛ ولأن القريب الوارث لما كان أحق بمال المورث من غيره كان من العدل أن يختص بوجوب نفقته عليه دون قريبه غير الوارث .

ذهب الظاهرية (٢) الى وجوب النفقة على كل من الرجال والنساء الكبار والصغار . فوجب ان يبدأ بما لابد له منه ولا غنى عنه من نفقة وكسوة على حسب ماله ، ثم بعد ذلك يجبر كل احد على النفقة على من لا مال له ولا عمل بيده مما يقوم منه على نفسه من ابويه واجداده وجداته وان علوا ، وعلى البنين والبنات وبنيهم وان سلفوا .

هذه هى آراء الفقهاء فى تحديد درجة القرابة الموجبة للنفقة . والراجح ـ عندنا ـ مذهب الشافعية الذى يتسم بالاعتدال بين التضييق فى مذهب المالكية والتوسع فى مذهبى الحنفية والحنابلة . وهو يتفق كذلك مع ظواهر الأدلة من الكتاب والسنة .

ونرى العمل به على صفة الوجوب ، والعمل بالمذاهب الأخرى ـ الحنفية والحنابلة ـ على وجه الندب والاستحباب عملا بقوله تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (٣)

فالنفقة على هؤلاء الأقارب المحتاجين سواء أكانوا ذوى رحم محرم أم كانوا وارثين هى من باب التعاون على البر والخير خصوصا وان النصوص الواردة فى ذلك تصفهم بصفة الأقربين ؛ كقوله تعالى :

---

(١) يراجع : المغنى والشرح الكبير جـ ٩ ص : ٢٥٨ : ٢٦٠ .

(٢) المحلى : جـ ١٠ ص : ١٠٥ .

(٣) سورة المائدة ـ آية ٢ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ (٣) .

وقوله سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النساء - آية ١٣٥ .
(٢) سورة النساء - آية ٧ .
(٣) سورة النساء - آية ٨ .
(٤) سورة البقرة - آية ٢١٥ .

سادسا : أن نفقة الأقارب تجب بقدر الكفاية ؛ لأن نفقتهم لدفع الحاجة ، والحاجة تندفع بالكفاية . وكذلك نفقة الأولاد على الآباء تجب بقدر الكفاية ؛ إلا اذا كان الأب موسرا فإن نفقة الأولاد لا تجب عليه بقدر الكفاية ، بل على حسب ما يراه القاضي .

وهذا المبدأ متفق عليه بين فقهاء المذاهب الفقهية . لكنهم مختلفون فى تحديد قدر الكفاية .

فعند الحنفية (١) أن مقدار الواجب من هذه النفقة مقدر بالكفاية بلا خلاف ؛ لأنها تجب للحاجة فتقدر بقدر الحاجة . وكل من وجبت عليه نفقة غيره يجب عليه له المأكل والمشرب والملبس والسكنى والرضاع ان كان رضيعا ؛ لأن وجوبها للكفاية ، والكفاية تتعلق بهذه الاشياء . فإن كان للمنفق عليه خادم يحتاج إلى خدمته تفرض له أيضا لأن ذلك من جملة الكفاية .

وعند الشافعية (٢) أنه يشترط فى النفقة الكفاية ـ لقوله ﷺ : « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » ولأنها تجب على سبيل المواساة لدفع الحاجة الناجزة . ويعتبر حاله فى سنه . وزهادته ورغبته . ويجب إشباعه ، ويجب له الأدم ، كما يجب له القوت ، وتجب له مؤونة خادم إن احتاجه مع كسوة وسكنى لائقين به وأجرة طبيب وثمن أدوية (٣) .

وعند المالكية أنه لا يجب على الولد المعسر لوالديه تكسب لينفق عليهما ، وتجب نفقة خادمها ، بخلاف خادم الولد فلا تلزم الأب ولو احتاج له .

وعند الحنابلة (٤) : الواجب فى نفقة القريب قدر الكفاية من الخبز والأدم والكسوة بقدر العادة ؛ لأنها وجبت للحاجة فتقدرت بما تندفع به الحاجة ، فإن احتاج فعليه إخدامه ، لأن ذلك من تمام الكفاية .

سابعا : نفقة الأصول والفروع تجب من وقت ثبوت الحاجة من غير توقف على قضاء القاضى . أما نفقة غيرهم من الأقارب فلا تجب الا بقضاء القاضى ؛ وعلى هذا لو كان لشخص مال من جنس النفقة كان لأبيه أو لابنه المستحق للنفقة

---

(١) بدائع الصنائع جـ ٥ ص : ٢٢٤٦ .
(٢) مغنى المحتاج جـ ٣ ص : ٤٤٨ .
(٣) الشرح الصغير جـ ٢ ص : ٧٥٠ .
(٤) المغنى جـ ٩ ص : ٢٧١ .

أن يأخذ ما يحتاج أليه فى نفقته بالمعروف ، بدون توقف على رفع الأمر الى القاضى . ولا يكون لأخيه المستحق للنفقة أن يأخذ من هذا المال شيئا الا برضاه أو قضاء القاضى . والسر فى ذلك أن نفقة الأصول والفروع تجب باتفاق الفقهاء ؛ فلا تحتاج فى وجوبها الى القاضى . أما نفقة غيرهم من الأقارب فان وجوبها محل خلاف بين الفقهاء ؛ فيحتاج ثبوته الى ما يقويه ، وهو قضاء القاضى (١) .

ثامنا : نفقة الأصول والفروع وسائر الأقارب تسقط بفواتها بمضى الزمان وان تعدى المنفق بالمنع ، لأنها وجبت بدفع الحاجة الناجزة ، حتى ولو فرض القاضى نفقة شهرية للقريب فلم يقبض ، ولا استدان عليه حتى مضت المدة سقطت النفقة ؛ لأن هذه النفقة تجب صلة محضة فلا يتأكد وجوبها الا بالقبض أو ما يقوم مقامه كالاستدانة بعد اذن القاضى . وللقريب اخذ نفقته من مال قريبه عند امتناعه ان وجد جنسها ، وكذا ان لم يجده فى الاصح ، وله الاستقراض ان لم يجد له مالا وعجز عن القضاء . وللأب والجد أخذ النفقة من مال فرعهما الصغير أو المجنون بحكم الولاية . ولا تأخذها الأم من ماله اذا وجبت نفقتها عليه ، ولا الابن من مال أبيه المجنون (٢) .

تاسعا : اذا لم يكن للفقير المستحق للنفقة أحد من أقاربه يستطيع الإنفاق عليه فإن نفقته تكون واجبة فى بيت المال ، لأن فى النفقة حياة الانسان ، ومن وظائف بيت المال فى الشريعة الاسلامية أن يتحمل حاجة المحتاجين ، ويقوم بقضاء حاجاتهم والانفاق عليهم . ولذلك يقول الكاسانى فى البدائع (٣) فى بيان ما يوضع فى بيت المال من الأموال وبيان مصارفها : « واما النوع الرابع فيصرف الى دواء الفقراء والمرضى وعلاجهم ، والى اكفان الموتى الذين لا مال لهم ، والى نفقة اللقيط وعقل جنايته ، والى من هو عاجز عن الكسب وليس له من عليه النفقة ونحو ذلك ، وعلى الإمام صرف هذه الحقوق الى مستحقيها » .

وبعد هذا البيان للمبادىء الفقهية التى يقوم عليها نظام النفقات فى الفقه الاسلامى نذكر الأحكام التفصيلية لمن تجب لهم نفقة من الأقارب ، والذى يهمنا فى بحثنا نفقة الأصول للفروع ، ونفقة الفروع للأصول .

---

(١) بدائع الصنائع جـ ٥ ص : ٢٢٤٤ .
(٢) مغنى المحتاج جـ٣ ص : ٤٤٩ بدائع الصنائع جـ ٥ ص : ٢٢٤٨ .
(٣) البدائع جـ ٤ ص : ٦٩ .

أولا : نفقة الاصول للفروع

الفروع هم أولاد الشخص وأولاد أولاده وإن نزلوا ، سواء كانوا ذكـورا أم إناثـا . والأصل فى وجوب نفقة الفروع - كما قدمنا - قول الله تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ (١) .

فإنه سبحانه وتعالى أوجب نفقة الزوجات على أزواجهن وعبر عن الزوج بالمولود له للتنبيه الى علة الايجاب وأنها الولادة ، فاذا وجبت نفقة الأمهات على الأزواج بسبب الولد كان وجوب نفقة الولد ثابتا بالطريق الأَوْلَى . وكذلك قول الرسول ﷺ لهند زوجة أبي سفيان : « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » ، فإنه يدل على وجوب نفقة الولد على أبيه كما يدل على وجوب نفقة الزوجة على زوجها .

شروط وجوب النفقة للفروع

تجب نفقة الفروع على الأصول اذا توافرت الشروط الآتية :

١ - أن يكونوا فقراء لا مال لهم ولا كسب يستغنون به عن إنفاق غيرهم عليهم . فإن كانوا موسرين بمال أو كسب يستغنون به فلا نفقة لهم ، لأن وجوبها معلول بحاجة المنفق عليه ، فلا تجب لغير المحتاج ، ولأنها على سبيل المواساة والموسر مستغن عن المواساة . والفقر الموجب للنفقة أن يكون الشخص محتاجا لا يجد ما ينفقه على نفسه . فإن كان يجد النفقة التى يحتاج إليها فلا تجب له النفقة ؛ لأن النفقة معللة بالكفاية ، ومتى كان الانسان عنده ما يكفيه لا يلزم غيره كفايته .

واختلف فى حد المعسر الذى يستحق النفقة ؛ فقيل هو الذى يحل له أخذ الصدقة ولاتجب عليه الزكاة . وقيل : هو المحتاج . ولكن لو أن شخصا لايجد ما يحتاج اليه من النفقة ، وله منزل يسكن فيه وخادم فهل يستحق النفقة على أبيه ؟ .

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٣٣ .

فى رواية فى المذهب الحنفى لايستحق ؛ حتى لو كان أختا لايؤمر الأخ بالإنفاق عليها ، وكذلك إذا كانت بنتا له أو أما . وفى رواية يستحق . ووجه الرواية الأولى : أن النفقة لاتجب لغير المحتاج ، وهؤلاء غير محتاجين لأنه يمكن الاكتفاء بالأدنى بأن يبيع بعض المنزل أو كله ويكترى منزلا فيسكن بالكراء ، أو يستغنى عن الخادم ، ووجه الرواية الأخرى أن بيع المنزل لايقع الا نادرا ، وكذا لايمكن لكل أحد السكنى بالكراء أو بالمنزل المشترك . قال صاحب البدائع(١) : « وهذا هو الصواب ، أن لايؤمر ببيع الدار بل يؤمر القريب بالانفاق عليه » .

٢ - أن يكون عاجزا عن الكسب . والعاجز عن الكسب هو من لايمكنه اكتساب معيشته بالوسائل المشروعة المعتادة . فلو كان قادرا على الكسب لاتجب له النفقة ولو لم يكن له مال ؛ لأنه إذا كان قادرا على الكسب كان غنيا بهذه القدرة ، إذ يستطيع بها أن يتكسب وينفق على نفسه ولايكون فى حالة ضرورة يتعرض فيها للهلاك إن لم ينفق عليه قريبه . ويعتبر الانسان عاجزا عن الكسب اذا كانت فيه إحدى الصفات الآتية :

(أ) **الصغر** : والمراد به الصغر الذى لايبلغ المتصف به حد الكسب . فإن بلغ الولد حد الكسب وكان غلاما فللأب أن يؤجره أو يعطيه لمن يعلمه حرفة يكتسب منها وينفق عليه من كسبه . وان كان أنثى فليس له أن يؤجرها للخدمة لما فى ذلك من تسليمها للمستأجر الذى يخلو بها وهو لايجوز شرعا ، ولكن له أن يسلمها الى امرأة ثقة ومأمونة تعلمها حرفة غير منهى عنها شرعا .

(ب) **الأنوثة** : لأن الشأن فى الأنثى عدم التعرض لعناء العمل . ولكن لو كانت الأنثى تكتسب فعلا من وظيفة أو حرفة فإن نفقتها تكون من كسبها ؛ فإذا كان كسبها لايكفيها فعلى الأب إكمال نفقتها حتى تتزوج . فإذا تزوجت وجبت نفقتها على الزوج . فإن طلقت عادت نفقتها على الأب إذا احتاجت إلى النفقة ، وهذا عند الحنفية خلافا لمالك فعنده : ينفق على النساء حتى يتزوجن ويدخل بهن الأزواج ثم لانفقة لهن وإن طلقن . ولو طلقن قبل البناء بهن فهن على نفقتهن .

---

(١) البدائع : جـ٥ ص٢٢٣٨

(ج) المرض : الذى يحول دون العمل : كالعمى ، والشلل ، والجنون ، والعته ، ونحوها فإن كان مع هذه الآفة يكتسب لاتجب له النفقة . فإن لم يكفه ما يكتسبه فعلى الأب ما يكمل حاجته .

ولقد خالف الحنابلة غيرهم فى هذا الشرط : ففى المغنى(١) : لايشترط فى وجوب نفقة الوالدين والمولودين نقص الخلقة (كالزَمِن ، والاعمى) ولانقص الأحكام (الصغير والمجنون) فى ظاهر المذهب ؛ وظاهر كلام الخرقى : أنه أوجب نفقتهم مطلقا إذا كانوا فقراء وله ما ينفق عليهم . وقال القاضى : « لايشترط فى الوالدين » ، وهل يشترط ذلك فى الولد ؟ فكلام أحمد يقتضى روايتين : إحداهما تلزمه نفقته . وهذا القول يرجع الى أن الذى لايقدر على كسب ما يقوم به تلزم نفقته رواية واحدة ، سواء كان ناقص الأحكام كالصغير والمجنون ، أو ناقص الخلقة كالزمن . وانما الروايتان فيمن لاحرفة له ممن يقدر على الكسب ببدنه ، واستدلوا على ذلك بقول النبى ﷺ لهند : « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » فلم يستثن منهم بالغا ولاصحيحا ؛ ولأنه والد ، أو ولد فقير فاستحق النفقة على والده ، أو ولده الغنى كما لو كان زمنا ، أو مكفوفا) أهـ .

(د) طلب العلم : فان كان الولد مشتغلا بالتعليم ، وكان طلب العلم يشغله عن التكسب وجبت نفقته على أبيه ؛ وحتى ولو كان قادرا على التكسب والعمل لأن طلب العلم قد يكون واجبا فى بعض الحالات ، وقد يكون مندوبا ، وهو على وجه العموم فرض كفاية . وقد اشترط الفقهاء لاعتبار طلب العلم موجبا للنفقة أن يكون طالب العلم ناجحا مجدا فى طلب العلم النافع ، أما لو كان فاشلا فى دراسته غير ناجح فى تعليمه فلا جدوى فى طلبه العلم ، وعليه أن ينصرف لطلب القوت ، ولايكون كلا على أحد(١)(٢)

وقد اعتبر بعض فقهاء الحنفية من دواعى العجز عن الكسب الموجب للنفقة أن يكون الشخص من أبناء الأشراف والبيوت الذين يلحقهم العار من التكسب كأبناء الأمراء والملوك ومن فى حكمهم وقالوا إن أبناء الأسر وذوى الحسب يستحقون النفقة ولو كانوا قادرين على التكسب والعمل ؛ وعللوا ذلك بأن الكسب يلحق بهم عارا لوجاهتهم وشرفهم(٣) .

---

(١) المغنى جـ ٩ ص ٢٦١ .
(٢) حاشية ابن عابدين جـ ٢ ص ٦١٩ .
(٣) تبيين الحقائق جـ ٢ ص ٦٤ .

ولم يرتض هذا الحكم بعض العلماء وقالوا : إن الكسب لمؤونته ومؤونة عياله فرض ، فكيف يكون عارا ؟ . وهذا الكلام هو ما يتفق مع روح الشريعة التى تحث على السعى والكسب والانتشار فى الأرض طلبا للحلال والطيبات من الرزق وتذم السؤال والاستجداء . والنصوص الشرعية التى توجب العمل على كل مقتدر وتحرم التقاعد نصوص عامة لاتستثنى أحدا ؛ كقول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

وقوله جل شأنه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢)

وقد كان أنبياء الله يعملون بأيديهم ويأكلون من كسبهم وكذلك كان الصحابة رضى الله عنهم والخلفاء يعملون ويكتسبون . وعلى هذا لايكون هناك وجه لإيجاب النفقة للقادر على الكسب المتيسر له سبيله سواء أكان من أبناء الأشراف والبيوت الرفيعة أم كان من عامة الناس . .

٣ – أن يكون لدى من تجب عليه النفقة لمن ينفق عليهم فاضل عن نفقة نفسه إما من ماله وإما من كسبه . فأما من لايفضل عنه شىء فليس عليه شىء ؛ لما روى جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان أحدكم فقيرا فليبدأ بنفسه ، فإن فضل فعلى عياله ، فإن فضل فعلى قرابته » ، وفى لفظ : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » وروى أبوهريرة أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال :

---

(١) سورة الجمعة – آية ١٠ .
(٢) سورة الملك – آية ١٥ .

« يارسول الله ، عندى دينار » . قال : « تصدق به على نفسك » ، قال : « عندى آخر » قال : « تصدق به على خادمك » ، قال : « عندى آخر » ، قال : « أنت أبصر »، ولأنها مواساة فلا تجب على المحتاج كالزكاة(١) .

٤ – آن يكون الأصل قادرا على الإنفاق ليساره أو قدرته على الكسب وان لم يكن غنيا . فإذا كان الأب موسرا أو كان قادرا على الكسب وجبت عليه نفقة أولاده . ولايسقط هذا الوجوب إلا إذا كان عاجزا عن الكسب ، بحيث تجب نفقته على غيره من الأصول أو الفروع لأنه فى هذه الحالة يعتبر كالمعدوم . وليس من المعقول أن توجب عليه النفقة على غيره وهو يأخذ نفقته من غيره .

أما إذا كان الأب معسرا ولم يكن عاجزا عن الكسب ، فإنه يؤمر بالاكتساب والإنفاق على أولاده ، فإن لم يتيسر له الاكتساب لبطالة أو غيرها بارادته لم تسقط عنه نفقة أولاده . ولكن يؤمر من تجب عليه النفقة لو لم يكن الأب موجودا بالإنفاق عليهم ، ويكون ذلك دينا على الأب يطالب به إذا أيسر . ولو كان لهم جد موسر لم يفر من النفقة على الجد ، ولكن يؤمر الجد بالإنفاق عليهم عند حاجتهم ثم يرجع به على ابنه لأن النفقة لاتجب على الجد مع وجود الأب إذا كان الأب قادرا على الكسب ، وان لم يكن الأب قادرا على الكسب بأن كان زمنا قضى بنفقتهم على الجد لأن عليه نفقة أبيهم فكذا نفقتهم(٢) .

وفى حد اليسار الذى يتعلق به وجود النفقة روى عن أبى يوسف أنه اعتبر نصاب الزكاة . وعند محمد : إذا كان له نفقة شهر وعنده فضل عن نفقة شهر له ولعياله أجبر على نفقة ذى الرحم المحرم ، واستدل أبويوسف على رأيه بأن نفقة ذى الرحم صلة ، والصلات إنما تجب على الأغنياء كالصدقة ، وحد الغنى فى الشريعة ما تجب فيه الزكاة ، واستدل محمد على رأيه بأنه من كان عنده كفاية شهر فما زاد عليها فهو غنى عنه فى الحال ، والشهر يتسع للاكتساب فكان عليه صرف الزيادة إلى أقاربه ، ومال الكاسانى فى البدائع الى رأى محمد . فقال : « وما قاله محمد أوفق وهو أنه اذا كان له كسب دائم وهو غير محتاج الى جميعه فما زاد عن كفايته يجب صرفه إلى أقاربه كفضل ماله اذا كان له مال . ولايعتبر النصاب لأن

---

(١) المغنى : جـ ٩ ص٢٥٨ .
(٢) البدائع : جـ ٥ ص٤١١ .

النصاب إنما يعتبر فى وجوب حقوق الله تعالى المالية ، والنفقة حق العبد فلا معنى للاعتبار بالنصاب فيها ، وانما يعتبر فيها إمكان الأداء »(١) .

وأضاف الحنابلة شرطا لوجوب النفقة وهو :

أن يكون المنفق وارثا لقول الله تعالى : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ ؛ لأن بين المتوارثين قرابة تقتضى كون الوارث أحق بمال الموروث من سائر الناس فينبغى أن يختص بوجوب صلته بالنفقة دونهم ، فإن لم يكن وارثا لعدم القرابة لم تجب عليه النفقة لذلك(٢) .

هذه الشروط التى يلزم توافرها لايجاب نفقة الفروع على الأصول . أما اتحاد الدين فليس شرطا لإيجاب هذه النفقة عند فقهاء الحنفية والشافعية والمالكية ورواية للحنابلة . ووجهتهم أنها نفقة واجبة لقول الله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ ، وهو يدل على أن الولادة سبب لإيجاب نفقة الأولاد على أبيهم ، وهى ثابتة سواء أكان الدين متحدا أم مختلفا ؛ ولأن الفرع جزء من الأصل ، وجزء الانسان فى معنى نفسه ، فكما لاتمتنع النفقة على نفسه بالكفر لاتمتنع النفقة على جزئه إذا اختلف معه فى الدين .

والظاهر عند الحنابلة : أن اتحاد الدين شرط لوجوب النفقة ، فإذا اختلف الدين فلا نفقة لأحدهما على صاحبه . ووجهتهم أن النفقة مواساة على سبيل البر والصلة فلم تجب مع اختلاف الدين . لأنهما غير متوارثين فلم يجب لأحدهما على الآخر نفقته(٣)

والراجح : هو رأى الجمهور لقوة أدلتهم ، ولأن الولادة التى تفيد الجزئية هى سبب الوجوب أصلا ، أما اتحاد الدين واختلافه فهو عارض . وخالفت الميراث لأنه لايتوقف عليه إحياء النفس بخلاف النفقة ، ولأن وجوب هذه النفقة على طريق الصلة وتجب صلة رحم الوالدين مع اختلاف الدين لقوله تعالى فى الوالدين الكافرين : ﴿ وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ ولم يرد مثله فى غير الوالدين . ولما رواه البخارى(٤) عن أسماء قالت : « قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش ومدتهم - إذ عاهدوا النبى ﷺ مع أبيها - فاستفتيت النبى ﷺ

---

(١) البدائع : جـ ٥ ص ٢٢٤١ .

(٢) براجع المغنى : جـ ٩ ص ٢٥٨ .

(٣) براجع فى شروط وجوب النفقة : تبيين الحقائق جـ ٢ ص ٦٤ وما بعدها ، المغنى والشرح الكبير جـ ٩ ص ٢٥٨ وما بعدها ، ومغنى المحتاج جـ ٤ ص ٤٤٦ وما بعدها ، والشرح الصغير جـ ٢ ص ٥٥٠ وما بعدها .

(٤) عمدة القارى : جـ ٢٢ ص ٨٩ .

فقلت : « إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها ؟ » . قال : « نعم صلي أمك » . فقياسا على ذلك الأصل تجب النفقة للفروع على الأصول مع اختلاف الدين .

نفقة زوجة الابن :

اذا كان للفرع الذى يستحق النفقة زوجة فلاتجب نفقتها على الأب ولا على غيره من الأصول ، بل تكون نفقتها واجبة على زوجها ويقضى عليه بها ، ويأذن القاضى للزوجة بالاستدانة عليه اذا طلبت ذلك . ويؤمر من تجب عليه نفقتها لو لم تكن متزوجة كأبيها أو أخيها بأداء النفقة اليها على أن يرجع بها على الزوج إذا أيسر ، حتى لو امتنع عن أدائها حبسه القاضى إذا طلبت المرأة ذلك . وهذا بالاتفاق بين جميع المذاهب بخلاف زوجة الأب - كما سيأتى .

واذا أراد الابن الاعفاف بالزواج : هل يلزم الأب بإعفافه ؟ ذهب جمهور الفقهاء الى أنه يجب على الأب اعفاف ابنه اذا كانت عليه نفقته وكان محتاجا الى اعفافه ، لأنه من عمودى النسب وتلزمه نفقته فيلزمه اعفافه عند حاجته اليه(١)

ثانيا : نفقة الفروع للأصول :

الأصول : هم الأب والجد والأم وأبو الام وأم الأم مهما علوا ونفقة الأصول تجب على الفروع إذا توافرت الشروط الاتية :

١ - أن يكون الأصل فقيرا لامال له ، ولا يشترط أن يكون عاجزا عن الكسب كما اشترط ذلك فى الابن : لأن الله تعالى أمر بالاحسان إلى الوالدين ونهى عن إيذاء الآباء فقال جل شأنه

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) مغنى المحتاج جـ٤ ص ٤٤٦ ، المغنى جـ٩ ص ٢٦٣

(٢) سورة الاسراء - آية ٢٣

وفى الزامهم بالاكتساب مع غنى الابناء ترك للاحسان اليهم وايذاء لهم فلا يجوز ، ولم يوجد ذلك فى الابن ولهذا لايحبس الرجل بدين ابنه ويحبس الابن بدين أبيه ، ولأن الشرع اضاف مال الابن الى الاب بلام الملك فكان ماله كماله ، وكذا هو كسب كسبه فكان ككسبه فكانت نفقته فيه (١) .

٢ ـ أن يكون الفرع موسرا وذلك بأن يكون له مال فاضل عن حاجته ولايقل عن نصاب الزكاة أو يكون له كسب يكفيه ويزيد على حاجته فاذا كان الولد غنيا أو كان كسبه يكفيه ويزيد على حاجته وجبت عليه النفقة لأصوله ، سواء كان الأصل عاجزا عن الكسب أم كان قادرا عليه ، لأن تكليف الأصل بالعمل مع يسار ولده ينافى احترامه وبره الواجب له شرعا .

فإن كان للولد أب وأم كلاهما محتاج الى النفقة ولكنه لايستطيع الانفاق الا على أحدهما كانت الأم أحق من الأب فى وجوب النفقة ، يؤيد هذا القول ماروى أن معاوية ابن حيدة القشيرى قال « يارسول الله ، من أبر ؟ قال : « أمك » قال « ثم من ؟ » قال : أمك قال ثم من؟ قال : « امك » قال : ثم من ؟ قال : « اباك ثم الاقرب فالاقرب » فان هذا الحديث يدل على تقديم الأم على الأب فى البر ، والانفاق من البر .

فتكون أحق من الأب فيه وقال بعضهم الأب أحق من الأم لفضيلته ولانفراده بالولاية على ولده ، واستحقاق الأخذ من ماله واضافة النبى ﷺ بقوله « أنت ومالك لأبيك » ولأنه تجب عليه نفقة الابن فى صغره دون الأم والغنم على حسب الغرم وقيل تقسم النفقة بينهما .

أما ان اجتمع أب وابن فقد ذهب البعض الى التفصيل فإن كان الإبن صغيرا أو مجنونا قدم على الأب لأن نفقته وجبت بالنص مع انه عاجز عن الكسب : وان كان الابن كبيرا وكان الاب زَمِناً فهو احق ، لأن حرمته آكد وحاجته اشد ، وان كانا صحيحين فقيرين ففيهما ثلاثة اوجه :

الاول : التسوية بينهما لتساويهما فى القرب وتقابل مرتبتهما .

---

(١) انظر البدائع : جـ٥ ص ٢٢٣٩ ، ٢٢٤٠

الثانى : تقديم الابن لوجوب نفقته بالنص .
الثالث : تقديم الأب لتأكد حرمته (١) .

وإذا كان كسب الولد لايزيد على حاجته فلا تفرض عليه نفقة لأصوله الا انه اذا كان الاصل عاجزا عن الكسب لمرض أو كبر سن وكان للولد عيال لزمه ديانة وقضاء ان يضمه الى عياله فلو امتنع عن ضمه وطلب الاصل ذلك قضى له بما طلب وقد علل الفقهاء هذا الحكم بأن طعام الاربعة مثلا اذا فرق على خمسة لايتضرر كل واحد منهم ضررا فاحشا فإن لم يكن للولد عيال لم يلزمه قضاء ان يضم والده اليه لأن ضمه اليه يؤدى الى عجزه عن الكسب لان الكسب لايكون الا بكمال القوة ، وكمال القوة انما يكون بالغذاء الكامل فلو اشركنا الوالد فى غذائه لم يأكل فلا يقدر على الكسب وفيه خوف هلاكهما جميعا لكن يؤمر الابن ديانة بضم والده إليه ومواساته اذ لايحسن أن يكون للابن كسب ويترك أباه ضائعا . والأم الفقيرة مثل الأب فى ذلك ، وكذلك الجدة ولو لم تكن عاجزة عن الكسب ، لأن الأنوثة عجز حكما (٢)

أما إذا كان للولد كسب يزيد على حاجته ولم يكن له عيال فيجب عليه أن يضم والده اليه متى كان عاجزا عن الكسب لأن رعاية الوالد العاجز عن الكسب واجبة وتركه يتكفف الناس بعيد عن الإنسانية . ومثل الوالد فى ذلك الأم الفقيرة(٣) .

ولايشترط فى وجوب نفقة الأصل على اتحاد الدين ، لأن وجوب النفقة بحق الولادة التى تتحقق بها الجزئية والبعضية بين الوالد والولد . وهذه الجزئية لا تختلف باختلاف الدين فلا يختلف الحكم المتعلق بها وقد قال الله تعالى فى حق الوالدين الكافرين : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾(٤) وليس من المعروف ترك الانفاق عليهما مع القدرة .

---

(١) يراجع : المغنى جـ٩ ص : ٣٧١
(٢) يراجع : حاشية ابن عابدين جـ٢ ص ٦٩٦
(٣) يراجع : البدائع جـ٤ ص ٣٦
(٤) سورة لقمان آية ١٥

حكم النفقة للأصول اذا تعددت الفروع واتحدت درجة القرابة :

اذا لم يكن للأصل الا ولد واحد وجبت نفقته عليه متى توافرت شروط وجوب النفقة التى سبق بيانها وان تعددت الفروع واتحدت درجة قرابتهم بأن كانوا كلهم اولادا او اولاد أولاد وجبت عليهم نفقة الاصل بالتساوى بينهم سواء أكانوا كلهم وارثين أم كان بعضهم وارثا وبعضهم غير وارث ، سواء تساووا فى الغنى أم تفاوتوا وهذا عند بعض الفقهاء وينبنى على ذلك أنه اذا اجتمع ابن وبنت موسران كانت النفقة واجبة عليهما بالتساوى ولاينظر الى ان الابن يأخذ ضعف البنت فى الميراث ولو كان لمستحق النفقة ابنان احدهما مسلم والاخر غير مسلم كانت النفقة عليهما بالتساوى وان كان الابن غير المسلم لايرث وان كان له ابن إبن وبنت بنت كانت النفقة عليهما ايضا بالتساوى وان كانت بنت البنت لاترث مع ابن الابن لانها من ذوى الأرحام .

وذهب بعض الفقهاء الى انه من شروط وجوب النفقة ان يكون المنفق وارثا لقول الله تعالى ﴿ وعلى الوارث ذلك ﴾ ولان بين المتوارثين قرابة تقتضى كون الوارث احق بمال الموروث من سائر الناس فينبغى ان يختص بوجوب صلته بالنفقة دونهم ، فان لم يكن وارثا لعدم القرابة لم تجب عليه النفقة لذلك .

ومن الحالات التى يمتنع فيها الميراث مع وجود القرابة : ان يكون القريب محجوبا عن الميراث بمن هو اقرب منه فينظر فإن كان الاقرب موسرا فالنفقة عليه ولاشيء على المحجوب به لان الاقرب اولى بالميراث منه فيكون اولى بالانفاق وان كان الاقرب وكان من ينفق عليه من عمودى النسب وجبت نفقته على الموسر (١) .

حكم النفقة للاصول اذا تعددت الفروع واختلفت درجة القرابة :

ان تعددت الفروع واختلفت درجة قرابتهم كانت نفقة الاصل على الاقرب ، سواء أكان ذلك الاقرب وارثا ام غير وارث وسواء أكان ذكرا أم أنثى وسواء أكان متحدا معه فى الدين ام مخالفا له لان سبب وجوب النفقة الجزئية.ومتى وجد السبب ترتب عليه الحكم واذا قوى السبب بالقرب كان مرجحا عند التعدد

(١) يراجع : المغنى جـ٩ ص ٢٥٩ ، بدائع الصنائع جـ٥ ص ٢٢٣٨ .

واختلاف الدرجة.وينبني على ذلك انه اذا كان لمستحق النفقة بنت وابن ابن فإن نفقته تجب على البنت وحدها لقربها فى الدرجة وان كان ابن الابن وارثا مثلها.واذا كان له ابن غير مسلم وابن ابن مسلم كانت النفقة على الابن غير المسلم لقربه فى الدرجة وان كان ابن الابن هو الذى يرث واذا كانت له بنت بنت وبنت ابن ابن وجبت النفقة على بنت البنت لقربها وان كانت بنت ابن الابن هى التى تأخذ الميراث .

نفقة زوجة الاب

اذا كان للاب المستحق للنفقة زوجة فان كان محتاجا اليها ولايمكنه الاستغناء عنها لمرض او كبر سن وجبت نفقتها على الولد من غير خلاف عند الحنفية وان لم يكن محتاجا اليها فلا تجب نفقتها على الولد فى رواية وتجب نفقتها عليه فى رواية أخرى والاولى ارجح (١) وقال الظاهرية (٢) انه ليس على الولد ان ينفق على زوجة ابيه اذ لم يوجب ذلك قرآن ولا سنة انما عليه ان يقوم بمطعم ابيه وملبسه ومقوته وخدمته فقط .

حكم اعفاف الولد أباه

إختلف الفقهاء فى حكم الزام الابن اعفاف ابيه بأن يزوجه وينفق عليه فذهب الحنابلة والشافعية (٣) الى وجوب ذلك .

وقال ابو حنيفة (٤) لايلزم الرجل اعفاف ابيه سواء وجبت نفقته ام لم تجب لان ذلك من اعظم الملاذ فلم يجب للاب كالحلواء ولانه احد الابوين فلم تجب ذلك له كالام .

---

(١) البدائع جـ٥ ص ٢٢٣٤
(٢) المحلى لابن حزم جـ١٠ ص ١٠٨
(٣) يراجع : مغنى المحتاج جـ٤ ص٤٤٦ المغنى جـ٩ ص ٢٦٣
(٤) البدائع جـ٥ ص ٢٢٣٦

وللحنابلة « ان ذلك مما تدعو حاجته ويستضر بفقده فلزم ابنه له كالنفقة ولايشبه الحلواء لانه لايستضر بفقدها وانما يشبه الطعام والأدم واما الام فانما اعفافها بتزويجها اذا طلبت ذلك وخطبها كفؤها ونحن نقول بوجوب ذلك عليه وانتم موافقون لنا فيه » .

واذا ثبت هذا فانه يجب اعفاف من لزمت نفقته من الاباء والاجداد ، فان اجتمع جدان ولم يكن الا اعفاف احدهما قدم الاقرب الا ان يكون احدهما من جهة الاب والاخر من جهة الام فيقدم الذى من جهة الاب - وان بعد - لانه عصبته والشرع قد اعتبر جهته فى التوريث والتعصيب فكذلك فى الانفاق والاستحقاق .

المبحث السابع

الهبة

رَبَّنَا لَا تُزِغْ
قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾

«سورة آل عمران - آية ٨»

الهبة

الهبة شرعا

الهبة من عقود التبرعات المحضة أو التصرفات الضارة ضررا محضا ؛ وهى العقود التى يكون التمليك فيها من غير مقابل ، فان المتبرع لايطلب عوضا عما تبرع به .

والهبة شرعا هى التمليك لعين بلا عوض فى حال الحياة تطوعا (١) .

والهبة تقال لما يعم الهدية والصدقة ،ولما يقابلهما .

والأصل فيها على الأول قبل الإجماع : قوله تعالى :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ (٢)

وقوله ﷺ : « لاتُحَقِّرَنَّ جارة لجارتها ولو فرش شاة » . أى ظلفها (٣) .

وانعقد الإجماع على استحباب الهبة بجميع أنواعها ؛ لقوله تعالى

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۝ ﴾ (٤)

والهبة بر لأنها سبب من أسباب التواد والتحاب ، قال ﷺ :

« تهادوا تحابوا » (٥)

---

(١) مغنى المحتاج جـ ص : ٣٩٧ .

(٢) سورة النساء ـ آية ٤ .

(٣) يراجع : فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ٥ ص : ١٤٤ .

(٤) سورة المائدة ـ آية ٢ .

(٥) فتح البارى لابن حجر العسقلانى جـ٥ ص : ١٤٤

وقد تعرض لها أسباب تخرجها عن ذلك :

ومن هذه الأسباب : الهبة لأرباب الولايات والعمال ؛ فإنه يحرم عليهم قبول الهدية من أهل ولاياتهم ممن ليست له عادة بذلك قبل الولاية .

ومنها مالو كان المُتَّهِبُ يستعين بذلك على معصية .

وصرفها فى الأقارب والجيران أفضل من صرفها فى غيرهم ؛ لما فى الأول من صلة الرحم ، ولما روى فى الثانى من قوله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » . والصرف الى الأول أفضل (١) .

وبما أن الهبة تعد من التصرفات الضارة ضررا محضا فإنه لايصح قبولها من الصبى مطلقا ، سواء أكان مميزا أم غير مميز ، لأنه يشترط فى الواهب الأهلية الكاملة . كما أنه لايصح له ان يقبلها ، لأنه يشترط فى الموهوب له أن يكون فيه أهلية الملك لما يوهب له وذلك بالعقل والبلوغ .

وعلى هذا : فلو وهب الأب لابنه شيئا قام مقامه فى القبض والقبول فالطفل لايصح قبضه لنفسه ، ولا يصح قبوله ، لأنه ليس من أهل التصرف ووليه يقوم مقامه فى ذلك . فان كان له اب أمين فهو وليه ، لأنه اشفق عليه وأقرب له ، وان مات أبوه الأمين وله وصى فوليه وصيه ؛ لأن الاب أقامه مقام نفسه فجرى مجرى وكيله . وان كان الأب غير مأمون لفسق أو جنون ، أو مات عن غير وصى فوليه الحاكم وأمين الحاكم يقوم مقامه . وكذلك وكيل الأب والوصى فيقوم كل واحد منهما مقام الصبى فى القبول والقبض إن احتيج اليه ، لأن ذلك قبول لما للصبى فيه حظ فكان الى الولى (٢) .

وفى هذا يقول ابن المنذر : (٣) . « اجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن الرجل إذا وهب لولده الطفل دارا بعينها قبض له من نفسه وأشهد عليه ان الهبة تامة ؛ وهذا قول مالك والثورى والشافعى وأصحاب الرأى . ثم إن كان الموهوب مما يفتقر الى قبض كالمنقول ، اكتفى بقوله قد وهبت هذا لابنى وقبضته له

---

(١) مغنى المحتاج جـ٢ ص : ٣٩٦ وبراجع الفرق بين الهبة والهدية والصدقة فى الشرح الكبير جـ٦ ص : ٢٨٩ .

(٢) كشاف القناع جـ٣ ص : ٤٥٨ .

(٣) المغنى جـ٦ ص : ٢٦٠ .

لأن القبض يغني عن القبول . ولايغني قوله : قبلته ، لأن القبول لايغني عن القبض . وان كان لايفتقر الى قبول ـ كالعقار ـ اكتفى بقوله : قد وهبت هذا لابني ولايحتاج الى ذكر قبض ولاقبول .

قال ابن عبدالبر (١) : « أجمع الفقهاء على أن هبة الأب الصغير في حجره لايحتاج الى قبض ، وأن الاشهاد فيها يغني عن القبض ، وأن وليه أبوه : لما رواه مالك عن الزهري عن ابن المسيب أن عثمان قال : « من نحل ولدا له صغيرا لم يبلغ ان يحوز نحلة فأعلن ذلك وأشهد على نفسه فهي جائزة ، وان وليه أبوه » .

والدليل على ذلك مارواه البخاري عن حصين عن عامر قال : « سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول : « أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة : « لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فأتى رسول الله فقال : « إني اعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية ، فأمرتني أن أشهدك يارسول الله » قال : « أعطيت ولدك مثل هذا ؟ » قال : « لا » . قال : « فاتقوا الله واعدلوا بين اولادكم » . فرجع فرد عطيته » .

قال ابن حجر : « الحديث دليل على ان عطية الأب لابنه الصغير في حجره لاتحتاج الى قبض وأن الإشهاد فيها يغني عن القبض ، وأن الاشهاد في الهبة مشروع وليس بواجب » . (٢)

واشترط بعض الفقهاء في قبول الأب الهبة عن ولده أن يقول : « قد قبلته » لأن الهبة ـ عندهم ـ لاتصح الا بايجاب وقبول . ويرد عليهم بأن قرائن الأحوال ودلالتها تغني عن لفظ القبول . ولا أدل على القبول من كون القابل هو الواهب . فاعتبار لفظ لايفيد معنى من غير ورود الشرع به تحكم لامعنى له .

وأجاز الحنفية هبة الأب لابنه الصغير ، ويصير قابضا له مع العقد (٣)

---

(١) نفس المصدر .

(٢) فتح الباري جـ٥ ص : ١٥٩

(٣) البدائع جـ٨ ص : ٣٦٩٧ .

اشتراط التسوية بين الأولاد فى الهبة

إتفق جميع الفقهاء على ان التسوية بين الأولاد فى الهبة مشروعة ؛ لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١) .

ولما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر فى حديث النعمان بن بشير بالتسوية والعدل بقوله : « إعدلوا بين أبنائكم ، إعدلوا بين أبنائكم ، إعدلوا بين أبنائكم » (٢).

ثم اختلفوا فى وجوب ذلك وعدم وجوبه :

فذهب المالكية والشافعية وأصحاب الرأى الى استحباب ذلك دون وجوبه (٣) .

وذهب الحنابلة والظاهرية الى وجوب التسوية بين الأبناء فى العطية (٤) . وهو رأى طاووس ومجاهد والثورى واسحاق وداود .

قال الشافعية وموافقوهم : يُسَنُّ للوالد وان علا العدل فى عطية أولاده بأن يسوى بين الذكر والأنثى . فلو فضل بعضهم على بعض أو وهب لبعضهم دون بعض يكون مكروها وليس بحرام .

---

(١) سورة النساء ـ آية ٥٨ .

(٢) رواه أحمد وابو داود والنسائى (نيل الأوطار جـ٦ ص : ٨) .

(٣) براجع : مغنى المحتاج جـ٢ ص : ٤٠١ ، والبدائع جـ٨ ص : ٣٦٩٧ ، الشرح الصغير جـ٤ ص : ١٥١ .

(٤) يراجع : المغنى جـ٦ ص : ٢٧٠ . المحلى جـ٩ ص : ١٢٧

واستدلوا على رأيهم بما روى فى الصحيحين عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أنه قال : « وهبنى أبى هبة . فقالت أمى عمرة بنت رواحة : « لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ » فأتى رسول الله فقال : « ان ابنة فلان سألتنى أن انحل ابنها غلامى » . فقال : « له أخوة ؟ » . قال : « نعم » . قال : « فَكُلُّهُمْ أعطيت مثل ما أعطيته ؟ » . قال : « لا » . قال : « فليس يصلح هذا ، وانى لا أشهد إلا على حق » (١) .

قال الشوكانى : (٢) الحديث دليل على الندب إلى التأليف بين الأخوة وترك ما يوقع بينهم الشحناء ، أو يورث العقوق للآباء . وفى رواية : « فأَشْهِدْ على هذا غيرى » . قالوا : ولو كان حراما أو باطلا لما قال هذا الكلام . فإن قيل : قاله تهديدا قلنا : الأصل فى كلام الشارع غير هذا ، ويحتمل عند إطلاقه صيغة أَفْعِلْ على الوجوب أو الندب ، فإن تعذر ذلك فعلى الاباحة . وأما قوله ﷺ - فى رواية - « لا أشهد على جور » فليس فيه أنه حرام ، لأن الجور هو الميل عن الاستواء والاعتدال ، وكل ما خرج عن الاعتدال فهو جور سواء كان حراما أو مكروها .

قالوا : وقد وضح بما قدمناه أن قوله ﷺ : « أَشْهِدْ على هذا غيرى » يدل على أنه ليس بحرام فيجب تأويل الجور على انه مكروه كراهة تنزيه .

وفى هذا الحديث دليل - أيضا - على أن هبة بعض الأولاد دون بعض صحيحة وأنه إن لم يهب الباقين مثل هذا اسْتُحِبَّ رَدُّ الأول (٣) .

وأيضا فان الأمر فى رواية « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » محمول على الندب والاستحباب . والحكمة من هذا الأمر لئلا يفضى بهم الأمر الى العقوق والتحاسد ، ولأن الصديق رضى الله عنه فضل عائشة رضى الله عنها على غيرها من أولاده ، وفضل عمر رضى الله عنه ابنه عاصما بشىء . وفضل عبد الله بنُ

---

(١) رواه احمد ومسلم
(٢) نيل الأوطار جـ ٦ ص : ٨
(٣) صحيح مسلم جـ ١١ ص : ٦٥

عمرَ رضى الله عنهما بعض ولده على بعض .. ولأنها عطية تلزم بموت الأب فكانت جائزة كما لو سوى بينهم .

وذهب الحنابلة ومن معهم الى وجوب التسوية بين الأبناء فى العطية إذا لم يُختص أحدهم بمعنى يبيح التفضيل ، فإن خَصَّ بعضَهم أو فاضل بينهم فيها أَثِمَ ، ووجبت عليه التسوية بأحد أمرين : إما رد ما فضل به البعض ، أو إتمام نصيب الآخر .

واستدلوا على قولهم بما رواه النعمان بن بشير قال : « تصدق على أبى ببعض ماله . فقالت أمى عمرة بنت رواحة : « لا أرضى حتى تشهد عليها رسول الله ﷺ » . فجاء أبى رسول الله ليشهده على صدقته . فقال : « أَكَلَّ أولادك أعطيت مثله ؟ » . قال : « لا » . قال « فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » . قال : « فرجع أبى فَرَدَّ تلك الصدقة » . وهو حديث صحيح متفق عليه . والجور حرام ، والأمر يقتضى الوجوب ، لأن التفضيل لبعضهم يورث بينهم العداوة والبغضاء وقطيعة الرحم فمنع منه كتزوج المرأة على عمتها أو خالتها .

وقالوا : أما ما استدل به الشافعية ومن معهم من قول أبى بكر وغيره من الصحابة فلا يعارض قول النبى ﷺ ولا يُحتج به معه . ويحتمل أن أبا بكر رضى الله عنه خصَّها بعطيته لحاجتها وعجزها عن الكسب مع اختصاصها بفضلها وكونها زوج رسول الله ﷺ وغير ذلك من فضائلها . ويحتمل أن يكون نحلها ونحل غيرها من ولده أو نحلها وهو يريد أنْ ينحل غيرها فأدركه الموت قبل ذلك . ويتعين حمل حديثه على أحد هذه الوجوه ، لأن حمله على مثل محل النزاع منهىٌ عنه ، وأقل أحواله الكراهة . والظاهر من حال أبى بكر اجتناب المكروهات .

وقول النبى ﷺ : « فأشهد على هذا غيرى » ليس بأمر ، لأن أدنى أحوال الأمر الاستحباب والندب ، ولا خلاف فى كراهة هذا . وكيف يجوز أن يأمره بتأكيده مع أمره برده وتسميته إياه جورا . وحَمْلُ الحديث على هذا حملٌ لحديث النبى ﷺ على التناقض والتضاد . ولو أمر النبى ﷺ بإشهاد غيره امتثل بشير أمره ولم يرد ، وإنما هذا تهديد له على هذا فيفيد ما أفاده النهى عن إتمامه .

وهذا الرأى هو الأرجح والأقوى ؛ لما يترتب على التفضيل بين الأولاد من نشر روح التحاسد والتباغض والعقوق ؛ ولأنه يتفق مع ظواهر النصوص التى

جاءت بصيغة الأمر ، والأمر يفيد الوجوب ، والقرينة التى تصرفه الى الندب قرينة ضعيفة . وحسبنا فى ذلك ما وجد يوسف النبى عليه السلام من أخوته حينما شعروا بحب أبيهم له وتعاطفه معه وأخيه ، وما دبروه له من مكائد أدت إلى التفكير فى قتله والتخلص منه ليخلو لهم وجه أبيهم كما يصور ذلك القرآن الكريم :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ ﴾ (١) .

وأَحَبُّ : أفعل التفضيل ، فالقرآن يصور لنا تذمر الأخوة لأن أباهم آثر يوسف وأخاه ، وخصَّهما بدرجة أفضل فى الحب مع استوائهم جميعا فى الانتساب اليه ، فسيطر عليهم الشيطان ودفعهم حسدهم الى تدبير خطة للخلاص من يوسف لكى يخلص لهم أبوهم فيقبل عليهم ويحبهم حبا كاملا .

وفى توجيه حديث النعمان بن بشير وبيان دلالته على وجوب التسوية فى العطية بين الأولاد يقول ابن القيم (١) فى أعلام الموقعين مُمثلاً لموافقة السنة لما جاء فى القرآن وبيانها لما ورد مجملا :

« فَهلاَّ قلتم ان السنة بيان لمراد الله من القرآن ، تفصيلا لما أجمله وتبيينا لما سكت عنه ، وتفسيرا لما أبهمه . فإن الله سبحانه أمر بالعدل والاحسان والبر والتقوى ، ونهى عن الظلم والفواحش والعدوان والاثم ، وأباح لنا الطيبات ، وحرم علينا الخبائث . فكل ما جاءت به السنة فإنها تفصيل لهذا المأمور به والمنهى

---

(١) سورة يوسف ـ الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) اعلام الموقعين جـ٢ ص٣٢٩

عنه ، والذى أحل لنا والذى حرم علينا . وهذا يتبين بهذا المثال : وهو أن النبى ﷺ أمر فى حديث النعمان بن بشير أن يعدل بين الأولاد فى العطية فقال : « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » . وفى الحديث : « إنى لا أشهد على جور » ، فسماه جورا . وقال « إن هذا لايصلح » . وقال : « أشهد على هذا غيرى » تهديدا له ، والا فمن الذى يطيب قلبه من المسلمين أن يَشْهَدَ على ما حكم النبى ﷺ بأنه جور ، وانه لا يصلح ، وانه على خلاف تقوى الله ، وأنه خلاف العدل .

وهذا الحديث من تفاصيل العدل الذى أمر الله به فى كتابه ، وقامت به السماوات والأرض ، وأسسَتْ عليه الشريعة ، فهو أشد موافقة للقرآن من كل قياس على وجه الأرض ، وهو محكم الدلالة غَايَةَ الإحكام . فرد بالمتشابه من قوله : « كل أحد أحق بماله من ولده ووالده والناس أجمعين » . فكونه أحق به يقتضى جواز تصرفه فيه كما يشاء ، وبقياس متشابه على إعطاء الأجانب . ومن المعلوم بالضرورة أن هذا التشابه من العموم ، والقياس لايقاوم هذا المحكم المبين غاية البيان » .

وقال ابن قدامة فى المغنى (١) :

« والأم فى المنع من المفاضلة بين الأولاد كالأب ، لقول النبى ﷺ « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » ولأنها أحد الوالدين فمنعت التفضيل كالأب ، ولأن ما يحصل بتخصيص الأب بعضَ ولده من الحسد والعداوة يوجد مثله فى تخصيص الأم بعض ولدها فثبت لها مثل حكمه فى ذلك . »

وجَوَّزَ بعض العلماء التفاضل ان كان له سبب ؛ كأن يحتاج الولد لزمانته أو دَيْنِهِ أو نحو ذلك دون الباقين . وقال بعضهم : تجب التسوية إن قُصِدَ الإضرار(٢) .

وبينّ ابن قدامة أسباب التخصيص بقوله :

فان خص بعضهم لمعنى يقتضى تخصيصه ؛ مثل اختصاصه بحاجة أو زَمَانَةٍ أو عمى أو كثرة عائلة ، أو اشتغاله بالعلم أو نحوه من الفضائل ، أو صَرَفَ

---

(١) المغنى : جـ ٦ ص ٢٧٠ .

(٢) نيل الأوطار جـ ٦ ص ١٠ .

عطيته عن بعض ولده لفسقه ، أو بدعته ، أو لكونه يستعين بما يأخذه على معصية الله أو ينفقه فيها ، فقد رُوِيَ عن أحمد ما يدل على جواز ذلك لقوله فى تخصيص بعضهم بالوقف : لابأس به إذا كان لحاجة ، وأَكْرَهُهُ إذا كان على سبيل الأثرة والعطية فى معناه » (١) .

وقيل : الظاهر المنع من التفضيل والتخصيص على كل حال ؛ لكونه ﷺ لم يَسْتَفْصِلْ بشيرا فى عطيته . والأولى أَوْلَى لوجود المعنى الذى من أجله حصل التفضيل (٢)

وذكر ابن حجر فى فتح البارى أجوبة من حَمَلَ الأمر بالتسوية على الندب وتَعَقَّبَهاَ بالمناقشة والرد من وجوه :

الأول : أن الموهوب للنعمان كان جميعَ مالِ والده ، ولذلك منعه فليس فيه حجة على منع التفضيل . وتعقب : بأن كثيرا ممن طرق حديث النعمان صرح بالبعضية . وقال القرطبى : « ومن أبعد التأويلات أن النهى إنما يتناول من وهب جميع ماله لبعض ولده وكأنه لم يسمع فى نفس هذا الحديث أن الموهوب كان غلاما ، وأنه وهبه له لما سألته الأم الهبة من بعض ماله » . قال : وهذا نعلم منه على القطع أنه كان له مالٌ غيرُهُ .

الثانى : أن قوله : « أَرْجِعْهُ » دليل على الصحة ، ولو لم تصح الهبة لم يصح الرجوع ؛ وانما أمره بالرجوع لأن للوالد أن يرجع فيما وهبه لولده ، وان كان الافضل خلاف ذلك ، لكن استحباب التسوية رجح على ذلك فلذلك أمره به . وفى الاحتجاج بذلك نظر : والذى يظهر أن معنى قوله « أرجعه » أى لا تُمْضِى الهبةُ المذكورة . ولا يلزم من ذلك تقدمُ صحة الهبة .

الثالث : التمسك بقوله : « ألا سوَّيتَ بينهم » على أن المراد بالأمر الاستحباب ، وبالنهى التنزيه . وهذا جيد لولا ورود تلك الألفاظ الزائدة على هذه اللفظة ولا سيما أن تلك الرواية بعينها وردَت بصيغة الأمر أيضاً حيث قال : « سوُّوا بينهم » .

---

(١) المغنى جـ ٦ ص ٢٦٤ .
(٢) يراجع : فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٥٩ .

الرابع : فى التشبيه الواقع فى التسوية بينهم بالتسوية بينهم فى بر الوالدين (١) قرينة تدل على أن الأمر للندب . لكن إطلاق الجور على عدم التسوية والمفهوم من قوله « لا أشهد إلا على حق » وقد قال فى آخر الرواية التى وقع فيها التشبيه قال : « فَلَا إذاً » .

الخامس : عمل الخليفتين أبى بكر وعمر بعد النبى ﷺ على عدم التسوية قرينة ظاهرة فى أن الأمر للندب . فأما أبو بكر فرواه الموطأ بإسناد صحيح عن عائشة : أن أبا بكر قال لها فى مرض موته : « إنى كنت نحلتك نحلا ، فو كنت اخترتِهِ لكان لك ، وإنما هو اليوم للوارثِ » . وأما عمر فذكره الطحاوى وغيره أنه نحل ابنه عاصما دون سائر ولده . وقد أجاب عروة عن قصة عائشة بأن أخوتها كانوا راضين ذلك . ويجاب بمثل ذلك عن قصة عمر .

السادس : أن الإجماع انعقد على جواز عطية الرجل ماله لغير ولده ، فإذا جاز له أن يُخْرِجَ وَلَدَهُ من ماله جاز له أن يخرج عن ذلك بعضهم . دكره ابنُ عبدالبر . ولايَخفَى ضَعْفُهُ لأنه قياس مع وجود نص .

وحديث بشير قضيته فى عين لاعموم لها ، وترك النبى ﷺ الاستفصال يجوز أن يكون لعلمه بالحال . فان قيل : « لو علم بالحال لما قال : « ألك ولد غيره ؟ » . قلنا : « يحتمل أن يكون السؤال ههنا لبيان العلة » .

وإذا فاضل الأب بين ولده فى العطايا أوخص بعضهم بعطية ثم مات قبل أن يسترده ثبت ذلك للموهوب له ولزم ، وليس لبقية الورثة الرجوع . وهذا رأى مالك والشافعى وأصحاب الرأى والظاهر عند أحمد وأكثر أهل العلم . وذهب أحمد فى رواية أخرى إلى أن لسائر الورثة أن يرتجعوا ما وهبه ، وهو قول عروة بن الزبير وإسحاق ؛ ولأن النبى ﷺ سمى ذلك جورا بقوله : « لاتشهدنى على جور » والجور حرام لايحل للفاعل فعله ولاللمُعْطَى تناوُلُه ، والموت لايغيره عن كونه جورا حراما فيجب رده .

---

(١) وذلك ماروى عن مجاهد عن الشعبى عن أحمد « إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ، فلا تشهدنى على جور ، أيسرك أن يكونوا اليك فى البر سواء » قال : « بلى » . قال : « فلا إذاً » يراجع فتح البارى جـ ٥ ص ١٥٧ .

كيفية التسوية

لاخلاف بين أهل العلم فى استحباب التسوية ، وكراهة التفضيل . ولكنهم اختلفوا فى بيان كيفية التسوية :

ذهب بعض الفقهاء الى أن التسوية المستحبة أن يَقسِم بينهم على حسب قسمة الله تعالى فى الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين ، وبهذا قال عطاء وشُرَيْحٌ وإسحاق ومحمد بن الحسن .

وذهب الآخرون الى أن التسوية المستحبة أن تُعطَى الأنثى مثل الذكر وبهذا قال أبوحنيفة ومالك والشافعى .

استدل الاولون على رأيهم :

بأن الله تعالى قسم بينهم فى الميراث فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ؛ وأولى مانقتدى به هو قسمة الله تعالى . ولأن العطية فى الحياة أحد حالى العطية فيجعل للذكر منها مثل حظ الأنثيين كحالة الموت ؛ يعنى الميراث ؛ يحققه أن العطية استعجال لما يكون فينبغى على حسبه ، كما أن معجل الزكاة قبل وجوبها يؤديها على صفة أدائها بعد وجوبها وكذلك الكفارات المعجلة . ولأن الذكر أحوج من الأنثى من قِبَلِ أنهما تزوجا جميعا فالصداق والنفقة ونفقة الأولاد على الذكر ، فكان أولى بالتفضيل لزيادة حاجته . وقد قسم الله تعالى وهو خير الحاكمين الميراث فَفَضَّلَ الذكر مقرونا بهذا المعنى فتعلل به ، ويتعدى ذلك الى العطية فى الحياة .

واستدل الآخرون على قولهم بوجوب التسوية بين الذكر والأنثى بقوله ﷺ فى رواية مجاهد عن الشعبى عن أحمد : « إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم فلا تشهدنى على جور ، أيسرك أن يكونوا إليك فى البر سواء ؟ » قال : « بلى » . قال « فلا إذاً » .

وفى رواية المغيرة عن الشعبى عند مسلم : « اعدلوا بين أولادكم فى النحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم فى البر» (١) .

---

(١) فتح البارى جـ٥ صـ١٥٧ ، صحيح مسلم جـ١١ ص٦٥ .

واختلاف الألفاظ فى هذه القصة الواحدة يرجع إلى معنى واحد . وهو وجوب التسوية ، ولأن البنت كالإبن فى استحقاق برها وكذلك فى عطيتها .

وعن ابن عباس قال : « قال رسول الله ﷺ : « سووا بين أولادكم فى العطية ؛ ولو كنت مؤثرا لآثرت النساء على الرجال » (١) .

ولأنها عطية فى الحياة فاستوى فيها الذكر والأنثى كالنفقة والكسوة وأجابوا على أدلة الأولين الذين قاسوا العطية على الميراث فى الحكم وهو تفضيل الذكر على الأنثى بأن الوارث رَضِيَ بما فرض الله بخلاف العطية ؛ بل إن الأَوْلَى أن تفضل فى العطية ، ولأن الذكر والأنثى انما يختلفان فى الميراث بالعصوبة . فأما إذا كان بالرحم فهما سواء كالأخوة والاخوات من الأم (٢) وهذا ما نرجحه ونميل اليه لما يلى :

أولا : لعموم قوله ﷺ : « إعدلوا بين أولادكم فى النحل » لأنه أمر والأمر يفيد الوجوب .

ثانيا : لأن فى التسوية بينهم تأليفا للقلوب ، والتفضيل يورث الوحشة بينهم ، فكانت التسوية أولى .

ثالثا : لأن العطية تفارق الميراث فى المعنى فلا تقاس عليه . فالهبة مبنية على التطوع والاختيار . أما الميراث فمبنى على الوجوب . والله أعلم .

حكم رجوع الأب فى هبته لولده .

ذهب جمهور الفقهاء الى القول بتحريم الرجوع فى الهبة بعد أن تقبض : وذلك بالنسبة للأجنبى . واستدلوا على ذلك بما رواه ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « العائد فى هبته كالعائد فى قيئه » (٣) وزاد أحمد والبخارى قوله : « ليس لنا مَثَلُ السوء » .

---

(١) فتح البارى جـ ٥ ص ١٥٧

(٢) يراجع حكم هذه المسألة فى كل من :
١ - البدائع ج ٦ ص ٣٦٩٧.
٢ - المغنى جـ ٦ ص ٢٦٢ وما بعدها .
٣ - مغنى المحتاج جـ ٦ ص ٤٠١ .
٤ - نيل الأوطار جـ ٦ صـ ٨ ومابعدها .
٥ - صحيح مسلم جـ ١١ ص ٦٥ .

(٣) متفق عليه .

وعن طاووس أن ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما رفعاه الى النبى ﷺ فقال : « لايحل للرجل أن يعطى العطية فيرجع فيها الا الوالد فيما يعطى ولده ، ومَثَلُ الرجل يعطى العطية ثم يرجع فيها كَمَثَلِ الكلب أكل حتى شبع قاء ثم رجع فى قَيْئِهِ » (١) .

وهذا ظاهر فى تحريم الرجوع فى الهبة والصدقة بعد إقباضهما ، وهو محمول على هبة الأجنبى .

وقوله ﷺ فى رواية البخارى : « ليس لنا مَثَلُ السوء » أى لاينبغى لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخسُّ الحيوانات فى أخسِّ أحوالها . قال الله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٢) .

ولعل هذا ابلغ فى الزجر عن ذلك وأدل على التحريم مما لو قال مثلا : لاتعودوا فى الهبة . (٣) .

أما إذا وهب الوالد شيئا لولده وأراد الرجوع فيه ، فقد اختلفت آراء الفقهاء فى حكم هذه المسألة :

فذهب جمهور الفقهاء إلى جواز الرجوع ، وهو رأى المالكية والشافعية والمشهور عن أحمد ، والاوزاعى واسحاق وأبى ثور وابن حزم ؛ وذلك إذا توافرت الشروط المعتبرة فى الرجوع .

وذهب الحنفية ورواية لأحمد إلى أنه ليس للأب الرجوع فيما وهبه ، وبه قال الثورى والعنبرى (٤) .

---

(١) رواه الخمسة وصححه الترمذى : يراجع نيل الأوطار جـ ٦ ص١٢ .
(٢) سورة النحل ـ آية ٦٠ .
(٣) يراجع : فتح البارى جـ ٥ ص ١٧٣ .
(٤) بداية المجتهد جـ ٢ ص ٣٣٢ ، المحلى لابن حزم جـ ٩ ص ١٢٧ .

آراء الفقهاء القائلين بجواز الرجوع :

قال المالكية (١) : يجوز للأب فقط ـ لا الجد ـ اعتصارُها أخذها من ولده قهرا عنه بلا عوض مطلقا ، ذكرا أو أنثى ، صغيرا أو كبيرا ، سفيها أو رشيدا ، حازها الولد أَوْلاَ .

وفى المدونة (٢) : « قال : أرأيت إن وهب لهم الأب وهم صغار فبلغوا رجالا ولم يبلغوا دَيْناً ، ولم ينكحوا فأراد الأب أن يعتصر هبته ، أيجوز ذلك فى قول مالك ؟ قال : قال مالك فى الرجل يهب لولده الكبار هبة ثم يريد أن يعتصرها ان ذلك له مالم يستحدثوا دَيْناً أو ينكحوا ، فكذلك إذا وهب لهم وهم صغار ثم بلغوا فله أن يعتصر هبته مالم يحدثوا دينا أو ينكحوا ، أو تتغير عن حالها » . والمقصود بقوله مالم يستحدثوا دينا . . الخ أى مالم يترتب عليه حقٌّ الغير وهو المعبَّرُ عنه بموانع الرجوع .

وقال الشافعية (٣) : للأب الرجوع على التراخى فى هبة ولده الشاملة للهدية والصدقة ، وكذا لبعضها كما فهم بالأولى من دون حكم حاكم ، وكذا لسائر الأصول من الجهتين ولو مع اختلاف الدين على المشهور ، سواء أقبضها الولد أو لا ، غنيا كان أو فقيرا ، صغيرا أو كبيرا .

وعندهم الوالد يشكل كل الأصول إن حُمِلَ اللفظ على حقيقته ومجازه . والا ألحق به بقية الأصول بِجَامِعِ أن لكُلٍّ ولادة كما فى النفقة وحصول العتق وسقوط القَوْدِ .

وعندهم رأى ثان : وهو أنه لارجوع لغير الاب من الأصول ، مستدلين بقوله ﷺ : « لايحل لرجل أن يعطى عطية أويهب هبة فيرجع فيها الا الوالد فيما يعطى ولده » (٤) . فالحديث قَصر الوالد على الأب ، وحملا للفظ على حقيقته . والرأى الأول أعم . وقالوا : يكره للوالد أن يرجع فى هبته لأولاده إن عدل بينهم إلا لمصلحة كأن يستعينوا بما أعطاه لهم على معصية وأصروا عليها بعد إنذاره لهم بالرجوع فلا يكره (٥) .

---

(١) الشرح الصغير جـ ٤ ص ١٥١ .
(٢) المدونة جـ ١٥ مجلد ٦ ص ١٣٥ .
(٣) مغنى المحتاج جـ ٢ ص ٤٠١ .
(٤) رواه الترمذى والحاكم وقال : حديث حسن صحيح .
(٥) مغنى المحتاج جـ ٢ ص : ٤٠١ .

وقال الحنابلة فى المشهور عنهم (١) : للأب الرجوع فيما وهب لولده ، سواء قصد برجوعه التسوية بين الأولاد أم لم يرد » .

وقال الظاهرية (٢) : « من وهب هبة صحيحة لم يجز له الرجوع فيها أصلا مذ يلفظ بها ، الا الوالد والأم فيما أعطيا أو أحدهما لولدهما ، فلهما الرجوع فيه أبدا ، الصغير والكبير سواء بسواء ، تزوج الولد أو الإبنة على تلك العطية أو لم يتزوجا ، داينا عليها أولم يداينا » .

آراء القائلين بعدم صحة الرجوع

قال الحنفية (٣) : لو وهب الأب لذى رحم محرم منه نسبا ـ ولو ذميا أو مستأمنا ـ لايرجع . ولو وهب لمحرم بلا رحم كأخيه رضاعا ، ولمحرم بالمصاهرة رجع .

وقال القاضي فى الرواية الثانية عن أحمد : « الرجوع فى الهبة ليس من محاسن الأخلاق ، والشارع عليه الصلاة والسلام إنما بعث ليتمم محاسن الأخلاق » (٤) .

سبب الاختلاف فى المسألة

أرجع ابن رشد سبب الخلاف فى هذا الباب إلى تعارض الآثار ؛ حيث احتج المانعون ـ مطلقا ـ بالعموم الوارد فى حديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « العائد فى هبته كالعائد يعود فى قيئه » (٥) ، وبما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « من وهب هبة يرى أنه أراد بها صلة رحم ، أو على وجه الصدقة فإنه لايرجع فيها . ومن وهب هبة أراد بها الثواب فهو على هبته يرجع فيها إذا لم يرض منها » (٦) .

---

(١) المغنى جـ ٦ ص : ٢٧٠ .
(٢) المحلى جـ ٩ ص ١٢٧ .
(٣) رد المحتار على الدر المختار ـ لابن عابدين جـ ٤ ص ٥١٨ .
(٤) انظر المغنى لابن قدامة جـ ٦ ص ٢٧٠ ومابعدها .
(٥) متفق عليه .
(٦) رواه مالك فى الموطأ .

واحتج من استثنى الأبوين بحديث طاووس أن ابن عمر وابن عباس رفعاه الى النبى ﷺ قال : « لايحل للرجل أن يعطى العطية فيرجع فيها الا الوالد فيما يعطى ولده ، ومثل الرجل يعطى العطية ثم يرجع فيها كمثل الكلب أكل حتى إذا شبع قاء ثم رجع فى قيئه » (١) .

فقوله : « إلا الوالد فيما يعطى لولده » إسْتُدِلّ به على أن للأب أن يرجع فيما وهب لابنه . قال الطبرى « يُخصّ من عموم هذا الحديث (حديث ابن عباس) من وهب بشرط الثواب ، ومَن كان والدا والموهوب له ولده ، والهبة التى لم تقبض ، والتى ردها الميراث الى الواهب ؛ لثبوت الأخبار باستثناء كل ذلك . وأما ماعدا ذلك كالغنى يثيب الفقير ونحو من يصل رحمه فلا رجوع » . (٢)

الأدلة

استدل من قال بعدم الرجوع مطلقا بما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « من وهب هبة يرى أنه اراد بها صلة رحم ، أو على وجه الصدقة فانه لايرجع فيها ، ومن وهب هبة أراد بها الثواب فهو على هبته يرجع فيها اذا لم يرض منها » (٣) .

والحديث يفيد بعمومه عدم صحة الرجوع فى الهبة مطلقا ، ولأنها هبة يحصل بها الأجر من الله تعالى فلم يجز الرجوع فيها كصدقة التطوع .

واستدل من قال بجواز الرجوع بالألفاظ التى وردت فى حديث النعمان بن بشير من قوله ﷺ : « فاردده » وقوله : « فارجعه » وهى تدل على الأمر بالرجوع فى الهبة ، وأقل أحوال الأمر الجواز . وقد امتثل بشير بن سعد فى ذلك فرجع فى هبته لولده . ألا تراه قال فى الحديث : « فرجع أبى فرد تلك الصدقة » . وحمل الحديث على انه لم يكن اعطاه شيئا يخالف ظاهر الحديث لقوله « تصدق علىّ أبى

---

(١) رواه الخمسة وصححه الترمذى .. يراجع نيل الأوطار جـ٦ ص١٢ .

(٢) الهبة منها ماهى هبة عين ، ومنها ماهى هبة منفعة . وهبة العين منها مايقصد بها الثواب ، ومنها مالايقصد بها الثواب ، والتى يقصد بها الثواب منها مايقصد بها وجه الله ومنها مايقصد بها وجه المخلوق .. بداية المجتهد جـ٢ ص٣٣٠ .

(٣) رواه مالك فى الموطأ .

بصدقة » وقول بشير » « إنى نحلت ابنى غلاما » يدل على أنه أعطاه . وقول النبى ﷺ « فاردده » وقوله : « فارجعه » : وروى طاووس عن ابن عمر وابن عباس يرفعان الحديث الى النبى أنه قال : « ليس لأحد أن يعطى عطية فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطى ولده » وهذا يخصص عموم ماروه ويفسره . وقياسهم على هبة الأجنبى منقوض ، لأنه الهبة الى الأجنبى فيها أجر وثواب فإن النبى ﷺ ندب اليها (١) .

حكم رجوع الام فيما وهبته لولدها :

تقاربت آراء الفقهاء فى حكم رجوع الأم فيما وهبته لولدها فذهب بعضهم الى جواز رجوعها كالأب وهم الشافعية والمشهور عند الحنابلة ، وذهب البعض الآخر الى التفريق فى الحكم بين الأب والأم وهم المالكية .

قال الشافعية والحنابلة : « الأم كالأب فى جواز الرجوع فى الهبة لأنها داخلة فى قوله « إلا الوالد فيما يعطى ولده » ؛ ولأنها لما دخلت فى قول النبى ﷺ : « سووا بين اولادكم » ينبغى ان تتمكن من التسوية ؛ والرجوع فى الهبة طريق التسوية ؛ ولأنها لما دخلت فى المعنى فى حديث بشير بن سعد فينبغى ان تدخل فى جميع مدلوله لقوله : « فاردده » ، وقوله : « فارجعه » ؛ ولأنها لما ساوت الأب فى تحريم تفضيل بعض ولدها ينبغى ان تساويه فى التمكن من الرجوع فيما فضلته به تخليصا لها من الإثم وازالة للتفضيل المحرم كالأب » (٢) .

والمنصوص عن أحمد أنه ليس لها الرجوع . قال الأثرم : « قلت لأبى عبدالله : « الرجوع للمرأة فيما أعطته ولدها كالرجل ؟ » قال : « ليس هى عندى فى هذا كالرجل لأن للأب ان يأخذ من مال ولده والأم لاتأخذ » ، وذكر حديث عائشة : « أطيب مايأكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه » (٣) .

---

(١) انظر المغنى جـ٦ ص٢٧٠ ومابعدها ، أعلام الموقعين جـ٢ ص٣٣٣ .
(٢) يراجع : المغنى جـ٦ ص٢٧٢ ، مغنى المحتاج جـ٢ ص٤٢ .
(٣) المغنى جـ٦ ص٢٧٢ .

ورد الشوكانى على أصحاب هذه الرواية بقوله : « إن هذا الحديث حجة عليهم لأنه خص الوالد ، وهو بإطلاقه إنما يتناول الأب دون الأم . والفرق بينهما ان للأب ولاية على ولده ويحوز جميع المال فى الميراث ؛ والأم بخلافه » (١) .

أما المالكية (٢) ففرقوا بين الأب والأم فقالوا : « للأم ان ترجع اذا كان الأب حيا دون ما اذا مات ، والأم يجوز لها الاعتصار كما يعتصر الأب مالم يستحدثوا دينا لو ينكحوا . ومحل كونها لها الاعتصار من ذى الأب مالم يتيتم بعد الهبة ، فإن تَيَتَّمَ فليس الاعتصار منه ، لأن يتمه مُفَوِّتٌ للاعتصار على المذهب فالحاصل ان الأم لها اعتصار ماوهبته لولدها غير اليتيم لا مَنْ تَيَتَّمَ ولو بعد الهبة ولايجوز لها الاعتصار اذا وهبت للولد هبة وأريد بها الثواب لامجرد ذات الولد لأنها صارت حينئذ كالصدقة ، وكذا إذا اريد بها الصلة والحنان فتمنع الأم من الاعتصار (٣) » .

وذهب المؤيد بالله وأبوطالب والامام يحيى الى أنه لايجوز للأم الرجوع لأن رجوع الأب مخالف للقياس فلايقاس عليه (٤) .

موانع الرجوع فى الهبة

بيَّنَّا آراء الفقهاء فى حكم رجوع الأب والأم فيما وهباه لولدهما ؛ ومنهم المجوزون ، ومنهم المانعون ولقد اشترط المجوزون للرجوع شروطا لجواز الرجوع وهى :

أولا : أن تكون الهبة باقية فى ملك الابن ، فإن خرجت عن ملكه ببيع أو هبةٍ أو وقفٍ أو إرثٍ أو غير ذلك لم يكن له الرجوع فيها ؛ لأنه إبطالٌ لملكِ غير الولد وان عادت اليه بسبب جديد كبيع ، أو هبة ، أو وصية أو إرث لم يملك

---

(١) يراجع نيل الأوطار للشوكانى جـ٦ ص١٢ .
(٢) الشرح الصغير جـ٤ ص١٥١ ، المدونة جـ١٥ مجلد٦ ص١٣٥ .
(٣) هبة الثواب : اشتراط الواهب الثواب على هبته اى العوض عليها سواء عين الثواب ام لا ويجوز ذلك ، الشرح الصغير جـ٤ ص١٥٣ .
(٤) نيل الأوطار : جـ٦ ص١٤ نقلا عن البحر الزخار .

الرجوع فيها لأنها عادت بملك جديد لم يستفده من قِبلِ أبيه فلايملك فسخه وازالته .

ثانيا : أن تكون العين باقية فى تصرف الولد بحيث يملك التصرف فى رقبتها . فإن رهن العين و أفلس وحُجِرَ عليه لم يملك الأب الرجوع فيها ؛ لأن ذلك ابطال لحق غير الولد فان زال المانع من التصرف فله الرجوع ؛ لأن ملك الابن لم يَزُلْ ، وانما طرأ معنىً قطع التصرف مع بقاء المِلْكِ فمنع الرجوع ، فإذا زال المانع زال المنع .

ثالثا : ألا تتعلق بها رغبةٌ لغير الولد ، فان تعلقت بها رغبة لغيره مثل أن يهب ولده شيئا فيرغب الناس فى معاملته ، وأدانوه ديونا أو رغبوا فى مناكحته فزوجوه ان كان ذكرا أو تزوجت الأنثى لذلك فلايصح الرجوع ؛ لأنه تعلق به حق غير الابن ففى الرجوع ابطال حقه . وقد قال عليه السلام (لاضرر ولاضرار) . وقيل : له الرجوع لعموم الخبر الوارد فى الرجوع وهو قول رسول الله ﷺ : « فارجعه » ، « فاردده » . ولأن حق المتزوج والغريم لم يتعلق بعين هذا المال فلم يمنع الرجوع فيه .

رابعا : الا تزيد زيادة متصلة كالسِّمَنِ والكِبَرِ وتعلُّمِ صنعة فان زادت فعلى رأيين :

أحدهما : لايمنع الرجوع ؛ وهو مذهب الشافعى ورواية لأحمد ؛ لأنها زيادة فى الموهوب فلم تمنع الرجوع كالزيادة قبل القبض والزيادة المنفصلة .

والثاني : يمنع ؛ وهو مذهب الحنفية ورواية لأحمد ؛ لأن الزيادة للموهوب له لكونها نماء ملكه ولم تنتقل اليه من جهة ابيه فلم يملك الرجوع فيها كالمنفصلة ، واذا امتنع الرجوع فيها امتنع الرجوع فى الأصل لئلا يفضى الى سوء المشاركة وضرر التشقيص . وعلى ذلك فلا فرق بين الزيادة فى العين كالسمن والطول ونحوهما ، او فى المعانى كتعلم الصناعة والكتابة أو القرآن ، أو قضاء دين عنه ، وأما الزيادة المنفصلة كولد البهيمة وثمرة الشجرة فلايمنع بغير خلاف نعلمه .

خامسا : مرض الولد الموهوب له ؛ فيمنع الرجوع لتعلق حق الورثة بالهبة ، إلا ان يزول المرض فله الاعتصار .

سادسا : موت أحد العاقدين بعد التسليم ، فلو مات بَطُلَ .

سابعا : لايصح الرجوع إذا جُنَّ الأب ؛ فيمتنع الرجوع حال جنونه ، ولارجوع لوليه بل اذا افاق كان له الرجوع .

ثامنا : إذا أحرم الواهب ، والموهوب صيد ، فإنه لايرجع فى الحال لأنه لايجوز إثبات يده على الصيد فى حال الإحرام .

تاسعا : إذا ارتد الوالد ، فلو حَلَّ من إحرامه ، أو عاد إلى الإسلام والموهوب باق على ملك الولد رجع . ولو وهب لولده شيئا ووهبه الولد لولده لم يرجع الأول .

ألفاظ الرجوع

وألفاظ الرجوع منها ماهو صريح كقوله : قد رجعت فيها ، أو ارتجعتها أو رددتها ومنها ماهو كناية فتحتاج الي نية كقوله : اخذته ، او قبضته . ولايحتاج الرجوع الى حكم حاكم ، وبهذا قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : لايصح الرجوع إلا بقضاء قاض ، لأن ملك الموهوب له مستقر . وللشافعى : أنه خيار فى فسخ عقد فلم يفتقر الى قضاء كالفسخ بخيار الشرط ولايحصل الرجوع ببيعه ولاوقفه ، ولاهبته لكمال مِلكِ الولد ونفوذ تصرفه فلا يؤثر فيه (١) .

---

(١) تراجع شروط الرجوع فى كل من :
١ - رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين .
٢ - مغنى المحتاج جـ٢ ص٤٢ .
١ - المغنى لابن قدامة جـ٦ ص٢٧٢ .
٤ - الشرح الصغير جـ٤ ص١٥١ .
٥ - المدونة الكبرى جـ١٥ مجلد ٦ ص١٣٥ .
٦ - المحلى لابن حزم جـ٩ ص١٢٧ .

المبحث الثامن

الشهادة

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ
وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ ﴿٢٨٢﴾﴾

« سورة البقرة ـ آية ٢٨٢ »

الشهادة

تعريف الشهادة

الشهادة لغة : من المشاهدة ، لأن الشاهد يخبر عما شاهده .

وشرعاً

هى الإخبار بما علمه . وقال بعضهم : بلفظ أشهد ، أو شهدت . والفاعل شاهد وشهيد ، والجمع شهود وشهداء وشاهدون .

وقال ابن القيم : « الإخبار شهادة محضة فى أصح الأقوال ، وهو قول الجمهور ، فإنه لايشترط فى صحة الشهادة لفظ : أشهد ، بل متى قال الشاهد رأيت كذا وكذا ، أو سمعت كذا ونحو ذلك كانت شهادة منه . وليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ موضع واحد يدل على اشتراط لفظ الشهادة ، ولا عن رجل واحد من الصحابة ، ولا قياس ، ولا استنباط يقتضيه ، بل الأدلة المتضافرة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة تنفى ذلك »(١) .

والشهادة سبب موجب للحق ، وحيث امتنع أداؤها امتنعت كتابتها ويحرم كتمانها ويقدح فيه . ولو كان بيد إنسان شىء لايستحقه ولا يصل إلى مستحقه إلا بالشهادة لزمه أداؤها وتعين . ولو كان الشهود أكثر من نصاب الشهادة وطُلِبَ أحدهم وجب عليه أداؤها فى أصح قولى العلماء . وأما إذا كان المطلوب لايتم نصاب الشهادة إلا به فقد تعيَّنت عليه إجماعا .

---

(١) الاحكام شرح اصول الاحكام ج٤ ص : ٢٧٤ . .

والأصل فى الشهادة الكتاب ، والسنة ، والإجماع .

أما الكتاب

فقوله تعالى : ﴿ ولا يأب الشهداء إذا مادعوا ﴾(١) أى للتحمل فعليهم الإجابة .

وقوله : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾(٢) أى أشهدوا على حقكم سواء كان فيه أجل أو لم يكن . والجمهور على أنه ـ الأمر ـ للندب والإرشاد لا على الوجوب .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾(٣)

أى إذا دُعيتم إلى اقامتها فلا تخفوها ولاتغلوها ، بل أظهروها .قال ابن عباس : « شهادة الزور من أكبر الكبائر ، وكتمان الشهادة كذلك ، وفى الآية وعيد شديد لكاتم الشهادة(٤) » .

وأما السنة :

فقوله ﷺ فى نحلة بشير لابنه النعمان : (لاتُشهدنى على جور) . وأجمعت الأمة على تعين أدائها وحرمان كتمانها .

وتقوم الشهادة على ثلاثة أركان :

الأول : العدالة .

الثانى : نفى التهمة وان كان عدلا ، أو انتفاء الموانع . ومن الموانع البعضية أو قرابة الولادة .

الثالث : التيقظ والحفظ وقلة الغفلة .

(١ ، ٢) سورة البقرة ـ اية ٢٨٢ .

(٣) سورة البقرة ـ اية ٢٨٣ .

(٤) الاحكام شرح اصول الاحكام جـ٤ ص : ٢٧٤ .

أما العدالة : فأصلها الايمان واجتناب الكبائر ، ومراعاة حقوق الله عز وجل فى الواجبات والمسنونات ، وصدق اللهجة والأمانة ، وألا يكون محدودا فى قذف .

وأما نفى التهمة : فألا يكون المشهود له والدا ولا ولدا ، أو زوجا وزوجة .

وأما التيقظ والحفظ وقلة الغفلة ، فألا يكون غفولا غير مجربِ الأمورَ فإنّ مثله ربما لُقِّنَ الشيء فتلقنه وربما جُوِّزَ عليه التزوير فشهد به (١) .

والذى يهمنا هنا هو الركن الثانى : وهو نفى التهمة عن الشهادة وان كان الشاهد عدلا ، فذهب أكثر الفقهاء الى اشتراطها وذهب البعض منهم الى عدم اشتراطها على النحو المبين فيما يلى :

آراء الفُقَهاء فى حكم شَهادة الأصُول للفروع والعكس

يقول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ (٣) .

(١) تفسير الجصاص ج١ ص: ٥٠٣
(٢) سورة النساء ـ آية ١٣٥ .
(٣) سورة المائدة ـ آية ٨ .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يكونوا قوامين بالعدل فلا يعدلوا عنه يمينا ولا شمالا ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ولايصرفهم عنه صارف ، وأن يؤدوا الشهادة ابتغاء وجه الله ولو كان ذلك على أنفسهم . وشهادة المرء على نفسه إقراره بالحقوق عليها أو الوالدين والأقربين فلا ينبغى مراعاتهم فيها ، بل تجب الشهادة بالحق . ولا يتنافى ذلك مع وجوب برهما وعظم قدرهما . وانما خص الله الوالدين والأقربين بهذا الحكم لأنهم مَظَنَّةُ المودة والتعصب ولاحتمال أن يؤثر ذلك فى صحة الشهادة واقامتها . ولذلك ختم الله الآية بقوله : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ ، أى فلا يَحْمِلَنَّكُم الهوى والعصبيةّ ويغض الناس إليكم إلى ترك العدل فى أموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أى حال كان كما قال تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (١) وقال النبى ﷺ : « خير الشهداء الذى يأتى بالشهادة قبل أن يُسْأَلَهَا »(٢) .

وذكر القرطبى(٣) فى أحكامه تفسير الآية فقال :

« لا خلاف بين أهل العلم فى صحة أحكام هذه الآية ، وأن شهادة الولد على الوالدين ماضية . ولا يمنع ذلك بِرُّهُماَ ، بل من برهما أن يشهد عليهما أو يخلصهما من الباطل وهو معنى قوله تعالى :

﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ⁽٦⁾ ﴾(٤) .

فإن شهد لهما أو شهدا له فقد اختلف فيها قديما وحديثا . فقال ابن شهاب الزهرى : « كان من مضى من السلف الصالح يجيزون شهادة الوالدين والأخ . ويتأولون فى ذلك قول الله تعالى : ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ﴾ فلم يكن أحد يُتَّهَمُ فى ذلك من السلف الصالح رضوان الله عليهم . ثم ظهرت

---

(١) سورة المائدة ـ آية ٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص : ٥٦٥ .
(٣) القرطبى مجلد ٣ص : ١٩٨٠ .
(٤) سورة التحريم ـ اية ٦ .

من الناس أمور حملت الولاة على اتهامهم فتركت شهادة من يتهم وصار ذلك لا يجوز فى الولد والأخ والزوج والزوجة » .

ومن هنا اختلف الفقهاء فى حكم شهادة الفروع للأصول ، والأصول للفروع : فذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والشافعية . والمالكية ، والمشهور عن الحنابلة الى أنه لا تجوز شهادة الوالدين وان علوا للولد وان سفل ، ولا شهادة الولد وان سفل لهما وان علوا لشبهة التهمة بسبب ما بينهما من العصبية والنفع والمودة بينهم . ويروى عن الظاهرية وعثمان البتى أنه تجوز شهادة الولد لوالديه ، وشهادة الأب لابنه وامرأته ، إذا كانوا عدولا مهذبين معروفين بالفضل ولعموم الآيات الواردة فى الشهادة (١) وأجاز قوم شهادة بعضهم لبعض إذا كانوا عدولا . وهو مروى عن عمر بن الخطاب (٢) وروى عن عمر بن عبدالعزيز ويه قال اسحاق والثورى والمزنى .

وقال فقهاء الحنيفة : « من شروط قبول الشهادة أن لا يجر الشاهد الى نفسه مغنما ولا يدفع عن نفسه مغرما بشهادته لقوله ﷺ « لا شهادة لجَارٍّ المغنم ولا لدافع المغرم » (٣) ولأن شهادته إذا تضمنت معنى النفع والدفع فقد صار متهما ، ولا شهادة للمتهم على لسان رسول الله ﷺ ، ولأنه اذا جر النفع الى نفسه بشهادته لم تقع شهادته لله تعالى بل لنفسه فلا تقبل . وعلى هذا تخرج شهادة الوالد وان علا لولده وان سفل وعكسه ، إنها غير مقبولة لأن الوالدين والمولودين ينتفع البعض بمال البعض عادة فيتحقق معنى جر النفع والتهمة والشهادة لنفسه فلا تقبل ، أما شهادة الوالد من الرضاع لولده من الرضاع والعكس فانها تقبل لأن العادة ما جرت بانتفاع هؤلاء بعضهم بمال البعض فكانوا كالأجانب » .

وقال الشافعية : (٤) « مما يمنع الشهادة البعضية ، فلا تقبل لأصل للشاهد وان علا ، ولا فرع له وان سفل ، كشهادته لنفسه لأنه جزء منه ، أما شهادة أحدهما على الآخر فتقبل سواء أكان فى عقوبة أم لا لانتفاء التهمة . ويستثنى من ذلك ما إذا كان بينه وبين أصله أو فرعه عداوة فإن شهادته لا تقبل له ولا عليه .

---

(١) يراجع : المغنى والشرح الكبير جـ ١٢ ص : ٦٤ وما بعدها .
(٢) البدائع جـ ٩ ص : ٤٠٣٧ .
(٣) يراجع : نصب الراية لأحاديث الهداية جـ ٤ ص : ٨٢ .
(٤) مغنى المحتاج جـ ٤ ص : ٤٣٤ .

وكذا تقبل من فرعين على أبيهما بطلاق ضرة أمهما أو قذفها فى الأظهر لضعف تهمة نفع أمهما بذلك لأنه متى أراد طلقها أو نكح عليها مع إمساكها والثانى : المنع فإنها تجر نفعا الى الأم وهو انفرادها بالأب . واذا شهد بحق لفرع أوأصل له وأجنبى ، كأن شهد برقيق لهما كقوله : هو لأبى وفلان ، أو عكسه قبلت تلك الشهادة للأجنبى فى الأظهر من قولى تفريق الصفقة . والثانى : لا تفرق فلا تقبل له » .

وقال المالكية : (١) .

« لاتجوز شهادة الأب وإن علا لولده وان سفل ، كان جدا من قبل الأب أو الأم ولا شهادة بنى بنيهم لهم . وقالوا : ولا تجوز شهادة الأبوين أو أحدهما للولد ولا الولد لهما ولا أحد الزوجين لصاحبه ولا الجد لابن ابنه ، ولا الرجل لجده ، ولا يجوز لأحد من هؤلاء شهادة الآخر فى حق أو تزكية أو تجريح من شهد عليه . ولا تجوز شهادة الرجل لزوجة أبيه ولا لزوجة ابنه ولا لابن زوجته ولا لأبيها . وتجوز شهادة الأب عند ابنه ، والأبن عنده وشهادة كل منهما على شهادة صاحبه ، وشهادة كل منهما على حكم صاحبه وشهادة كل منهما مع صاحب واحد : وهو قول سحنون ومطرف . وقيل ذلك غير جائز وهو قول أصبغ » .

وقال الحنابلة : (٢) .

يمنع قبول الشهادة ستة أشياء منها قرابة الولاة ، فلا تقبل شهادة والد لولده وان سفل ، ولا ولد لوالده وان علا ، وسواء فى ذلك ولد البنين وولد البنات ، وسواء فى ذلك الآباء والأمهات وآبائهم وأمهاتهم .

ورويت عن أحمد رواية ثانية تقبل شهادة الابن لأبيه ولا تقبل شهادة الأب لابنه . لأن مال الابن فى حكم مال الأب له أن يتملكه إذا شاء ، فشهادته له شهادة لنفسه أو يجر بها لنفسه نفعا قال النبى ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » ، وقال : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وان أولادكم من كسبكم فكلوا من أموالهم » . ولا يوجد هذا فى شهادة الابن لأبيه .

---

(١) مواهب الجليل لشرح مختصر خليل للحطاب جـ٦ ص: ١٥٤ .

(٢) يراجع : المغنى لابن قدامة جـ١٢ ص: ٦٤ وما بعدها . أعلام الموقعين جـ١ ص١١١ .

وعنه رواية ثالثة : تقبل شهادة كل واحد منهما لصاحبه فيما لا تهمة فيه كالنكاح والطلاق والقصاص والمال إذا كان مستغنى عنه : لأن كل واحد منهما لا ينتفع بما يثبت للآخر من ذلك ، فلا تهمة فى حقه .

وقال ابن القيم : (١) .

« الصحيح أنه تقبل شهادة الابن لأبيه والأب لابنه فيما لاتهمة فيه » وقال : « التهمة وحدها توجب المنع ، سواء كان قريبا أو أجنبيا . فشهادة القريب لا ترد بالقرابة وانما ترد بتهمتها ولا ريب فى دخولهم فى قوله :

﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ۝٢ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ۝١٠٦ ﴾ (٣) .

كدخول الأجانب وتناول الجميع بتناول واحد وهذا مما لا يمكن دفعه ولم يستثن الله ورسوله من ذلك لا أبا ولا أخا ولا قرابة ، ولا أجمع المسلمون على استثناء أحد من هؤلاء ، إنما التهمة هى الوصف المؤثر فى الحكم فيجب تعليق الحكم به وجودا أو عدما ومما يدل على أن احتمال التهمة بين الولد ووالده لا يمنع قبول الشهادة إن شهادة الوارث لمورثه جائزة وشهادة الابنين على أبيهما بطلاق ضرتها فشهادة الوالد لولده وعكسه ـ بحيث لا تهمة هناك ـ أولى بالقبول . وأيضا : فالشهادة إلزام لمعين يتوقع منه العداوة وحق المنفعة والتهمة الموجبة للرد ، فاحتيط لها بالعدد والذكورية ، وردت بالقرابة والعداوة وتطرق التهم ، ومن كان معروفا من القرابة ونحوهم بمثابة الدين البالغة الى حد لا يؤثر معها محبة القرابة ونحوهم ، فقد زالت عنه مظنة التهمة ، ومن لم يكن كذلك فالواجب عدم قبول شهادته لأنها مظنة التهمة .

---

(١) يراجع : أعلام الموقعين جـ١ ص : ١١١ الاختلاف فى شهادة الأقارب .
(٢ سورة الطلاق - آية ٢ .
(٣) سورة المائدة - آية ١٠٦ .

أدلة القائلين بمنع قبول الشهادة

استدل القائلون بعدم صحة شهادة الآباء لأبنائهم ، والأبناء لآبائهم بأدلة من الكتاب والسنة والمعقول .

أولا : الكتاب

إستدلوا بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴿٦١﴾ ﴾(١) .

ووجه الاستدلال بهذه الاية : أن الله سبحانه ذكر جواز الأكل من بيوت الآباء ولم يذكر بيوت الأبناء لأن قوله تعالى : ﴿ من بيوتكم ﴾ قد انتظمها إذ كانت منسوبة الى الأباء فاكتفى بذكر بيوتهم عن ذكر بيو ت أبنائهم . ويؤكد هذا المعنى قوله ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » فأضاف الملك اليه وقال : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه فكلوا من كسب أولادكم » فلما أضاف ملك الابن الى الأب وأباح أكله له وسماه له كسبا كان المثبت لابنه حقا بشهادته بمنزلة مثبتة لنفسه ومعلوم بطلان شهادته لنفسه فكذلك لابنه ، واذا ثبت ذلك في الابن كان ذلك حكم شهادة الابن لأبيه اذ لم يفرق أحد بينهما (٢)

ثانيا : السنة

استدلوا بما يلي :

(أ) ماروى عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « لاتجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا ذي الغمر على أخيه ولا ظنين في قرابة ولا ولاء (٣) » . قال أبو داود : الغمر الحنة والشحناء ، وأما ذو الغمر : فهو الذي بينه وبين المشهود

---

(١) سورة النور – آية ٦١ .

(٢) أحكام الجصاص جـ١ ص : ٥٠٩ .

(٣) حديث صحيح على شرط مسلم ، سنن أبي داود جـ٣ ص : ٣٠٦ ، المستدرك جـ٤ ص : ٩٩

عليه عداوة ظاهرة ، والظنين : المتهم ، والأب منهم لولده لأن ماله كماله ولأن بينهما بعضية فكأنه يشهد لنفسه ، وقال عليه السلام : « فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها » ، ولأنه متهم فى الشهادة لولده كتهمة العدو فى الشهادة على عدوه ، والخبر أخص من الآيات فتخص به (١) .

(ب) ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « لاتقبل شهادة الولد لوالده ولاشهادة الوالد لولده ، ولا المرأة لزوجها ولا الزوج لزوجته » (٢) والحديث ظاهر فى الدلالة على المنع .

(جـ) ما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تجوز شهادة ذى الظنة ولا ذى الحنة » : (٣) .

ثالثا : المعقول

فلمعانٍ كثيرة . . أولها : أن ما بين الأب والإبن من البعضية والجزئية يمنع من قبول الشهادة . كما منع من إعطائه من الزكاة ومن قتله إذا قتل ولده ، ومن حده بالقذف إذا حد ولده ومن عدم قطعه إذا سرق من مال ولده . ولهذا لا يثبت له فى ذمته دين عند جماعة أهل العلم ، ولا يطالب به ولا يحبس من أجله .

قالوا : وقد قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٤) . أى ولدا فولد جزء ، فلا تقبل شهادة الرجل فى جزئه .

وقالوا : الانسان متهم فى ولده مفتون به كما قال تعالى : ﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٥) فكيف تقبل شهادة المرء لمن قد جعل مفتونا به والفتنة محل التهمة (٦) :

(١) المغنى جـ١٢ ص : ٦٤ .

(٢) رواه الخصاف باسناده على النبى ﷺ .. وهو فى مصنف ابن ابى سيبه وعبدالرزاق من قول شريح ، نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعى جـ ٤ ص :٨٢ .

(٣) حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، المصنف لعبدالرزاق جـ٨ ص : ٣٢٢ .

(٤) سورة الزخرف - آية ١٥ .

(٥) سورة التغابن آية ١٥ وفى سورة الأنفال آية ٢٨ .

(٦) أعلام الموقعين لابن القيم جـ١ ص :١١١ .

أدلة القائلين بصحة الشهادة عند انتفاء التهمة

استدلوا أولا : بعموم الأدلة الواردة فى الشهادة والتى تشترط العدالة فى الشهود ولم تفرق بين كونهم أقارب أم أجانب فشهادة القريب لا ترد بالقرابة . وإنما ترد بتهمتها مثل قوله تعالى : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ وقوله سبحانه

﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ (١) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (٢)

ولاريب فى دخول الآباء والأبناء والأقارب فى هذا اللفظ كدخول الأجانب وتناولها بالجميع بتناول واحد وهذا مما لا يمكن دفعه فلم يستثن الله سبحانه وتعالى ولا رسوله أحدا من هؤلاء فتلزم الحجة بإجماعهم .

واستدلوا ثانيا : بالآثار المروية عن الصحابة والتابعين والتى تؤيد رأيهم : فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « تجوز شهادة الوالد لولده والولد لوالده والأخ لأخيه » ، عن عمر بن سليم الزرقى عن سعيد بن المسيب مثل هذا . وعن الزهرى قال : « لم يكن يتهم سلف المسلمين الصالح فى شهادة الوالد لولده ولا الوالد لوالده ولا الأخ لأخيه ولا الزوج لزوجته . ثم دخل الناس بعد ذلك فظهرت منهم أمور حملت الولاة على اتهامهم فَتُرِكَتْ شهادة من يتهم إذا كانت من قرابة . وصار بذلك من الولد والوالد والأخ والزوجة والمرأة لم يتهم إلا هؤلاء فى آخر الزمان » .

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٨٢ .

(٢) سورة المائدة - آية ١٠٦ .

وقال عبد الرزاق : « حدثنا سفيان بن عيينة عن شبيب بن غرقدة » قال : « سمعت شريحا أجاز لامرأة شهادة أبيها وزوجها ، فقال له الرجل : إنه أبوها وزوجها . قال شريح : فمن يشهد للمرأة إلا أبوها وزوجها ؟ » .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : « حدثنا شبابة عن ابن أبى ذئب عن سليمان قال : « شهدت لأمى عند أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم فقضى بشهادتى » . وقال عبد الرزاق : « حدثنا معمر عن عبد الرحمن بن عبد الله الأنصارى قال : « أجاز عمر بن عبد العزيز شهادة الابن لأبيه اذا كان عدلا » .

قالوا : فهؤلاء عمر بن الخطاب وجميع السلف وشريح وعمر بن عبد العزيز وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يجيزون شهادة الابن لأبيه ، والأب لابنه قال ابن حزم : وبهذا يقول إياس بن معاوية وعثمان البتى واسحاق بن راهَوَيْهِ (١) .

مُناقشة الادلة

(١) ناقش القائلون بجواز الشهادة إذا كانوا عدولا أدلة القائلين بالمنع من عدة وجوه :

أولا : بالنسبة للبعضية التى بين الأب وابنه ، وأنها توجب أن تكون شهادة أحدهما للآخر شهادة لنفسه ، فهذه حجة ضعيفة ، فإن هذه البعضية لا توجب أن يكون كبعضه فى الأحكام ؛ لا فى أحكام الدنيا ، ولا فى أحكام الثواب والعقاب . فلا يلزم من وجوب شىء على أحدها أو تحريمه وجوبه على الآخر . وقد قال النبى ﷺ : « لا يجنى والد على ولده فلا يجنى عليه ، ولا يعاقب بذنبه ، ولا يثاب بحسناته ، ولا يجب عليه الزكاة ولا الحج بغنى الآخر » . ثم قد أجمع الناس على صحة بيعه منه واجارته ومضاربته ومشاركته ، فلو امتنعت شهادته له لكونه جزءه فيكون شاهدا لنفسه لامتنعت هذه العقود إذ يكون عاقدا لها مع نفسه .

ثانيا : بالنسبة لرد الشهادة بسبب التهمة أو المنفعة لأحدهما على الآخر فيقال : التهمة وحدها مستقلة بالمنع سواء كان قريبا أو أجنبيا . ولا ريب أن تهمة

(١) أعلام الموقعين جـ١ ص : ١١٣ .

الإنسان فى صديقه وعشيره ومن تعنيه مودته ومحبته أعظم من تهمته فى أبيه وابنه . والواقع شاهد بذلك ، وكثير من الناس يحابى صديقه وعشيره وذا وده أعظم مما يحابى أباه وابنه . والشارع الحكيم لم يعلق عدم قبول الشهادة بوصف الأبوة أو البنوة أو الأخوة . والتابعون إنما نظروا الى التهمة فى الوصف المؤثر فى الحكم ، فيجب تعليق الحكم به وجودا وعدما . ولا تأثير لخصوص القرابة ولا عمومها ، بل قد توجد القرابة حيث لا تهمة وتوجد التهمة حيث لا قرابة . والشارع إنما علق الشهادة بالعدالة وكون الشاهد مرضيا ؛ وعلق عدم قبولها بالفسق ، ولم يعلق القبول والرد بأجنبية أو قرابة .

ثالثا : أما قوله ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » فلا يمنع شهادة الابن لأبيه ، فان الأب ليس هو وماله لابنه . ولا يدل الحديث على عدم قبول شهادة أحدهما للآخر وانما يدل على أن مال الابن له حقيقة وحكما ونحن نقول بذلك . واللام ليست للملك وانما للاباحة . ولا يلزم من إباحة أخذه ما شاء من ماله أن تقبل شهادة له بحال مع القطع بانتفاء التهمة ، كما لو شهد له بنكاح أحد أو مالا تلحقه به تهمة .

رابعا : وأما كونه لا يعطى من زكاته ، ولا يقاد به ولا يحد به ، ولا يثبت له فى ذمته دين ولا يحبس به ، فالاستدلال إنما يكون بما يثبت بنص أو إجماع وليس معكم شيء من ذلك . ولو سلم بثبوت الحكم فيها أو فى بعضها لم يلزم منه عدم قبول شهادة أحدهما للآخر حيث تنتفى التهمة . ولا تلازم بين قبول الشهادة وجزيان القصاص وثبوت الدين له فى ذمته لا عقلا ولا شرعا ، فان تلك الاحكام اقتضتها الأبوة التى تمنع من مساواته للأجنبى فى حده به واقادته منه وحبسه بدينه ، فإن منصب الأبوة يأبى ذلك وقبحه مركوز فى فطر الناس . وما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ، وما رأوه قبيحا فهو عند الله قبيح .

خامسا : وأما حديث عائشة فلو ثبت لم يكن فيه دليل ، فانه انما يدل على عدم قبول شهادة التهم فى قرابته أو ذوى ولاية ونحن لا نقبل شهادته اذا ظهرت تهمته (١) .

---

(١) يراجع : اعلام الموقعين جـ ١ ص : ١٩٦ ص : ١١٨ .

(٢) ناقش المانعون لقبول الشهادة أدلة القائلين بجواز قبولها بما يلي:

قالوا: إن التهمة المانعة من قبول شهادة الأب لابنه أو الابن لأبيه ليست تهمة فسق ولا كذب، وانما التهمة فيه من قبل أن يصير فيها بمعنى المدعى لنفسه، قالوا: ألا ترى أن أحدا من الناس وان ظهرت أمانته وصحت عدالته لا يجوز أن يكون مصدقا فيما يدعيه لنفسه لا على جهة تكذيبه ولكن من جهة أن كل مدع لنفسه فدعواه غير ثابتة إلا ببينة تشهد له بها. فالشاهد لابنه بمنزلة المدعى لا يجوز أن يكون شاهدا فيما يدعيه. ولا أحد من الناس أصدق من نبى الله ﷺ إذ دلت الأعلام المعجزة على أنه لا يقول إلا حقا وأن الكذب غير جائز عليه، لم يقتصر فيما ادعاه لنفسه من دعواه دون شهادة غيره حين طالبه الخصم به، وهو قصة خزيمة بن ثابت حينما ابتاع النبى فرسا من أعرابى، فطفق الأعرابى يقول: « هلم شهيدا يشهد أنى قد بايعتك ». فقال خزيمة: « أنا أشهد أنك بايعته ». فأقبل النبى ﷺ على خزيمة فقال: « بم تشهد؟ » فقال: « بتصديقك يا رسول الله ». فجعل النبى ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. فلم يقتصر النبى ﷺ فى دعواه على ما تقرر وثبت بالدلائل والأعلام انه لا يقول الا حقا، ولم يقل الأعرابى حين قال « هلم شهيدا » انه لا بينة عليه، وكذلك سائر المدعين فعليهم إقامة بينة لا يجربها الى نفسه أعظم المغنم كشهادته لنفسه (١). ويناقش الظاهرية فى استدلالهم بالعمومات بأن الأدلة التى ذكرها الجمهور تخصص هذه العمومات.

الرأى المختار

بعد استعراضنا لأدلة كل من الفريقين ومناقشة كل منهم للآخر نرجح رأى الجمهور القائلين بمنع قبول شهادة الوالد لابنه والابن لأبيه لقوة أدلتهم ولأن معانى الأبوة والبنوة والشفقة الرابطة بين الأصول والفروع تجعل شبهة التهمة بالمنفعة موجودة. ويكفى ما استدل به المخالفون من حديث الزهرى من أن السلف كانوا يجيزون ذلك فى الماضى. فلما تغيرت نفوس الناس وضعف وازع الدين فى قلوبهم تغير الحكم بعدم القبول. والتهمة هى الحكمة وليست هى العلة أو الوصف المؤثر لأنها وصف خفى غير منضبط يتفاوت من شخص لآخر، لأن الشهادة الحقة نابعة من قوة الإيمان والخوف والخشية من الله. ومن الأصول المتفق عليها فى

---

(١) يراجع: أحكام الجصاص جـ ١ ص: ٥٠٩، ٥١٠.

الشريعة قاعدة سد الذرائع ، فالأولى منع قبول شهادة الأصول للفروع والعـ
سدا للشبه بالمنفعة المترتبة على الإدلاء بتلك الشهادة . والله أعلم .

أما شهادة أحدهما على الآخر فتقبل ، وهذا أمر محل اتفاق جميع الفقهـ
وذلك لقول الله تعالى : ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكـ
الوالدين والأقربين ﴾ فأمر سبحانه بالشهادة عليهم ، ولو لم تقبل لما أمر أن تـ
كشهادة الأجنبى ، بل أولى ، فإن شهادته لنفسه لما ردت للتهمة فى إيصال الـ
الى نفسه كان إقراره عليه مقبولا .

وقال بعض الشافعية : لا تقبل شهادة الابن على أبيه فى قصاص ولا
قذف لأنه لا يقتل ولا يحد بقذفه فلا يلزم ذلك .

والأول أرجح ، لأنه يتهم له ولا يتهم عليه ، فشهادته عليه أبلغ فى الصـ
كإقراره على نفسه .

وتجوز شهادة الرجل لابنه من الرضاعة وأبيه منها وسائر أقربائه منها
لانسب بينهما يوجب الاتفاق والصلة . (١) .

---

(١) يراجع : المغنى والشرح الكبير جـ ١٢ ص : ٦٦ .

المبحث التاسع

المحرمات

﴿ حُرِّمَتْ
عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ
وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم
مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن
نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ « سورة النساء ـ آية ٢٣ »

المحرمات

التحريم للنكاح

التحريم للنكاح ضربان : تحريم عين ، وتحريم جمع ، ويتنوع أيضاً الى نوعين : تحريم نسب ، وتحريم سبب .

والأصل فى ذلك الكتاب ، والسنة ، والاجماع .

أدلة من الكتاب

قول الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ (٢٤) ﴾ (١) .

(١) سورة النساء ـ آيتا ٢٣ ـ ٢٤ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ (١) .

من السنة

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يجمع الرجل بين المرأة وعمتها ، ولا بينها وبين خالتها » (٢) ، وما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « قال رسول الله ﷺ « ان الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة » (٣) .

من الاجماع

فقد أجمعت الأمة على تحريم ما نص الله تعالى على تحريمه ومن المحرمات نكاحهن بسبب النسب أو القرابة : الأمهات والبنات . ومن المحرمات نكاحهن بسبب المصاهرة : زوجة الأب ، وزوجة الإبن . وهما مما يتعلق بموضوع بحثنا .

وحرمة الأمهات والبنات كانت ثابتة منذ زمن آدم عليه السلام إلى هذا الزمان ، ولم يثبت حل نكاحهن فى أى من الأديان الإلهية . أما نكاح الأخوات فقد نقل أن ذلك كان مباحا فى زمن آدم عليه السلام ، وإنما حكم الله بإباحة ذلك على سبيل الضرورة .

أولا : التحريم بسبب النسب او القرابة

بينت سورة النساء أصناف المحرمات وذلك فى قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة . . الآية ﴾ .

---

(١) سورة النساء ـ آية ٢٢ .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه مسلم .

١ ـ تحريم الأصول (الأمهات وإن علون)

والأمهات جمع أم ، وهي كل امرأة رجع نسبك اليها بالولادة من جهة أبيك أو من جهة أمك بدرجة أو بدرجات بإناث رجعت اليك أو بذكور فهى أمك . ولفظ الأم حقيقة فى الأم الأصلية مجاز فى الجدات (١) ، فيحرم النكاح بهن وارثات كن أو غير وارثات : فكلهن أمهات محرمات .

والحكمة من تحريم النكاح بالأمهات كما ذكرها صاحب تفسير المنار (٢) « أن الله تعالى جعل بين الناس ضروبا من الصلة يتراحمون بها ، ويتعاونون على دفع المضار وجلب المنافع . وأقوى هذه الصلات صلة القرابة وصلة الصهر . ولكل واحدة من هاتين الصلتين درجات متفاوتة . فأما صلة القرابة فأقواها ما يكون بين الأولاد والوالدين بالعاطفة والاريحية . ولا يخفى على إنسان أن عاطفة الأم الوالدية أقوى من عاطفة الأب ، ورحمتها أشد من رحمته ، وحنانها أرسخ من حنانه ، لأنها أرق قلبا وأرق شعورا . وان الولد يتكون جنينا من دمها الذى هو قوام حياتها . ثم يكون طفلا يتغذى من لبنها فيكون له مع كل مصة من ثديها عاطفة جديدة يستلها من قلبها . والطفل لا يحب أحدا فى الدنيا قبل أمه ، ثم إنه يحب أباه ولكن دون حبه لأمه ، وان كان يحترمه أشد مما يحترمها . أليس من الجناية على الفطرة أن يزاحم هذا الحب العظيم بين الوالدين والأولاد حب استمتاع الشهوة فيزحمه ويفسده وهو خير ما فى هذه الحياة ؟ . بلى ولأجل هذا كان تحريم نكاح الأمهات وهو الأشد المقدم فى الآية ؛ ويليه تحريم البنات » .

ويضيف : « هذه هى أنواع القرابة القريبة التى يتراحم الناس بها ويتعاطفون ويتوادون ويتعاونون بما جعل الله فى النفوس من الحب والحنان والعطف والاحترام ، فحرم الله فيها النكاح لأجل أن تتوجه عاطفة الزوجية ومحبتها الى من ضعفت الصلة الطبيعية أو النسبية بينهم كالغرباء والأجانب والطبقات البعيدة من سلالة الأقارب كأولاد الأعمام والعمات . وبذلك تتحدد بين البشر قرابة الصهر التى تكون فى المودة والرحمة كقرابة النسب ، فتتسع دائرة المحبة والرحمة بين الناس . فهذه حكمة الشرع الروحية من محرمات القرابة » .

---

(١) يراجع : الفخر الرازى : جـ ١٠ ص : ١٧ ـ ٤٦ .

(٢) تفسير المنار جـ ٥ ص : ٣٢ .

وفى هذا المعنى يقول الكاسانى فى البدائع (١) : « إن زواج هؤلاء يفضى إلى قطع الرحم ، لأن الزواج يخلو من مباسطات تجرى بين الزوجين عادة وبسببها تجرى الخشونة بينهما ، وذلك يفضى الى قطع الرحم التى امر الله بها أن توصل . فكان الزواج سببا لقطع الرحم ومفضيا اليه ، والمفضى الى الحرام حرام . وتختص الأمهات بمعنى آخر وهو أن احترام الأم وتعظيمها واجب ، ولهذا أمر الولد بمصاحبة الوالدين بالمعروف وخفض الجناح لهما والقول الكريم ، ونهى عن التأفيف لهما . فلو جاز الزواج والمرأة تكون تحت أمر الزوج وطاعته مستحقة عليها للزمها ذلك ، وهذا ينافى الاحترام فيؤدى إلى التناقض » .

٢ ـ تحريم الفروع (البنات وان سَفُلن) :

يقول الفخر الرازى (٢) فى تفسيره :

« البنت هى كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو بدرجات بإناث او بذكور فهى بنتك كابنة الصلب ، أوبنات البنين والبنات وان نزلت درجتهن وارثات أو غير وارثات ، كلهن بنات محرمات لقوله تعالى : ﴿ وبناتكم ﴾ ، فإن كل امرأة بنت آدم كما أن كل رجل ابن آدم .

والحكمة فى تحريم البنات ، أن تكوين الاسرة يقتضى عادة اتصال الأب ببناته والأبناء بأمهاتهن والاخوة والاخوات بعضهم ببعض ، واجتماعهم جميعا فى منزل واحد . فإذا بقى الحل بين هؤلاء الأقارب لكان من الواجب ألا يجتمع الرجل بواحدة من هؤلاء القريبات على انفراد ، لأن اجتماعهما يفتح باب الطمع والتطلع فتصبح البيوت مسارح لتمثيل ادوار العشق والغرام وبالحرمة ينسد هذا الباب ، وتصبح الصلة بريئة نقية ، وتكون البيوت مباءة الطهر والعفاف . واذا منعنا اجتماع الأب بابنته والابن بأمه والأخ بأخته لكان فى ذلك الحرج والضيق الشديد ، لذلك كان التحريم لينقطع الطمع ويكون الاجتماع والاختلاط (٣) .

---

(١) البدائع جـ ٣ ص : ٢٥٧ .

(٢) يراجع : تفسير الفخر الرازى جـ ١٠ ص : ٣٥ المغنى جـ ٧ ص : ٤٧١ .

(٣) يراجع : الأحكام الشرعية للأحوال الشخصية ص : ١٤١ ، ١٤٢

ثانيا : التحريم بسبب المصاهرة

والمنصوص عليه أربع : أمهات الزوجات ، وبنات الزوجات ، وزوجات الآباء ، وزوجات الأبناء .

والذى يهمنا فى بحثنا تحريم زوجة الأصل على الفرع ، وتحريم زوجة الفرع على الأصل ، اى تحريم زوجات الآباء على الأبناء وتحريم زوجات الأبناء على الآباء .

١ـ حلائل الابناء

أى زوجاتهم ، سميت امرأة الرجل حليلةً لأنها محل إزار زوجها وهى محللة له ، فيحرم على الرجل أزواج ابنائه ، وأبناء أبنائه من نسب أو رضاع قريبا كان أو بعيدا بمجرد العقد ، لقوله تعالى :

﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١) .

ولا نعلم فى هذا خلافا بين العلماء وقوله : ﴿ الذين من أصلابكم ﴾ احتراز عن المتبنى فى صدر الإسلام بمنزلة الإبن .

ولا يحرم على الإنسان حليلة من ادعاه ابنا اذا لم يكن من صلبه لقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ (٢) ، ولقوله : ﴿ لكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ﴾ (٣) ولا يتناول حلائل الأبناء من الرضاعة ؛ ولكن لما قال فى اخر الآية : ﴿ وأحل لك ما وراء ذلك ﴾ (٤) لزم من ظاهر الآيتين حل التزوج بأزواج الأبناء من الرضاع ، الا أن النبى ﷺ قال : « يحرم من الرضاع مايحرم من النسب » . فاقتضى هذا تحريم التزوج بحليلة الابن من الرضاع ، لأن قوله تعالى : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ يتناول الرضاع وغير

(١) سورة النساء ـ آية ٢٣ .
(٢) سورة الأحزاب ـ آية ٤ .
(٣) سورة الأحزاب ـ آية ٣٧ .
(٤) سورة النساء ـ آية ٢٤ .

الرضاع ، فكان قوله : يحرم من الرضاع مايحرم من النسب اخص منه فخصصوا عموم القرآن بخبر الواحد .

واتفقوا على أن حرمة التزوج بحليلة الابن تحصل بنفس العقد ، وذلك لأن عموم الآية يتناول حليلة الابن سواء كانت مدخولا بها أو لم تكن (١) .

٢ـ زوجات الآباء

تحرم على الرجل امرأة أبيه قريبا كان أو بعيدا ، وارثا كان أو غير وارث ، من نسب أو رضاع ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢)

وقال البراء بن عازب : « لقيت خالي ومعه الراية فقلت : أين تريد ؟ قال : أرسلني رسول الله ﷺ الى رجل تزوج امرأة ابيه من بعده أن اضرب عنقه او اقتله (٣) » . وسواء في هذا امرأة أبيه أو امرأة جده لأبيه أو جده لأمه

قرب أم بعد وليس في هذا بين العلماء خلاف ويحرم عليه من وطئها أبوه أو ابنه بملك اليمين او شبهه كما يحرم عليه من وطئها في عقد نكاح . قال ابن المنذر : « الملك في هذا والرضاع بمنزلة النسب » (٤) .

قال الجصاص (٥) في أحكامه : « وقد عقل من قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء ﴾ تحريم مانكح الاجداد وان كان للجد اسم خاص لايشاركه فيه الأب الأدنى ، فإن الاسم العام وهو الأبوة ينتظمهم جميعا » .

---

(١) يراجع : تفسير الفخر الرازي جـ١٠ ص : ٤٠ .
(٢) سورة النساء ـ آية ٢٢ .
(٣) رواه النسائي .
(٤) يراجع المغني جـ٧ ص : ٤٧٥ .
(٥) أحكام الجصاص جـ٢ص : ١١٢ .

وحكمة التحريم بسبب المصاهرة يوضحها صاحب تفسير المنار (١) بقوله : « ينبغى أن تكون زوجة ابنه بمنزلة ابنته يوجه اليها العاطفة التى يجدها لبنته ، كما ينزل الابن امرأة أبيه منزلة أمه واذا كان من رحمة الله وحكمته ان حرم الجمع بين الأختين وما فى معناهما لتكون المصاهرة لُحْمَةَ مودة غير مشوبة بسبب من أسباب الضرار والنفرة فكيف يعقل ان يبيح نكاح من هى اقرب الى الزوجة كأمها ، أو ابنتها ، أو زوجة الوالد للولد وزوجة الولد للوالد ؟ . وقد بين لنا أن حكمة الزواج هى سكون نفس كل من الزوجين الى الآخر والمودة والرحمة بينهما وبين من يلتحم معها بلحمة النسب فقال :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴿٢١﴾ ﴾ . (٢)

فَقَيَّدَ سكون النفس الخاص بالزوجة ولم يقيد المودة والرحمة لأنها تكون بين الزوجين ومن يلتحم معهما بلحمة النسب وتزداد وتقوى بالولد فالإسلام دين الفطرة ، قال سبحانه :

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) تفسير المنار جـ٥ ص : ٣٣ ، وتراجع هذه الحكمة تفصيلا فى حجة الله البالغة للشيخ احمد المعروف بشاه ولى الدين الدهلوى جـ٢ ص : ١٣٢ وما بعدها .

(٢) سورة الروم ـ آية ٢١ .

(٣) سورة الروم ـ آية ٣٠ .

(٤) سورة الذاريات ـ آيتا ٢٠ ـ ٢١ .

ثالثا : التحريم بسبب الرضاع

كل امرأة حرمت من النسب حرم مثلها من الرضاع ، وهن : الأمهات ، والأخوات والعمات والخالات ، وبنات الأخ وبنات الأخت ، لقول النبى ﷺ « الرضاع يحرم ماتحرم الولادة » ولأن الأمهات والأخوات منصوص عليهم ، والباقيات يدخلن فى عموم لفظ سائر المحرمات من غير خلاف بين العلماء . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ ، سمى المرضعات امهات لأجل الحرمة ، كما أنه تعالى سمى أزواج النبى ﷺ أمهات المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۝٦ ﴾ (١) لأجل الحرمة ، والله تعالى نص فى سورة النساء على حرمة الأمهات والأخوات من جهة الرضاع الا ان الحرمة غير مقصورة عليهن ، لأن النبى ﷺ قال : « يحرم من الرضاع مايحرم من النسب » . وانما عرفنا أن الامر كذلك بدلالة هذه الآية ، وذلك لأنه تعالى لما سمى المرضعة أما ، والمرضعة اختا فقد نبه بذلك الى انه تعالى اجرى الرضاع مجرى النسب ، وذلك لأنه تعالى حرم بسبب النسب سبعا : اثنتان منهن المنتسبات بطريق الولادة وهما الأمهات والبنات ، وخمس بطريق الأخوة وهن الاخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت ، ثم انه تعالى لما شرع بعد ذلك فى أحوال الرضاع ذكر من هذين القسمين صورة واحدة تنبيها بها على الباقى فذكر من قسم قرابة الولادة الأمهات ومن قسم قرابة الأخوة الأخوات ونبه بذكر هذين المثلين من هذين القسمين على أن الحال فى باب الرضاع كالحال فى النسب ثم انه عليه السلام اكد هذا البيان بصريح قوله : « يحرم من الرضاع مايحرم من النسب » فصار صريح الحديث مطابقا لمفهوم الآية . (٢)

فأم الانسان من الرضاع هى التى ارضعته ، وكذلك كل امرأة انتسبت الى تلك المرضعة بالأمومة وبنته من الرضاع هى التى ارضعتها زوجته فأصبحت ابنته لأنه هو السبب فى ادرار اللبن الى امها .

---

(١) سورة الأحزاب - آية ٦ .

(٢) يراجع : المغنى جـ٧ ص : ٤٧٦ ، أحكام الجصاص جـ ص : ١١٢ ، أحكام القرطبى مجلد ٢ص : ١٦٧٣ .

فالمرأة اذا ارضعت طفلا او طفلة بلبن من وطء رجل حرم الطفل على زوجة الرجل ، وحرمت الطفلة على الرجل واقاربه كما يحرم ولده من النسب لأن اللبن من الرجل كما هو من المرأة فيصير ولد الرجل والرجل أباه وأولاد الرجل أخوته سواء كانوا من تلك المرأة أو من غيرها ، وهكذا .

المبحث العاشر

حد القذف

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ
جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

« سورة النور - آية ٤ »

حــد القــذف

قال الله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ ﴾ (١).

والمراد بالقذف : الشتم بالفاحشة خاصة . والمراد بالمحصنات النساء وخصهن بالذكر لأن قذفهن أشنع والعار فيه أعظم . ويلحق الرجال والنساء فى هذ الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الامة (٢) .

والقذف فى الشريعة الاسلامية نوعان : قذف يحد عليه القاذف ، وقذف يعاقب عليه بالتعزير .

فأما مايحد فيه القاذف فهو رمى المحصن بالزنا ، أو نفى نسبه . وأما ما فيه التعزير فهو رمى بغير الزنا ونفى النسب ، سواء كان من رمى محصنا أو غير محصن ويلحق بهذا النوع السب والشتم ففيهما التعزير أيضا .

والكلام هنا مقصود به جريمة القذف المعاقب عليها بالحد ، والقاعدة العامة عند الفقهاء أن كل مايوجب حد الزنى على فاعله يوجب حد القذف على القاذف به ، وكل مالا يجب حد الزنى بفعله لايجب الحد على القاذف به .

---

(١) سورة النور ـ آية ٤ .

(٢) فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص : ٧ .

وهذه القاعدة العامة متفق عليها بين الفقهاء . ولكنهم يختلفون فى تطبيقها لاختلافهم فيما يوجب حد الزنا (١) .

ويرى أبوحنيفة والشافعى وأحمد أن الوالد وإن علا إذا قذف ولده وإن نزل لم يجب عليه الحد سواء كان القاذف رجلا أو امرأة ، لأن عقوبة القذف وإن كانت حدا إلا أنها متعلقة بحقوق الأفراد حتى لا تستوفى عقوبته الا بالمطالبة فهو أشبه بالقصاص . ولأن الحد يدرأ بالشبهات فلا يجب للابن على أبيه كالقصاص . وإذا كان من المسلم به أن الإبن لا يقتص من الأب ولا يقطع الأب فى سرقة ماله ، فأولى أن لا يحد فى قذفه .

قال الحنفية (٢) :

إن من شروط إقامة الحد مايرجع الى القاذف ، ومنها ما يرجع الى المقذوف ، ومنها ما يرجع اليهما معا ، وهو أن لايكون القاذف أب المقذوف ولا جده وان علا ولا أمه ، ولا جدته وان علت . فإن كان فلا حد عليه لقوله تعالى :

﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴿٢٣﴾ ﴾

(٣) . والنهى عن التأفيف نصا نهى عن الضرب دلالة ، ولهذا لا يقتل به قصاصا ، ولقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (٤) والمطالبة بالقذف ليست من الإحسان فى شىء فكانت منفية بالنص ، ولأن توقير الأب واحترامه واجب شرعا وعقلا ، والمطالبة بالقذف ترك للتعظيم والاحترام فكانتا حراما .

وقال الشافعية (٥) .

لايحد الأصل ولو أنثى بقذف الولد وإن سفل ، كما لايقتل به ، بل يعزر . وقال الحنابلة (٦) فى المشهور عنهم :

---

(١) التشريع الجنائى الاسلامى جـ٢ ص : ٤٦٤ .

(٢) البدائع جـ٩ ص : ٤١٦٩ .

(٣) سورة الاسراء ـ آية ٢٣ .

(٤) سورة الاسراء ـ آية ٢٣ .

(٥) مغنى المحتاج جـ٤ ص : ١٥٦ .

(٦) المغنى والشرح الكبير جـ١٠ ص : ٢٠٨ .

إذا قذف ولده وإن نزل لم يجب الحد عليه ، سواء كان القاذف رجلا أو امرأة ، لأن الحد عقوبة وجبت حقا للآدمى ، فلا تجب للولد على الوالد كالقصاص . والحد يندرىء بالشبهات فلا يجب للإبن على أبيه كالقصاص ولأن الأبوة معنى يسقط القصاص فمنعت الحد ، وهذا يخص عموم الآية . والفرق بين القذف والزنا أن حد الزنا خالص لحق الله تعالى لاحق للآدمى فيه . وحد القذف لآدمى فلا يثبت للابن على أبيه كالقصاص ، وعلى أنه لو زنا بجارية ابنه لم يجب عليه حد .

قالوا : إذا ثبت هذا فإنه لو قذف أم ابنه وهى أجنبية عنه فماتت قبل استيفاؤه لم يكن لابنه المطالبة بالحد لأن مامنع ثبوته ابتداء أسقطه طارئا كالقصاص ، وإن كان لها ابن آخر من غيره كان له استيفاؤه اذا ماتت بعد المطالبة به لأن الحد يملك بعض الورثة استيفاءه كله بخلاف القصاص .

وأما قذف سائر الأقارب فيوجب الحد على القاذف فى قول جميع الفقهاء .

وفى مذهب مالك رأيان : أحدهما يتفق مع الجمهور بسقوط الحد . وثانيهما للابن أن يطالب أباه بحد القذف لأن نص القذف عام فينطبق على الأب كما ينطبق على غيره . ولأن عقوبة حد القذف والحد حق الله فلا يمنع من إقامتها قرابة الولادة . ولكن القائلين بهذا الرأى يسلمون بأن الابن يفسق بمطالبته بحد أبيه ، أى أن عدالة الإبن تسقط لمباشرته سبب عقوبة أبيه لأن الله تعالى يقول : ﴿ ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما ﴾ ويقول : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ (١) .

وذهب بعض الفقهاء (٢) إلى إقامة الحد على الأب اذا قذف ابنه . واستدلوا بعموم الآية وهى قوله تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات . . . ﴾ فلا يمنع من وجوبه قرابة الولادة كالزنا . ولكن يرد عليهم بأن أدلة الجمهور أدلة صحيحة لهذا العموم ولأن الأب إذا سرق شيئا من مال ابنه سقط عنه الحد اتفاقا فكذا هنا .

مطالبة الولد بحد قذف أمه ، وأحواله

قال صاحب المغنى (٣) : « إن قذِفَت أمه وهى ميتة مسلمة كانت أو كافرة حرة أو أمة حُدَّ القاذف اذا طالب الابن وكان حرا مسلما . أما إذا قذفت وهى فى الحياة فليس

---

(١) يراجع : الشرح الصغير جـ ٤ ص ٢٤٦٧ : شرح الزرقانى جـ ٨ ص ٨٧ .
(٢) يراجع : المغنى جـ ١٠ ص ٢٠٨ .
(٣) المغنى جـ ١٠ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

لولدها المطالبة لأن الحق لها فلا يطالب به غيرها ولايقوم غيرها مقامها سواء كانت محجورا عليها أو غير محجور عليها لأنه حق يثبت للتشفى فلا يقوم فيه غير المستحق مقامه كالقصاص ، وتعتبر حصانتها لأن الحق لها . فتعتبر حصانتها كما لـو لم يكن لها ولد .

وأما إذا قذفت وهى ميتة فإن لولدها المطالبة لأنه قدح فى نسبه ولأنه بقذف أمه نسبه الى أنه من زنا . ولا يستحق ذلك بطرق الإرث ولذلك تعتبر الحصانة فيـه ولاتعتبر الحصانة فى أمه لأن القذف له .

المبحث الحادي عشر

حد السرقة

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾.

« سورة المائدة ـ آية ٣٨ »

حـــد الســـرقـة

يؤثر النظام الجنائى الاسلامى فى الفرد والجماعة ، حيث يعمل على حماية مقومات الدين الأساسية فى الفرد والجماعة . ويضع فى اعتباره أن ثمة صور منحرفة من السلوك الانسانى لابد أن ينطوى عليها كل مجتمع مهما ارتقى وتطهر ، ولا تجدى إزاءها الوسائل الذاتية والاجتماعية فى مكافحة الجريمة . ولذلك وجد فى النظام الجنائى الاسلامى ما يردع مثل هذه الصور فيحول دون استفحال أمرها واستشراء خطرها ، لأن للفساد قوته الغلابة فى الاغراء . ومن طبيعة الشر إذا ترك أن يستفحل . فاذا ضعف النظام الجنائى أو انهارت بعض جوانبه أدى ذلك الى تسرب الفساد الى الجماعة شيئا فشيئا . ومن ثم يدب الوهن والخور فى أوصالها ، مما يجعلها مرتعا خصبا للشر والجريمة ، وينتكس المجتمع فيصبح الشرفيه هو الاصل ، بعد أن كان استثناء محضا (١) . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٢) .

ويرتبط النظام الجنائى فى الاسلام بالمقاصد الاساسية او الضروريات الخمس (حفظ الدين ـ حفظ العقل ـ حفظ النفس ـ حفظ النسل ـ حفظ المال) .

فالجرائم الخطيرة فى نظر الإسلام هى تلك التى تخل اخلالا جسيما بالضروريات . ولذلك واجهها الشارع الاسلامى بعقوبات شديدة قاسية تختلف بحسب مدى القوة الضرورية التى تخل بها الجريمة . وهذه الجرائم تنقسم الى قسمين رئيسيين .

---

(١) يراجع التشريع الجنائى الاسلامى لعبد القادر عودة جـ ١ ص ٥٧٧ وما بعدها . نظام التجريم والعقاب لعلى منصور ص ٦٦ ، والجريمة والعقوبة لأبى زهرة .

(٢) سورة يوسف ـ آية ٥٣ .

القسم الاول :

وينظم جرائم الحدود : والحد هو العقوبة المقدرة حقا لله تعالى . ومعنى العقوبة المقدرة أنها محددة لاتقبل تغييرا أو تعديلا . ومعنى أنها لله أى لاتقبل الإسقاط لا من الأفراد ، ولا من الجماعة . وهذه هى الردة والبغى وهما يخلان بالدين ، وشرب الخمر وهى تخل بالعقل ، والزنى والقذف وهما يخلان بالنسل ، والسرقة والحرابة وهما يخلان بالمال والأنفس والأمن العام .

القسم الثانى :

ويشمل جرائم القصاص وَالدِّيَةِ : وهى الجرائم المعاقب عليها بقصاص أودِيَةٍ . ولكل منها عقوبة مقدرة حقا للأفراد . فللمجنى عليه فيها أن يعفو عن حقه فى القصاص اكتفاء باقتضاء الدية وله أن يعفو عن الدية أيضاً . فإذا عفا المجنى عليه عن القصاص أو الدية فإنه يجوز عندئذ معاقبة الجانى بعقوبة تعزيرية . وجرائم القصاص والدية من جرائم الاعتداء على النفس بالقتل أو الجرح .

حالات لايقام فيها الحد

ولكن هناك حالات يسقط فيها الحد لوجود شبهة فى الفاعل كما لو كان الفاعل جزءا من المجنى عليه أو أصلا له ومنها السرقة والقذف والقصاص .

السرقة

السرقة فى الشريعة الاسلامية نوعان :

سرقة عقوبتها الحد ، وسرقة عقوبتها التعزير . والسرقة المعاقب عليها بالحد نوعان : سرقة صغرى ، وسرقة كبرى :

فأما السرقة الصغرى فهى أخذ مال الغير خفية ، أى على سبيل المثال الاستخفاء . أما السرقة الكبرى فهى أخذ مال الغير على سبيل المغالبة وتسمى الحرابة .

والسرقة المعاقب عليها بالتعزيز هي كل سرقة ذات حد لم تتوفر شروط الحد فيها ، أو درىء فيها الحد للشبهة . كأخذ مال الابن لأنه فقد ركنا من أركان السرقة الأربعة : وهو أن يكون المال مملوكا للغير . ولهذا اتفق عامة الفقهاء على سقوط الحد إذا كان الجاني شبهة ، كما إذا حصلت السرقة من الأماكن العامة أثناء العمل فيها ، أو من مكان يكون الجاني مأذونا للدخول فيه ولم يكن المسروق محرزاً ومن ذلك اذا حصلت السرقة بين الاصول والفروع .

ذهب الحنفية (١) إلى أنه لا قطع على من سرق من ذى رحم محرم لأنه يدخل بعضهم على بعض دون إذن عادة ، فكأن هناك إذنا ضمنيا بالدخول فتكون السرقة من دون حرز ، فضلا عن أن القطع بسبب السرقة يفضى الى قطع الرحم وذلك حرام ، والقاعدة أن ما أفضى الى الحرام حرام . ويشمل هذا الحكم الاصول والفروع والاخوة والاعمام وابناء العم .

قالوا : ولو سرق جماعة منهم ذو رحم محرم من المسروق لايقطع واحد منهم عند أبى حنيفة ، وعند أبى يوسف لايقطع ذو الرحم المحرم ، ويقطع سواه .

أما من سرق من ذى رحم غير محرم فيقطع بسرقته لأنهم لا يدخل بعضهم على بعض عادة دون استئذان ، فليس هناك إذن صريح ولا ضمنى بالدخول .

والسرقة من محرم غير ذى رحم كالأم من الرضاعة ، والأخت من الرضاعة مختلف عليها فى المذهب . فأبو حنيفة ومحمد يريان القطع فيها . وأبو يوسف لا يرى القطع فى حال السرقة من الأم ، ويراه فيما عدا ذلك . وحجته أن الإنسان يدخل بيت أمه من الرضاع دون إذن عادة فهناك إذن ضمنى بالدخول .

ومن سرق من امرأة أبيه أو زوج أمه ، أو حليلة ابنه أو من ابن امرأته أو أمها فلا قطع عليه إن كانت السرقة من منزل من يضاف اليه السارق من ابيه أو أمه إلا ابنه أو امرأته ، لأنه مأذون له بالدخول فى منزل هؤلاء فلم يكن المنزل حرزا فى حقه . وان سرق من منزل آخر فإن كانا فيه لم يقطع . وان كان لكل واحد منهما منزل على حدة فيرى أبو حنيفة أن لاقطع ، ويرى أبو يوسف ومحمد القطع ، وحجة أبى حنيفة أن حق

---

(١) البدائع جـ ٩ ص ٤٢٤٦ .

التزاور ثابت بين السارق وبين قريبه وكون المنزل لغير قريبه لايمنع من أن له زيارة قريبه وهذا يورث شبهة إباحة الدخول فيختل الحرز(١) .

وقال ابو بكر الرازى (٢) فى تفسير قوله تعالى :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣)

: « إنها عامة فى ايجاب قطع كل سارق . الا ما خصه الدليل . وقد قامت دلالة خصوصه فى ذوى الرحم المحرم . فقال أصحابنا : لا يقطع من سرق من ذى الرحم وهو الذى لو كان أحدهما رجلا والآخر امرأة لم يجز له أن يتزوجها من أجل الرحم الذى بينهما » .

قال : « والدليل على صحة قول أصحابنا قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴿٦١﴾ ﴾ (٤) . فأباح تعالى الأكل من بيوت هؤلاء . وقد اقتضى ذلك إباحة الدخول اليها بغير اذنهم . فاذا جاز لهم دخولها لم يكن مافيها محرزا عنهم ، ولاقطع الا فيما سرق من حرز (٥) وأيضاً : إباحة أكل أموالهم تمنع وجوب القطع لما فيها من الحق كالشريك ونحوه .

والدليل الثانى على صحة قول أصحابنا : هو أنه قد ثبت عندنا وجوب نفقة هؤلاء عند الحاجة إليه وجواز أخذها منه بغير بدل فأشبه السارق من بيت المال لثبوت حقه فيه بغير بدل يلزمه بالسرقة فيه .

---

(١) يراجع : : البدائع جـ ٩ ص ٤٢٤٦ وما بعدها .
(٢) تفسير الجصاص جـ ٢ ص ٤٣١ .
(٣) سورة المائدة - آية ٣٨ .
(٤) سورة النور - آية ٦١ .
(٥) الحرز : هو ما نصب عادة لحفظ أموال الناس .

وأيضاً : فلما استحق عليه إحياء نفسه وأعضائه عند الحاجة اليه بالانفاق عليه وكان هذا السارق محتاجا الى هذا المال فى احياء يده لسقوط القطع صار فى هذه الحالة كالفقير الذى يستحق على ذى الرحم المحرم منه الانفاق عليه لاحياء نفسه أو بعض أعضائه » .

وذهب الشافعية والحنابلة(١) إلى عدم قطع الوالد إذا سرق من مال ولده سواء الأب ، والأم والإبن ، والبنت ، والجد والجدة من مثل الأم والأب لما بينهما من الاتحاد ، ولأن مال كل منهما مرصد لحاجة الآخر . ولايقطع الابن عندهم ـ أيضاً ـ بسرقة مال والده وان علا ، لأن النفقة تجب فى مال الأب لابنه حفظا له فلا يجوز إتلافه حفاظا للمال . فأما سائر الأقارب كالأخوة والأخوات ومن غيرهم فيقطع بسرقة مالهم ويقطعون بسرقة ماله .

واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

أولا : ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ « إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أولادكم من كسبكم » (٢) .

وفى لفظ : « ولد الرجل من أطيب كسبه فكلوا من أموالهم هنيئا » .

ثانيا ما روى عن جابر من أن رجلا قال : « يارسول الله إن لى مالا وولدا وإن أبى يريد أن يجتاح مالى » . فقال : « أنت ومالك لأبيك » (٣) .

ثالثا : ما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال : « إن أبى يريد أن يجتاح مالى ، فقال : أنت ومالك لوالدك . إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئا (٤) »

قالوا : وبمجموع هذه الطرق ينتهض للاحتجاج فيدل على أن الرجل مشارك لولده فى ماله ، فيجوز له الأكل منه سواء أذن الولد أولم يأذن ويجوز له أن يتصرف به كما يتصرف بماله ما لم يكن ذلك على وجه السرف والسفه(٥) .

---

(١) يراجع : المغنى جـ ١٠ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦ .
(٢) رواه الخمسة .
(٣) رواه ابن ماجه .
(٤) رواه أحمد وأبو داود .
(٥) نيل الأوطار جـ ٦ ص ١٤ .

وقالوا : ولا يجوز قطع الإنسان بأخذ ما أمر به النبى ﷺ بأخذه ، ولا أخذ ما جعله النبى ﷺ له مضافا اليه ، ولأن الحدود تدرأ بالشبهات ، وأعظم الشبهات أخذ الرجل من مال جعله الشرع له وأمره بأخذه وأكله (١) .

وذهب المالكية (٢) إلى التفرقة فى اقامة الحد بين ما اذا سرق الأب من ابنه فلا قطع عليه . واذا سرق الابن من أبيه فيجب الحد ؛ ونظرا لقوة الشبهة (٣) فى الأولى ، وضعفها فى الثانية .

واستدلوا على ذلك بالأحاديث السابقة مثل قوله ﷺ « أنت ومالك لأبيك » (٤) وذهب القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾ . (٥) بأنها دليل على أنه لا يقطع الأبوان بسرقة مال ابنهما لقوله عيه السلام « أنت ومالك لأبيك » ويقطع فى سرقة مالهما ، لأنه لاشبهة له فيه . وقيل : لايقطع ، وهو قول ابن وهب وأشهب . لأن الابن ينبسط فى مال سيده فلأن لايقطع ابنه فى ماله أولى .

واختلفوا فى الجلد ، فقال مالك وابن القاسم لايقطع . وقال أشهب يقطع وقول مالك أصح لأنه أب قال مالك : أحب الى ألا يقطع الأجداد من قبل الأب والأم وإن لم تجب لهم النفقة (٦) .

وخالف الظاهرية الجمهور . فذهبوا الى قطع الأصول إذا سرقوا من الفروع وقطع الفروع إذا سرقوا من الأصول ، ولا يسقط الحد للقرابة ويرون أن حديث الرسول ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » منسوخ بآيات المواريث (٧) .

---

(١) المغنى جـ ١٠ ص ٢٨٤ .
(٢) الشرح الصغير جـ ٤ ص ٤٧٥ .
(٣) والشبهة : هى ما يشبه الثابت وليس بثابت أو هى وجود المبيح صورة مع انعدام حكمه أو حقيقته .
(٤) شرح الزرقانى على الموطأ جـ ٨ ص ٩٨ .
(٥) سورة المائدة ـ آية ٣٨ .
(٦) القرطبى مجلد ٣ ص ٢١٦٧
(٧) يراجع المحلى جـ ١١ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٧ .

وبعد . . فهذه هى آراء فقهاء المذاهب وأدلتهم فى سقوط حد السرقة بين الأصول والفروع وعدم سقوطه والناظر فيها يجد توسع الحنيفة فى إسقاط الحد بين ذوى الرحم المحرم : بينما نجد الشافعية والحنابلة يتوسطون فى الأمر ويذهبون الى تقييد الأقارب بالأصول والفروع فقط . أما المالكية فيذهبون الى التفريق بين ما اذا سرق الأصل من فرعه فيسقط الحد لقوة الأدلة وبين ما اذا سرق الفرع من أصله فلا يسقط ، بينما الظاهرية يأخذون بظواهر النصوص من القرآن التى أوجبت القطع عامة ولم يأخذوا بأدلة التخصيص ونحن نرجح ما ذهب اليه الشافعية والحنابلة لتوسطهم فى الأمر ولقوة أدلتهم التى وردت من طرق متعددة وأفادت شبهة الملك التى بها يندرئ الحد ولكننا نرى وجوب تعزيز السارق منهما حفاظا على الحكمة التى أرادها الشارع من وجوب إقامة الحدود وهى الحيلولة دون تسرب الفساد . وحفظ حقوق الفرد والمجتمع .

المبحث الثاني عشر

القصاص

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

« سورة البقرة - آية ١٧٩ »

القصاص

الجناية على الآدمى ثلاثة أنواع

الأول : جناية على النفس مطلقا .

الثانى : جناية على ما دون النفس .

الثالث : جناية على ما هونفس من وجه دون وجه .

والجناية على النفس مطلقا تكون بالقتل . وحقيقة القتل : اسم لفعل مؤثر فى فوات الحياة عادة فيسمى قاتلا من شق بطن إنسان بسكين أو ذبحه أو قطع رقبته أو شرخ رأسه بحجر كبير أو ضربه بخشبة كبيرة عدة ضربات حتى فارق الحياة بسبب أى فعل من هذه الأفعال ، أو بسبب استخدام أى آلة أو أداة أخرى يكون من شأن استخدامها مفارقة الحياة كالأسلحة وغيرها . ويقال لمن ذهبت حياته بهذا الفعل (مقتول) ويقال (قتيل) .

القتل أربعة أنواع

١ ـ قتل : هو عمد محض ليس فيه شبهة العدم .
٢ ـ قتل : هو عمد شبهة العدم وهو المسمى (بشبهة العمد) .
٣ ـ قتل : هو خطأ محض ليس فيه شبهة العدم .
٤ ـ قتل هو فى معنى القتل الخطأ من كل وجه .

ومن الاحكام التى تتعلق بالقتل المحض : وجوب القصاص (١) .

(١) يراجع : العقوبات الشرعية لعلى قراعة ص : ٢٩٢ ـ ٢٩٣

معنى القصاص لغة

المساواة ، ويتلاقى معناه اللغوى الشرعى . فهو فى اللغة معناه المساواة بإطلاق وفى الشريعة : المساواة بين الجريمة والعقوبة .
والقصاص : عقوبة مقدرة ثبت أصلها بالكتاب ، وثبت تفصيلها بالسنة (١) .

أما الكتاب : فقد وردت فيه نصوص كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ (٢)

وأما السنة فقد روى النبى ﷺ قال : « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يفتدى وإما أن يقتل »(٣) .

أساس القصاص

أساس القصاص المساواة فى الأنفس وأن الناس جميعا سواء لافرق بين أبيض وأسود ولا بين عربى وأعجمى ، وأن ذلك التساوى فى الأنفس يمتد من الاعتداء بالقتل الى الاعتداء بقطع الأطراف ، فان الاعتداء على الأطراف اعتداء على النفس وان كان بغير القتل ، لأن كلا الاعتداءين على النفس .

---

(١) يراجع : العقوبة لأبى زهرة ص : ٣٨٢ - ٣٩٨ .
(٢) سورة البقرة آيتا ١٧٨ - ١٧٩ .
(٣) رواه البخارى وأبو داود صحيح البخارى جـ ١٢ ص ١٨٠ .

وكلاهما اعتداء على ضروري والمحافظة بالقصاص محافظة على ضروري .

والناس جميعا سواء أمام القانون الإلهي الذي شرعه الله الذي خلق الناس جميعا من طينة واحدة كما قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ① ﴾ (١) ،

ويقوله ﷺ :

« المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم » (٢) . لذلك ففي القصاص تتساوى الأنفس وتتساوى الأعضاء وتتساوى الدماء ، كما قال تعالى ·

﴿ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣) :

وعلى ذلك فلا تفرقة بين الناس بالأوصاف سواء كانت أوصافا ذاتية فلا فرق بين لون ولون ، ام كانت اوصافا عرضية فلا فرق في القصاص بين غني وفقير إذ لاطبقية في الاسلام (٤) .

حكم قتل الوالد ولده

بينا أن العقوبة الأولى للقتل العمد هي القصاص ؛ وأنه يقتضي المساواة . وعلى ذلك فيحكم بهذه العقوبة على الجاني اذا توافرت أركان الجريمة وهي : .

١ ـ أن يكون المرتكب ممن يتحمل تبعة أفعاله .

٢ ـ الا يكون الفعل بحق ، او تكون فيه شبهة الحق .

٣ ـ أن تتحقق السببية بين الفعل والأثر .

٤ ـ ان يتحقق القصد الذي أدى الى وقوع الجريمة .

---

(١) سورة النساء آية ١

(٢) رواه ابن ماجه ، سنن ابن ماجه جـ٢ ص٨٩٥ .

(٣) سورة المائدة ـ آية ٤٥ .

(٤) أنظر : العقوبة لأبي زهرة ص : ٣٩٨ ومابعدها .

وشبهة الحق تثبت فى أربع أحوال هى : شبهة الملك ، وشبهة الجزئية ، وشبهة الزوجية ، وشبهة رضا المجنى عليه بالجريمة ، فهذه اربع شبهات ، وقد اختلف الفقهاء فى أثرها بالنسبة للقصاص مابين آخذ بهذه الشبهات ، وبين مانع فى بعضها .

ومن الأسباب التى تمنع من القصاص ، أن يكون القتيل جزءا من القاتل وهو مايسمى بشبهة الجزئية ، وينبنى على ذلك أنه لو قتل الأب ولده فلا قصاص عليه ، وكذلك الجد أبو الأب أو أبو الأم وإن علا وكذلك اذا قتل الرجل ولد ولده وان سفلوا او قتلت الأم ولدها ، أو أم الأم اذا قتلت ولد ولدها إنه لاقصاص على القاتل فى هذه الصور لأن المقتول جزؤه ، والشرط فى القصاص أن يكون المقتول جزء القاتل سواء اكانت الجزئية قريبة أم بعيدة ، ولأن من أركان الجريمة الا يكون الفعل بحق ، أو يكون فيه شبهة الحق ، وشبهة الحق تثبت بشبهة الجزئية ، والاصل فى ذلك ماروى عن النبى ﷺ أنه قال : « لايقاد الوالد بولده » (١) . واسم الوالد والولد يتناول كل والد وإن علا ، وكل ولد وإن سفل . وقوله ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » .

والحديث الأول صريح فى منع القصاص ، والحديث الثانى وإن لم يكن صريحا فى منع القصاص إلا أن نصه يمنع منه لأن تمليك الأب ولده وان لم تثبت فيه حقيقة الملكية تقوم شبهة فى درء القصاص إذ القاعدة فى الشريعة : « درءُ الحدود بالشبهات » ، وينبنى على ذلك انه لو كان فى ورثة المقتول ولد القاتل أو ولد ولده فلا قصاص أيضا ، لأنه تعذر إيجاب القصاص للولد فى نصيبه فلا يمكن الإيجاب للباقين لأنه لايتجزأ ، وتجب الدية للكل . (٢)

وقد ذهب الفقهاء فى أمر القصاص من الأب اذا قتل ولده الى المذاهب الآتية :

أولا : ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والشافعية والمشهور عند الحنابلة ورأى عمر ابن الخطاب وربيعة والثورى والأوزاعى الى ان الأب لايقتل بولده ،

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

(٢) أنظر : العقوبات الشرعية لعلى قراعة .

والجد لايقتل بولد ولده ، سواء فى ذلك ولد البنين او ولد البنات ، وعليه الدية فى ماله ، وسووا فى ذلك بين الأب والجد .

ثانيا : قال الحسن بن صالح مثل ذلك للاب المباشر ، أما غير الأب المباشر وهو الجد فإنه اذا قتل ابن ابنه يقتل به ، فهو يفرق فى الحكم بين الأب والجد حتى إنه يجيز شهادة الجد لابن ابنه ، ولايجيز شهادة الأب لابنه .

ثالثا : وذهب عثمان البتى وابن نافع وابن عبدالحكم وابن المنذر وابن حزم الى انه يقتل الوالد بولده .

رابعا : قال مالك : يقتل به ، مع تفصيل فى ذلك بالنسبة لقصد الفعل فقال ان قتله حذفا بالسيف ونحوه لم يقتل به ، وإن ذبحه أو قتله قتلا لايشك فى أنه عمد الى قتله دون تأديبه أقيد به . وضابطه عدم قصده إزهاق الروح أو قصده . (١)

الادلة

ادلة القائلين بعدم قتل الوالد بولده

استدل من قال بعدم قتل الوالد بولده بأدلة من الكتاب والسنة والمعقول :

اولا : الادلة من الكتاب

(أ) ان الله سبحانه وتعالى قال :

﴿وَوَصَّيْنَا
ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ
ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ (٢)

---

(١) يراجع : المغنى جـ٩ ص٣٥٩ ومابعدها ، البدائع جـ١٠ ص٤٧٧٩ ، الشرح الصغير جـ٤ ص٣٧٤ ، أحكام الجصاص جـ١ ص١٤٤ ، أحكام القرطبى مجلد ١ ص٦٢٧ مغنى المحتاج جـ٤ ص١٨ ، المحلى جـ٨ ص٣٤٤ ومابعدها .

(٢) سورة لقمان ، آيتا ١٤ ـ ١٥ .

فأمر بمصاحبة الوالدين الكافرين بالمعروف وأمره بالشكر بقوله تعالى : ﴿ ان اشكر لى ولوالديك ﴾ وقرن شكرهما بشكره تعالى . وذلك ينفى جواز قتله اذا قتل وليا لابنه ، فكذلك ينفى قتله اذا قتل ابنه لأن من يستحق القود بقتل الابن انما يثبت له ذلك من جهة الابن المقتول فإذا لم يستحق ذلك المقتول لم يستحق ذلك منه .

(ب) قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

ولم يخصص فى هذا الأمر حالا بل أمره ذلك أمرا مطلقا عاما ، فغير جائز مع هذا ثبوت حق القود له عليه ، لأن قتله تضاده هذه الأمور التى أمر الله تعالى بها فى معاملة والده .

ثانيا : الادلة من السنة

(أ) استدلوا بحديث عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لايقتل والد بولده » (٢) . وهذا خبر مستفيض مشهور وقد حكم به عمر بن الخطاب بحضرة الصحابة من غير خلاف من واحد منهم ، فكان بمنزلة قوله « لاوصية لوارث » ونحوه فى لزوم الحكم به وكان فى حيز المستفيض المشهور .

وقال الشافعى : « حفظت عن عدد من اهل العلم لقيتهم انه لايقتل الوالد بالولد » وهذا الحديث قال ابن عبدالبر وغيره فيه هو حديث مشهور عند أهل العلم بالحجاز والعراق مستفيض عندهم ، وصححه البيهقى وابن الجارود ، وعليه العمل عند أكثر أهل العلم ، وقال الترمذى : « العمل عليه عند أهل العلم أن الأب اذا قتل ابنه لايقاد » . (٣)

---

(١) سورة الاسراء آيتا ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢) رواه احمد والترمذى وابن ماجه عن عمر مرفوعا .

(٣) الإحكام شرح أصول الأحكام جـ٤ ص٩٢ .

(ب) ماروى عن النبى ﷺ أنه قال لرجل : « أنت ومالك لأبيك » فأضاف نفس الابن الى أبيه كإضافة ماله ، وإطلاق هذه الإضافة ينفى القود . والأب وان كان غير مالك لابنه فى الحقيقة فإن ذلك لايسقط الاستدلال بإطلاق الإضافة المذكورة ؛ لأن القود تسقطه الشبهة وصحة هذه الاضافة شبهة فى سقوط القود ، وكما جاءت هذه الإضافة فى هذا الحديث جاءت فيما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إن أطيب ماأكل الرجل من كسبه ، وان ولده من كسبه » . فسمى ولده كسبا له فكان ذلك شبهة فى سقوط القود .

(ج) ماثبت انه عليه الصلاةوالسلام نهى حنظلة بن ابى عامر الراهب عن قتل أبيه وكان مشركا محاربا لله ولرسوله ، وكان مع قريش يقاتل النبى ﷺ يوم أحد ؛ فلو جاز للابن قتل أبيه فى أى حال لكان أولى الأحوال بذلك حال من قاتل النبى ﷺ وهو مشرك ؛ اذ ليس يجوز ان يكون احد اولى باستحقاق العقوبة والدم والقتل ممن هذه حاله ، فلما نهاه عليه الصلاة والسلام عن قتله فى هذه الحال علمنا أنه لايستحق قتله بحال .

ثالثا : الدليل من المعقول

وهو ماذكره الجصاص فى أحكامه بقوله (١) : « ماحصل من اختلاف الفقهاء فى حكم مال الابن بالنسبة للأب ، فمنهم من يجعل مال الابن لأبيه فى الحقيقة كما يجعل مال العبد لسيده ومتى اخذ منه لم يحكم برده عليه ولو كان عليه دين له لم يحبس به فلو لم يكن فى سقوط القود عنه الا اختلاف الفقهاء فى حكم ماله على ماوصفنا لكان كافيا فى كونه شبهة فى سقوط القود به هذا ولايقال ان حكم القصاص عام يشمل الأب وغيره لأن ماذكرنا من الدلائل كافية فى تخصيص آى القصاص ودالة على أن الوالد غير مراد بها وهذا وإنما قلنا إنه لايقتص من أى أصل اذا قتل فرعه ، سواء كان الأصل ذكرا ، أو كان أنثى وسواء كان الأصل قريبا كالأب أو بعيدا كالجد ، وسواء كان من قبل الأب او كان من قبل الأم لقوله ﷺ : « لايقاد الوالد بولده » . وهو معلل بالجزئية فيتعدى إن علا لأنهم جميعا أسباب فى احيائه فلايكون هو سببا لافنائهم كلا او جزءا لتدخل الأطراف فى امتناع القود فيها كما فى الانفس » .

---

(١) احكام الجصاص جـ١ ص١٤٤ ومابعدها .

والظاهر من كلام الجمهور ان حكم الأم هو حكم الأب ، فاذا قتلت الأم ولدها فلا يقتص منها لأن النص جاء بلفظ الوالد وهى احد الوالدين ، فاستوت فى الحكم مع الأب ، والمعانى التى فى الأب وتمنع القود هى فى الأم ، بل اقوى تأثيرا لأن الأم اقوى شفقة وهى التى حملته وهنا على وهن ، وهو يربى فى بطنها جنينا وفى حجرها طفلا ، وهى التى حضنته وأرضعته ، فضلا عن أنها اولى بالبر فكانت اولى بنفى القصاص .

ويؤكد هذا المعنى ماذكره صاحب تفسير المنار بقوله (١) : « ولايخفى على إنسان ان عاطفة الأم الوالدية اقوى من عاطفة الأب ورحمتها اشد من رحمته وحنانها أرسخ من حنانه ، لأنها ارق قلبا وادق شعورا وان الولد يتكون جنينا من دمها الذى هو قوام حياتها ، ثم يكون طفلا يتغذى من لبنها فيكون له مع كل مصة من ثديها عاطفة جديدة يستلها من قلبها . والطفل لايحب أحدا فى الدنيا قبل أمه ثم انه يحب اباه ولكن دون حبه لأمه وان كان يحترمه اشد مما يحترمها » .

نقول . . . ولذلك جاءت توصية الرسول ﷺ بها ثلاث مرات بينما جاءت توصيته بالأب مرة واحدة ولكن مع كل هذه الاعتبارات ومع ان النبى ﷺ جعل تكريمها فوق تكريم الأب فقد روى عن الإمام احمد ان الام تقتل بولدها إذا قتلته ، وهذا ماجاء فى المغنى (٢) لابن قدامة ومانصه :

« روى عن الإمام احمد مايدل على انه لايسقط (أى القصاص) عنّ الأم . فإن مهنا نقل عنه : أم ولد قتلت سيدها عمدا تقتل . قال : من يقتلها ؟ قال : ولدها . وهذا يدل على أن القصاص على الأم بقتل ولدها . وخرجها أبو بكر على روايتين ؛ إحداهما : أن الأم تقتل بولدها لأنه لا ولاية لها فتقتل به كالأخ ، والصحيح الأول ـ القائل : يسقط القصاص عنها ـ لقول النبى ﷺ : « لايقتل والد بولده » ولأنها أحد الوالدين ، فأشبهت الأب ، ولأنها أولى فكانت أولى بنفى القصاص عنها . والولاية غير معتبرة بدليل استيفاء القصاص عن الأب بقتل الكبير الذى لا ولاية عليه وعن الجد ولا ولاية له (أى عند الحنابلة) . وعن الأب المخالف فى الدين والجدة وان علت فى ذلك كالأم ، وسواء فى ذلك من هى من قبل الأب ، أو من قبل الأم » .

---

(١) تفسير المنار جـ٥ ص٢٩ .

(٢) المغنى لابن قدامة جـ٧ ص٦٦٧ .

يستفاد من هذا أن بعض فقهاء الحنابلة يجعلون عدم القصاص إذا قتل الوالد ولده هو ما للأب من ولاية ، ولاتفسرها بالولاية على المال إنما تفسرها بولاية الدين لأن ولى الدم بالنسبة للولد هو أبوه فكيف يكون مطالباً بالدم وهو المطالب به . ومهما يكن فإن الرواية عن أحمد ليست نصا فى إثبات القصاص إذا قتلت الأم ولدها لأنه لم يكن الموضوع هو قتل الأم لولدها ؛ انما كان الموضوع هو قتل الجارية التى ولدت من مالكها لذلك المالك وهذا غير موضوعنا . وكونه أجاز للولد أن يطالب بالقصاص لأبيه لاينافى الاعتبارات السابقة لأنها معتدية على ابيه فكان البر بأبيه يجيز له طلب القصاص من أمهبالعدل فلا تقابل بين دمه ودمها بل المقابلة بين دم الأم المعتدية ودم أبيه المعتدى عليه (١) .

وظاهر أقوال الفقهاء الذين نفوا القصاص بين الأب والولد فى النفس أنه ينتفى أيضاً فى الأطراف والجروح ، لأنه من المقرر أن شروط القصاص فى الأطراف أن يكون القود ثابتا فى الاعتداء على النفس . ولو كان القصاص فيها منفيا فيكون القصاص فى الاطراف منفيا أيضاً . ولأن شرط القصاص فى الأطراف يلاحظ فيه شرط القصاص فى النفس ويشترط فى النفس آلا يكون المجنى عليه جزءا للجانى .

كما أنه فى حال سقوط القصاص عن الأب والجد والأم يقوم مقام القصاص الدية لأنه لايذهب دم فى الاسلام هدرا .

هذا هو رأى الجمهور فى قتل الوالد ، أو الوالدة للولد ، أو بعبارة أعم فى قتل الأصول لفروعهم .

أدلة الرأى القائل بقصر اسقاط القصاص عن الأب المباشر فقط

استدل الحسن بن صالح بما استدل به من قال بعدم قتل الوالد بولدهإلا أنه قصر الحكم على الوالد المباشر ، فيحمل الحكم الخاص بالوالد عليه ويقتصر عليه ، ومن عداه من الاشخاص كالجد وغيره يطبق عليهم حكم القصاص العام وهو أن من قتل غيره عمدا يقتل به (٢) .

---

(١) يراجع : العقوبة لأبى زهرة ص٤٧٤ وما بعدها .

(٢) يرى الحسن بن صالح أن الجد لايدخل تحت لفظ الوالد . ويرد عليه بأن الحكم يتعلق بأولاده : فلستوى فيه القريب والبعيد ومن ثم كان الجد والدا .

أدلة القائلين بقتل الوالد بولده

استدل القائلون بوجوب قصاص الولد من والده ـ أى أن الوالد يقتل بقتل ولده ـ بأدلة من القرآن والسنة :

(أ) الأدلة من الكتاب : وهى آيات القصاص عامة مثل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٣٢) (٢)

وقوله تعالى : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ (٤٥) ﴾ (٣)

---

(١) سورة البقرة آيتا ١٧٨ ـ ١٧٩ ..

(٢) سورة المائدة آية ٣٢ .

(٣) سورة المائدة آية ٤٥ .

(ب) الأدلة من السنة :

قوله ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » . وغير ذلك من النصوص العامة التى وردت ليشمل حكمها الوالد أو الاجنبى . قالوا : وأما ما ورد من الأحاديث القاضية بعدم قتل الوالد بولده ، فهى أخبار أحاد فلا تقبل معارضة لعمومات القرآن الكريم (١)

أدلة القائلين بالتفرقة بين القصد وعدمه

يخالف مالك الفقهاء الثلاثة . ويرى قتل الوالد بولده إذا انتفت الشبهة فى أنه أراد تأديبه ، أو كلما ثبت ثبوتا قاطعا أنه أراد قتله . فلو أضجعه فذبحه أو شق بطنه أو قطع أعضاءه فقد تحقق أنه أراد قتله وانتفت الشبهة أنه أراد من الفعل تأديبه ، ومن ثم يقتل به ، أما إذا ضربه مؤدبا ، أو خانقا ولو بسيف ، أو حذفه بحديدة أو أشبه فقتله فلا يقتص منه لأن شفقة الوالد على ولده وطبيعة حبه له تدعو دائما إلى الشك فى أنه قصد قتله . وهذا الشك يكفى لدرء الحد عنه فلا يقتص منه وإنما عليه دية مغلظة (٢) .

وقد بين القرطبى فى أحكامه (٣) فقه المالكية وأدلتهم بقوله :

« روى الدار قطنى وأبو عيسى الترمذى عن سراقة بن مالك قال : « حضرت رسول الله ﷺ يقيد للأب من ابنه ، ولا يقيد للابن من أبيه » . قال أبو عيسى : هذا حديث لا نعرفه من حديث سراقة إلا من هذا الوجه وليس إسناده بصحيح

وقد روى هذا الحديث عن عمرو بن شعيب مرسلا . وهذا الحديث فيه اضطراب . والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأب إذا قتل ابنه لايقتل به ، واذا قذفه لايحد . وقال ابن المنذر : اختلف أهل العلم فى الرجل يقتل ابنه عمدا ؛ فقالت طائفة لاقود عليه ، وعليه ديته . وهذا قول الشافعى وأحمد

---

(١) القرطبى مجلد ١ ص٦٢٧ .

(٢) يراجع : المدونة جـ٦ ص١٠٦ - ١٠٨

(٣) القرطبى مجلد ١ص : ٦٣٧ .

واسحاق وأصحاب الرأى ، وقال مالك وابن نافع وابن عبدالحكم يقتل به . وقال ابن المنذر : وبهذا نقول لظاهر الكتاب والسنة ، فأما ظاهر الكتاب فقوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القصاص فى القتلى . . ﴾ . والثابت عن رسول الله ﷺ ﴿ المؤمنون تتكافأ دماؤهم ﴾ ، ولا نعلم خبرا ثابتا يجب به استثناء الأب من جملة الآية » .

ثم بين رأى المالكية بقوله : « لاخلاف فى مذهب مالك أنه إذا قتل الرجل ابنه متعمداً مثل أن يضجعه ويذبحه ، أو يضربه مما لاعذر له فيه ولا شبهة فى ادعاء الخطأ ، أنه يقتل به قولا واحدا . فأما إن رماه بالسلاح أدبا أو خنقا فقتله ، ففيه فى المذهب قولان : يقتل به ، ولا يقتل به وتغلظ الدية . وبه قال جماعة العلماء ، ويقتل الأجنبى بمثل هذا » .

قال ابن العربى : « سمعت شيخنا فخر الاسلام الشاشي يقول فى النظر : لايقتل الأب بابنه ، لأن الأب كان سبب وجوده فكيف يكون هو سبب عدمه » . ويقول ابن العربى : « وهذا يبطل بما اذا زنى بابنته فانه يرجم وكان سبب وجودها وتكون هى سبب عدمه ، ثم اى فقه تحت هذا . ولم لايكون سبب عدمه إذا عصى الله تعالى فى ذلك ؟ . وقد اثروا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يقاد الوالد بولده » . وهو حديث باطل ، فتعلقهم أن عمر رضى الله عنه قضى بالدية مغلظة فى قاتل ابنه ، ولم ينكر أحد من الصحابة عليه . فأخذ سائر الفقهاء رضى الله عنهم المسألة مسجلة (١) وقالوا : لايقتل الوالد بولده . وأخذها مالك محكمة مفصلة فقال : إنه لو حذفه بالسيف وهذه حالة محتملة لقصد القتل وعدمه وشفقة الأبوة شبهة منتصبه شاهدة بعدم القصد للقتل تسقط القود . فاذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فالتحق بأصله . قال ابن المنذر : وكان مالك والشافعى وأحمد وإسحاق يقولون إذا قتل الإبن الأب قتل به » .

رد ومناقشة لكلام القرطبى

إن ذلك الكلام يستفاد منه أن المالكية لا يأخذون بالأحاديث الواردة بمنع قود الوالد بولده ، ويسمون بعضها باطلا . ولم يلاحظوا شهرة العمل بها مع أن شهرة

(١) مسجلة : طلقة .

العمل بها تزكى صحتها . واذا كان فى بعض إسنادها إرسال فالمرسل كان المتقدمون من الفقهاء يأخذون به ولا يعتمدون الا على الفقه ممن ينقل . والإمام مالك كان يأخذ بالمرسل . والذى يرجع إلى الموطأ يجد فيه الكثير من المرسلات (١) ولم يتشكك القرطبى فيما روى عن عمر من أنه كان لايقتص من الوالد لولده ـ وعمر صحابى جليل يؤخذ بعمله وهو ممن اختير للامامة وأعلم الناس بها ـ ولكنه أوله .

والاحتجاج بأن الوالد سبب وجود الولد فلا يصح أن يكون سبب عدمه احتجاج سليم ولا يرد عليه انه ان زنا بابنته رجم . فانه اذا ثبتت سلامة عقله فانه يرجم لأن ذلك حد وهذا قصاص ، والحد حق لله تعالى . فليس السبب هو حق البنت بل السبب هو حق الشرع ومراعاة الفضيلة ، وانتهاكها مع ابنته أشد وأشنع . ولا يصح أن يكون عظم الفاحشة سببا لإسقاطها أو تخفيفها فإن هذا بلاشك ضد الفطرة المستقيمة .

ثم نقول لهم : إنكم اعتبرتم هذا القتل خطأ . والأصل أن الخطأ فيه دية مخففة لادية مغلظة ، وأن الدية المغلظة هى العقوبة البدنية التى تحل محل القصاص ، أى عقوبة العمد . فهل اعتبر مالك الفعل قتلا عمدا ودرأ القصاص للشبهة طبقا لقوله ﷺ : « ادرءوا الحدود بالشبهات » ، ومن ثم رأى القضاء بالدية المغلظة بدلا من القصاص ؛ أم انه اعتبر الفعل قتلا خطأ ورأى تغليظ الدية لشناعة الجريمة ؟ . الراجح أن الفعل يعتبر قتلا عمدا وأن القصاص درء للشبهة المتمكنة فى القصد .

على أنه يمكن القول باعتبار الفعل خطأ ثم تغليظ الدية لشناعة الجريمة . والأم فى ذلك مثل الأب فى الحكم فى حالة تغليظ الدية ، ومثل الوالد الجد . ومثل الولد ولد الولد .

وهناك رأى ثالث بأن مالكا اعتبر الفعل قتلا شبه عمد ، وأنه لم يسلم بالقتل شبه العمد إلا فى هذه الحالة ، وهو رأى له سند فى المذهب . وإنما جاء به أصحابه تعليلا للحكم ، ولاشك أن أحد العقابين السابقين أجدر منه بالقبول وأقرب الى المبدأ الذى قام عليه المذهب (٢) .

---

(١) يراجع : العقوبة لأبى زهرة ص ٤٧٩ .

(٢) يراجع : : التشريع الجنائى الإسلامى لعبد القادر عودة جـ٢ ص : ١١٧ وما بعدها .

نقول : والنتيجة من كل ذلك أن الشرط القاضى بألا يكون المقتول جزء القاتل مختلف فيه على الوجه المذكور . فمالك نظر الى شبهة الفعل أو القصد لأن القصاص وإن كان يجب عند القتل العمد ولكن ليس فى كل الأحوال بل إذا لم توجد شبهة ؛ فإنه عندها يسقط سواء كان القاتل أبا أو أجنبيا . وهو اعتبر شفقة الأبوة شبهة قائمة شاهدة بعدم القصد إلى القتل فيسقط القود للشبهة . أما إذا لم تكن هذه الشبهة موجودة بالمرة بأن أضجع الأب ابنه وذبحه فإنه فى هذه الحالة يكون الأب قد كشف الغطاء عن قصده وهو أنه يقصد قتله وحينئذ ينفذ فيه الحكم العام وهو أن من قتل غيره متعمدا ـ وليس هناك شبهة عدم القصد ـ يقتص منه . بينما نظر الجمهور الى شبهة الجزئية المؤثرة فى شبهة الحق وهى من الأسباب التى تمنع من الحكم بالقصاص .

وبهذه المناسبة يحسن أن نفصل القول عن تطبيق قاعدة دره الحدود بالشبهات فى جريمة القتل :

معنى هذه القاعدة أن كل شبهة قامت فى فعل الجانى أو قصده يترتب عليها درء الحد إذا كانت الجريمة من جرائم الحدود ، ويعاقب الجانى بـدلا من عقوبـة الحد بعقوبة تعزيرية . ومن السهل تطبيق هذه القاعدة فى جرائم الحدود جميعا على هذه الصورة . ولكن تطبيق القاعدة فى جرائم القتل نادر مع إمكانه . فهى تقريبا معطلة التطبيق وإن كانت فى الواقع تطبيق معنى لاصورة ؛ لأن القتل وهو فعل واحد قسم إلى أنواع مختلفة : عمد ، وشبه عمد . وخطأ . ففى العمد إذا قامت الشبهة فى الفعل فإنه لايمكن درء الحد بالشبهة لأن الفعل بعد قيام الشبهة يكون قتلاً خطأ او جرحا . وإذا قامت الشبهة فى القصد فإن الفعل يكون قتلا شبه عمد . وهكذا يمنع تنوع القتل من تطبيق القاعدة . وكذلك إذا كان الفعل قتلا شبه عمد قامت الشبهة فى القتل الخطأ فإن الفعل يعتبر جرحا خطأ . فالشبهة فى القتل تحول نوع القتل الى ما هو ادنى منه وتدرأ الحد الأعلى بـالحد الأدنى ، فكـان القاعدة تطبق معنى لاصورة . وليس لتطبيق القاعدة مجال عند مالك ، لأنه يقسم القتل الى نوعين فقط : عمد وخطأ . لأن مالا يعتبر عمدا عنده يعتبر خطأ . فإذا قامت الشبهة فى القصد أو الفعل اعتبر العمد قتلا خطأ أو جرحا (١) .

---

(١) يراجع : التشريع الجنائى الإسلامى لعبد القادر عودة جـ٢ ص : ١١٧ .

الحالات التى يحتمل فيها قتل الأب لابنه

يلاحظ أن الوالد الذى يقتل ولده يكون لأحد أمور أربعة :

الأول :

يكون الوالد قد أراد تأديبه فقساً وأغلظ فى التأديب . وهذا بإجماع الفقهاء لايقتل . لأن القصد فى الأصل مباح . وتجاوز حد التأديب . ولكن هل يضمن الأب نتيجة فعله هذا ؟ .

اختلف فقهاء الحنفية فيما لو ضرب الأب أو الوصى الصبى للتأديب فمات .

فعند أبى حنيفة يضمن ؛ وعند الصاحبين لا يضمن . ووجه قولهما : أن الأب والوصى مأذونان فى تأديب الصبى وتهذيبه . والمتولد من الفعل المأذون فيه لا يكون مضمونا كما لو عزر الامام إنسانا فمات .

ووجه قول ابى حنيفة : ان التأديب اسم لفعل يبقى المؤَدَّبُ حيا بعده فإذا سرى تبين انه قتل وليس بتأديب . وهما غير مأذونين فى القتل . ولو ضربه المعلم أو الاستاذ فمات ان كان الضرب بغير أمر الاب أو الوصى يضمن لأنه متعد فى الضرب . والمتولد منه يكون مضمونا عليه ، وإن كان بإذنه لا يضمن للضرورة ؛ لأن المعلم إذا علم أنه يلزمه الضمان بالسراية وليس فى وسعه التحرر عنها فيمتنع عن التعليم . فكان فى التضمين سد باب التعليم وبالناس حاجة الى ذلك . فسقط اعتبار السراية فى حقه لهذه الضرورة . وهذه الضرورة لم توجد فى الأب ، لأن لزوم الضمان لا يمنعه عن التأديب لفرط شفقته على ولده فلا يسقط اعتبار السراية من غيره ضرورة (١)

الثانى :

قد يكون القتل لأن الولد شاذ الطباع فاسد الأخلاق قد أرهق أباه من أمره عسرا ؛ كأن استمر على إتلاف زرعه والاعتداء عليه والعيث فى الأرض فسادا فقتله لهذا الاعتبار وقد ذهب سن التأديب . وإن الأخذ بقول عامة الفقهاء فى هذا أعدل وأنصف . وقد قتل الرجل الصالح غلاما فاسدا . ولما سأله موسى « لم

---

(١) يراجع : بدائع الصنائع جـ ١٠ ص : ٤٧٧٩ .

قتلته ، أجابه بقوله كما حكاه سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (١)(٢) .

الثالث :

أن يكون الوالد ضعيف الإرادة غير سليم العقل سلامة تامة . وفى هذه الحال تكون مسئوليته ضعيفة . أو تكون ثمة شبهة فى تحمله التبعة . وإن ذلك قريب الوقوع . لأنه لا يمكن أن يخالف الفطرة سليم العقل إلا نادرا ، وخصوصا إذا كان القاتل هو الأم .

الرابع :

أن يقتل الوالد الولد انتقاما لنفسه أو كيدا لأمه أو ليدفع عن نفسه نفقته كأن تطالب الأم الأب بنفقة الولد فيقتله تخلصا من هذه النفقة وللعناد الآثم . وإنه فى هذه الحال يكون تطبيق مذهب مالك أعدل وأنصف وأشفى لغيظ القلوب المؤمنة وأردع لهذا الآثم ومن على شاكلته (٣) .

بيان موجب قتل الأصل لفرعه

موجب قتل الأصل لفرعه عند من يقول بأنه لا يقاد الوالد بولده أنه تجب الدية فى حال الأب عند قتله ابنه عمدا . إلا أن الحنفية قالوا : تجب فى ثلاث سنين . وقال الشافعى : تجب حالة كبدل الصلح (٤) .

---

(١) سورة الكهف ـ آية ٨٠

(٢) انظر العقوبة لأبى زهرة ص : ٤٨٠

(٣) العقوبة لأبى زهرة ص : ٤٨٠ .

(٤) يراجع : البدائع جـ ١٠ ص ٤٧٧٩ ، مغنى المحتاج جـ ٤ ص : ١٨ . الشرح الصغير جـ ٤ ص : ٣٧٤

وانما وجبت فى مال القاتل . ولم تجب على العاقلة لأن القتل كان عمدا والعاقلة لا تعقل العمد .

وعلى ذلك فإنه لا يجوز الجمع بين العقوبة الأصلية (القصاص) والعقوبة البدلية (الدية) لأن القصاص أصل والدية أو التعزير بدل . فلا يجوز للقاضى أن يحكم بالعقوبة البدلية إلا إذا امتنع الحكم بالعقوبة الأصلية لسبب من الأسباب الشرعية التى تمنع القصاص . فإذا لم يكن هناك مانع وجب الحكم بالعقوبة الأصلية (١) .

فروع مترتبة على ثمرة الخلاف بين الفقهاء

ذكر ابن قدامة (٢) فى المغنى مسائل مترتبة على سقوط القصاص منها :

المسألة الأولى :

لو قتل أحد الابوين صاحبه ولهما ولد لم يجب القصاص لأنه لو وجب لوجب لولدهما ؛ ولا يجب للولد قصاص على والده لأنه اذا لم يجب القصاص عليه فلأن لا يجب له بالجناية على غيره أولى ، وسواء كان الولد ذكرا أو أنثى أو كان للمقتول ولد سواه أو من يشاركه فى الميراث أو لم يكن ؛ لأنه لو ثبت القصاص لوجب له جزء منه ولا يمكن وجوبه . وإذا لم يثبت بعضه سقط كله لأنه لا يتبعض وصار كما لو عفا بعض مستحقى القصاص عن نصيبه منه . فإذا لم يكن للمقتول ولد منهما وجب القصاص فى قول أكثر أهل العلم ومنهم عمر بن عبدالعزيز والنخعى والثورى والشافعى وأصحاب الرأى . وقال الزهرى : لايقتل الزوج بامرأته لأنه ملكها بعقد النكاح فأشبه الأمة .

وللجمهور عمومات النصوص التى وردت فى القصاص . ولأن الزوج والزوجة شخصان متكافئان يحد كل واحد منهما بقذف صاحبه فيقتل به كالأجنبيين .

وقوله : إنه ملكها غير صحيح لأنها حرة ، وإنما ملك منفعة الاستمتاع بها فأشبه المستأجرة . ولهذا تجب ديتها عليه ويرثها وترثه .

---

(١) يراجع : التشريع الجنائى الاسلامى لعبد القادر عودة جـ ٢ ص : ١١٥ .

(٢) يراجع : المغنى جـ ٩ ص : ٣٦٢ : ٣٦٥ .

المسألة الثانية :

ابنان قتل أحدهما أباه والآخر أمه . فإن كانت الزوجية بينهما موجودة حال قتل الأول فالقصاص على قاتل الثانى دون الأول لأن القتيل الثانى (الأم) ورث جزءا من دم الأول (الأب) ، فلما قتل (الثانى) ورثه الأول فصار له جزء من دم نفسه فسقط القصاص عنه ووجب له القصاص على أخيه . فإن قتله ورثه إن لم يكن له وارث سواه لأنه قتله بحق . وإن عفا عنه الى الدية وجبت وتقاصا بما بينهما وما فضل فهو له على أخيه .

وإن لم تكن الزوجية بين الأبوين قائمة فعلى كل واحد منهما القصاص لأخيه : لأنه ورث الذى قتله أخوه وحده دون قاتله . فإن بادر أحدهما فقتل صاحبه فقد استوفى حقه وسقط القصاص عنه لأنه يرث أخاه لكونه قتلا بحق فلا يمنع الميراث إلا أن يكون للمقتول ابن أو ابن ابن يحجب القاتل فيكون له قتل عمه ويرثه إن لم يكن له وارث سواه .

قتل الولد بقتل والده

ماتقدم كان خاصا بصورة ما إذا قتل الوالد ولده . فإن الحكم فيه . ما ذكرناه حسب الاختلاف بين الفقهاء . والرأى الراجح فيه هو أنه لا يقاد الوالد بولده لقوة أدلته النقلية والعقلية والتى تعتمد أصلا على أنه من الأسباب التى تمنع الحكم بالقصاص أن يكون القتيل جزءا من القاتل ولأن الأصل فى الأب وفور الشفقة والحرص على مصلحة فيها ولده . على أنه يجب الأخذ بمذهب مالك فى بعض الأحوال التى يتأكد فيها من قصد الأب التخلص من ولده لجر منفعة له كمطالبة الأم له بنفقة الولد . كما بينا سابقا .

حكم قتل الولد والده

أما الولد إذا قتل والده فإنه يقتص منه لوالده سواء أكان أبا أو أما طبقا للنصوص العامة التى جاءت فى وجوب القصاص ؛ لأن النص الخاص (وهو ما ورد ذكره من أحاديث الرسول التى وردت فى الوالد) لم يخرج من حكم النصوص العامة إلا الوالد فقط . ويعلل الفقهاء هذه التفرقة فى الحكم بين الوالد والولد بأن الحاجة الى الزجر والردع فى جانب الولد أشهر منها فى جانب الوالد ، ولأن الوالد

يحب ولده لولده لا لنفسه دون أن ينتظر نفعا منه الا أن يحيى ذكره ، وهذا يقتضى الحرص على حياته . أما الولد فيحب والده لنفسه لا لوالده ، أى أنه يحبه لما يصل اليه من منفعة عن طريقه ، وهذا لا يقتضى الحرص على حياة والده لأن مال والده كله يؤول اليه بعد وفاته . وحبه لنفسه يتعارض مع الحرص على حياة والده (١) .

ويعلل البعض التفرقة فى الحكم بأن الوالد كان سببا فى ايجاد الولد فلا يصح ان يكون الولد سببا فى عدمه . وهو تعليل يراه البعض بعيدا عن الفقه لأن الأب إذا زنى بابنته يرجم فتكون سبب اعدامه مع انه سبب وجودها .

والقياس هنا بالطبع قياس مع الفارق . اذ ان رجم الأب فى حالة الزنى ليس من فعل الابنة وانما هو اقامة لحد من حدود الله . واقامته فى الأب انما لسبب فعل قام به هو واتى به محرما يوجب اقامة الحد . فالرجم لم يجر لحق الابنة وانما لحق الشرع .

والقول بقتل الولد بوالده ، وهو قول عامة أهل العلم ومنهم مالك والشافعى واسحاق واصحاب الراى :) لان الاثار الواردة بمنع القود موضوعها القصاص من الاصل لاجل الفرع ، وليسا متشابهين . والمعانى مختلفة . والدليل على ذلك ما يأتى :

أولا : عمومات القصاص من غير فصل بين أن يكون القاتل ولد المقتول او غير ولده . واختص منها الوالد بالنص الخاص به فبقى من عداه داخلا تحت العموم ومنهم الولد .

ثانيا : أن القصاص شرع لتحقيق حكمة الحياة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ وذلك يكون بالزجر والردع . والحاجة الى الردع فى جانب الولد لا فى جانب الوالد لما سبق أن أوضحنا مما يبين الفرق بين عاطفة الوالد نحو ولده ، والولد نحو والده وأن هذا ينتج أن يكون ثمة بينهما فرق فى القود .

ولكن مع هذا رويت رواية غريبة عن الامام أحمد ذكرها ابن قدامة فى المغنى (٢) وهى أنه لايقتل الولد بقتل أحد ابائه أو أجداده أو جداته لأنه يجب

---

(١) يراجع : بدائع الصنائع للكاسانى جـ١٠ ص : ٤٧٧٩ وما بعدها .
(٢) يراجع : المغنى جـ٩ ص : ٣٦٥ .

التساوى فى المعاملة ، فكما لايقتل الوالد بولده فكذلك لايقتل الولد بوالده ، ولأنه ولى دمه وهو أولى الناس بالمطالبة ، ولأن حق النسب الذى أسقط القود فى الوالد بولده هو الذى يربط الولد بأبيه فيثبت فى اعتداء الثانى ما أثبته فى اعتداء الأول .

ولكن المذهب غير هذه الرواية الغريبة وهو مما أجمع عليه الفقهاء وذلك لأن الاستثناء مقصور على قتل الأصول لفروعهم . وليس الاعتداء من الفروع فيه معنى الاعتداء من الأصول ، فلا تثبت المقايسة بينهما : إذ أن الأب اعظم حرمة والاعتداء عليه أفحش . واذا كان الوالد يقادله من الاجنبى فأولى أن يقاد له من ولده الذى كان يجب ان يراعى حرمته وتوصية الولد بالوالدين تتكرر فى القرآن الكريم وفى وصايا رسول الله ﷺ ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا ومعظمها فى حالة الوأد وهى حالة خاصة فى ظروف خاصة ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد مع والديه فالفطرة مدفوعة الى رعاية الجيل الناشيء لضمان امتداد الحياة كما يريدها الله وان الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما واعصابهما واعمارهما ومن كل مايملكان من عزيز وغال فى غير تأفف ولا شكوى فأما الوليد فهو فى حاجة الى الوصية المكررة ليلتفت الى الجيل المضحى المدبر المولى الذاهب فى ادبار الحياة ومن يقتل أباه أو أمه يرتكب امرا إذا ؛ اذ أن الله تعالى قد منع الولد من ان يقول لأبويه اف ، فقال تعالى : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

فكيف يسوغ لنفسه ان يقتلهما او احدهما ولا يقتص منه (٢) .

---

(١) سورة الإسراء - آيتا ٢٣ - ٢٤ .

(٢) يراجع : تصوير العلاقة بين الوالدين والأولاد ولماذا وصى الله الولد بالوالدين ولم يوص الوالدين بالولد ظلال القرآن لسيد قطب جـ٢١ ص : ٧١ وما بعدها .

المبحث الثالث عشر

الميراث

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) ﴾

« سورة النساء - آية ٧ »

الميراث

القرابة والميراث

من أسباب الميراث فى الشريعة الاسلامية القرابة ، وهى السبب الاول للميراث . فالأقرباء يتعاونون فى حمل تبعات الحياة ، ويتشاركون فى الحقوق والواجبات مع اختلاف كبير ، او حسب درجة القرابة وقوتها فالواحد منهم يكون عونا للآخر فى كل ماينوبه ، ويساعده بذات نفسه وماله ، ويشعره بأنه معه فى السراء والضراء .

ومن ناحية اخرى : فالوراثة خلافة الحى لقريبه الذى لحق بربه ، حتى أن حياته لتعتبر امتدادا لحياته ولهذا كان بديهيا ان يكون للقريب نصيب من تركة قريبه ، وصدق الله العظيم اذ يقول : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ (١) .

يقول القرطبى (٢) إن فى هذه الآية فوائد ثلاثا :

الأولى : بيان علة الميراث وهى القرابة .

الثانية : عموم القرابة كيفما تصرفت من قريب او بعيد .

الثالثة : اجمال النصيب المفروض .

---

(١) سورة النساء - آية ٧ .

(٢) القرطبى مجلد ٢ ص : ١٦١٥ .

فالقرابة الحقيقية : هى كل صلة سببها الولادة او رابطة النسب التى تربط الشخص بأصوله وفروعه وحواشيه المتفرعة عن أصله ، ويشمل ذلك الأنواع الثلاثة من الوراثة بالقرابة وهم : أصحاب الفروض النسبية ، والعصبة النسبية ، وذوو الأرحام (١) .

أ ـ أما أصحاب الفروض النسبية : فهم طائفة من الأقارب قدرت لهم الشريعة انصبة معينة فى التركة وهى : النصف والثلثان ، والثلث ، والسدس . وهم عشرة من الورثة بالقرابة : الأب ، والأم ، والجد الصحيح ، والجدة الصحيحة ، والبنت الصلبية ، وبنت الابن مهما نزل ابوها ، والاخت الشقيقة ، والاخت من أب ، والأخ من الأم ، والاخت من الأم .

ب ـ وأما العصبة النسبية : فهم طائفة من الأقارب لم يقدر لهم نصيب محدود وانما يأخذون التركة إذا انفردوا بها بجهة واحدة ، وهى جهة العصوبة ؛ أو يأخذون الباقى بعد اصحاب الفروض ، كالابن والاب والجد والعم .

جـ ـ وأما ذوو الأرحام : فهم بقية الأقارب سوى اصحاب الفروض والعصبة ؛ مثل ابن البنت ، والخال ، والعمة ، والخالة ، ونحوهم .

وقبل ان نبين ميراث الأصول من الفروع ، والفروع من الأصول تفصيلا ، نود أن نذكر ماأجمله ابن رشد فى موضوع الميراث وخصوصا مايتعلق بالمواضع المتفق عليها والمختلف فيها من ميراث الأصول والفروع وهو مايهمنا فى بحثنا .

يقول ابن رشد (٢) : «النظر فى هذه المسألة بيان من يرث ومن لايرث ؟ ومن يرث هل يرث دائما ؟ والسبيل الى ذلك بأن يذكر حكم جنس من اجناس الورثة إذا انفرد ذلك الجنس ، وحكمه مع سائر الأجناس الباقية . مثال ذلك : أن ينظر الى الولد إذا انفرد كم ميراثه ؟ ثم ينظر حاله مع سائر الاجناس الباقية من الوارثين » . ثم فصل ابن رشد الأجناس الوارثة الى ثلاثة أقسام منها : ذو النسب أو القرابة . فأما ذو النسب فمنها متفق عليه . ومنها مختلف فيه فأما المتفق عليها فهى الفروع أى الأولاد والأصول : أى الآباء والأجداد ذكورا كانوا أو إناثا وأما المختلف فيهم فهم الأرحام وهم من لا فرض لهم .

---

(١) أحكام المواريث فى الشريعة الاسلامية لعيسوى احمد عيسوى ص : ٥٢ .

(٢) بداية المجتهد جـ٢ ص :٢٣٨ .

اولا : ميراث الاصول

١ـ ميراث الأب

يقول ابن راشد (١) « أجمع العلماء على أن الأب إذا انفرد كان له جميع المال وأنه اذا انفرد الأبوان كان للأم الثلث ، وللأب الباقى . وأجمعوا على أن فرض الأبوين من ميراث ابنهما إذا كان للإبن ولد أو ولدان السدسان أى لكلٍ واحد منهما السدس لقوله تعالى :

﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴿١١﴾ ﴾(٢)

والجمهور على أن الولد هو الذكر دون الأنثى وخالفهم فى ذلك من شذ وأجمعوا على أن الأب لا ينقص مع ذوى الفرائض عن السدس وله ما زاد » .

من هنا نرى أن للأب ثلاث حالات : الإرث بالفرض وحده والإرث بالفرض والتعصيب والإرث بالتعصيب فقط .

والأصل فى ذلك كله قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ ولأبويه ـ أى أبوى المتوفى ـ لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾(٣) .

الحالة الأولى :

أنه يرث سدس الباقى من التركة بعد الدين والوصية باعتباره صاحب فرض فقط . وذلك إذا كان للمتوفى ابن أو ابن إبن وإن نزل : سواء ترك الميت فرعا وارثا من الإناث أو لم يترك واحدة منهن فهنا نجد تأثير الابن وهو عصبة ، وتقديمه على عصبة الأبوة ، والاكتفاء بإعطاء الأب فرضه المقدر وهو السدس فقط بينما لا نجد تأثيرا من البنت لأنها صاحبة فرض فلا ضرر من وجودها مع الاب : بل بوجودها نرى استفادة الأب كما فى الحالة الثانية .

---

(١) بداية المجتهد جـ٢ ص : ٢٣٨
(٢) سورة النساء ـ آية ١١
(٣) سورة النساء ـ آية ١١

الحالة الثانية

إن كان للميت بنت أو بنت ابن وإن نزل ، كان للأب السدس فرضا والباقي بعد أنصبة أصحاب الفروض بطرق التعصيب إن كان هناك صاحب فرض ويأخذ باقي التركة إذا انفرد وحده مع البنت بالإضافة الى فرضه وهو السدس وهذا كما اذا ترك المتوفى ابنته وأباه فإن للبنت النصف فرضا . وللأب السدس فرضا ثم يكون له الباقي وهو الثلث أيضا باعتباره عصبة .

الحالة الثالثة

أن يرث الباقي بعد أصحاب الفروض : إن بقى شيء من التركة بعد سهامهم بطريق التعصيب فقط وهذا إن لم يكن للميت ولد مطلقا لا ذكر ولا أنثى أو كان له فرع لايرث بطريق الفرض أو التعصيب كبنت البنت أو ابن البنت اللذين هما من ذوى الأرحام . وذلك مثلا كما اذا ترك أبويه فقط فإن للأم الثلث فرضاً والباقي للأب تعصيبا .

فهنا نجد استفادة الأب بباقي التركة عن طريق التعصيب إذا لم يوجد للمتوفى فرع ذكر عنه في العصبة .

وقد تضمنت الآية ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ﴾ .

بيان حالة الأب والأم في الميراث عند وجود الولد

قال الجصاص في أحكامه (١) : « فرض تعالى لكل واحد من الأبوين مع الولد السدس ، وأبهم الولد فكان الذكر والأنثى فيه سواء ؛ لأن اسم الولد ينتظمها . إلا أنه لاخلاف إذا كان الولد بنتا لاتستحق أكثر من النصف ، لقوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ⑪ ﴾(٢)

فوجب أن تعطى النصف بحكم النص ، ويكون ذلك تخصيصا للفظ الولد في الآية بأنه الذكر ، فإن مات رجل وترك إبنة وأبوين فللابنة النصف وللأبوين

(١) أحكام الجصاص جـ٢ ص : ٨١

(٢) سورة النساء ـ آية ١١

السدسان ، وما بقى فالأقرب عصبة وهو الأب لقول رسول الله ﷺ « ما أبقت الفروض فلأولى رجل ذكر » فاجتمع للأب الاستحقاق بجهتين : التعصيب والفرض ، وهذا فى حالة وجود فرع أنثى ، وإن كان الولد ذكرا فللأبوين السدسان بحكم النص و الباقى للإبن لأنه اقرب تعصيبا للأب ، ثم بين الله تعالى الحالة الثالثة للأب بقوله .

﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ (١)

فأثبت الميراث للأبوين بعموم اللفظ ثم فصل نصيب الأم وبين مقداره بقوله : ﴿ فلأمه الثلث ﴾ ، ولم يذكر نصيب الأب فاقتضى ظاهر اللفظ للأب الثلثين إذ ليس هناك مستحق غيره » .

وفسره القرطبى فى أحكامه بقوله : « وهذا كما تقول لرجلين » : هذا المال بينكما . ثم تقول لأحدهما : أنت يا فلان لك منه ثلث ؛ فإنك حددت للآخر منه الثلثين بنص كلامك . ولأن قوة الكلام فى قوله : ﴿ وورثه أبواه ﴾ يدل على أنهما منفردان عن جميع أهل السهام من ولد وغيره وليس فى هذا اختلاف » (٢) .

ثم أضاف : « وعلى هذا يكون الثلثان فرضا للأب مسمى لايكون عصبة » .

وذكر ابن العربى أن المعنى فى تفضيل الأب بالثلث عند عدم الولد للذكورية ووجوب المؤونة عليه ، وثبتت الأم على سهم لأجل القرابة ، ورد القرطبى : « وهذا منتقض ، فإن ذلك موجود مع حياته فلم حرم السدس ؟ والذى يظهر أنه انما حرم السدس فى حياته ارفاقا بالصبى وحياطة على ماله إذ قد يكون اخراج جزء من ماله إجحافا به أو أن ذلك تعبد وهو أولى مايقال »(٣).

ومما تجب ملاحظته فى حالات ميراث الأب : أن الأب لايحجب حجب حرمان فهو وارث أبدا مالم يكن محروما لمانع من موانع الميراث . وكذلك لايحجب حجب نقصان لأن حجب النقصان لا يكون إلا للوارث الذى له فرضان أعلى وأدنى كالأم والزوجين : فالأم لها (الثلث والسدس) والزوج له (النصف والربع) ، والزوجة لها (الربع والثمن) . أما الأب فليس له إلا فرض واحد

---

(١) سورة النساء - آية ١١

(٢) القرطبى مجلد ٢ ص : ١٦٤١

(٣) القرطبى مجلد ٢ ص : ١٦٤١

وهو السدس . وكذلك يجب مراعاة أن الأب لا يرد عليه لأنه وان كان صاحب فرض فى بعض الحالات فهو عاصب فى البعض الآخر ، ولا رد مع وجود العاصب(١) .

٢ـ ميراث الجد

المراد بالجد هو الصحيح ، وهو أبو الأب وإن علا ، ومعنى كونه صحيحا أن اتصاله بالشخص ليس بواسطة الأنثى . فإن كان اتصاله بواسطة الأنثى كأبى الأم وأبى أم الأم وأبى أم الأب فلا يكون جدا صحيحا ولايرث بالفرض ولا بالتعصيب ، وانما هو من ذوى الأرحام الذين لايرثون إلا اذا انعدم أصحاب الفروض النسبية والعصبة النسبية .

وللجد الصحيح فى الميراث وضعان ؛

الأول : ألا يكون معه أحد من الأخوة والأخوات لأبوين أو لأب .

الثانى : أن يكون معه واحد أو أكثر من هؤلاء .

والذى يهمنا فى بحثنا هو الوضع الأول : لنرى تأثير الفرع الوارث على الأصل الوارث . وفى هذا الوضع يأخذ حكم الأب فى أحواله الثلاث المتقدمة ويحجب به إذا وجد ، فتكون له حينئذ أحوال أربع :

أ ـ الارث بطريق الفرض وحده : وذلك اذا كان المتوفى ـ وهو ابن ابنته أو بنت ابنه ـ قد ترك ابنا أو ابن ابن أو اسفل ؛ فيكون للجد سدس التركة فرضا . فإذا مات شخص عن زوجة ، وابن ، وجد ، كان للزوجة الثمن فرضا لوجود الفرع الوارث ، وللجد السدس فرضا ، والباقى للابن تعصيبا .

ب ـ الارث بطريق التعصيب وحده : وذلك اذا لم يكن للمتوفى فرع وارث أصلا لا مذكر ولا مؤنث . ويأخذ الجد كل المال ، أو ما بقى منه بعد أصحاب الفروض إن كان منهم أحد ؛ مثل ما إن مات شخص عن زوجة وجد ، كان للزوجة الربع فرضا وكان للجد الباقى بطريق التعصيب . واذا مات ولم يترك سوى جده فللجد جميع التركة .

---

(١) يراجع : أحكام المواريث لعيسوى أحمد عيسوى ص : ١٢٢

ج ـ الارث بالفرض والتعصيب معا : وذلك اذا كان للمتوفى فرع وارث مؤنث . مثال : مات شخص عن زوجة وبنت وجد ؛ فللزوجة الثمن لوجود الفرع الوارث وللبنت النصف فرضا ، وللجد السدس فرضا والباقى تعضيبا .

د ـ يحجب عن الميراث عند وجود الأب الوارث (ابنه) ؛ مثل ما اذا مات شخص عن أب وجد ، كان الجد محجوبا عن الميراث وكانت التركة كلها للأب لأنه أقرب عصبة الى الميت من الجد . وكذلك الحكم فى أبى الأب مع أبى الأب فان الأول يحجب الثانى .

والأصل فى هذا أنه اذا كان لشخص قريبان قرابتهما من جنس واحد كالبنوة والأبوة وكان أحدهما يدلى فى القرابة بواسطة الآخر فانه يحجب به من الميراث فى ذلك الشخص ؛ وذلك كالجد مع الأب ، وأبى الجد مع الجد ، وأم الأم مع الأم ، وابن الإبن مع الإبن (١) .

ومعنى هذا أن الجد يقوم مقام الأب فى هذه الحالات عند عدم وجوده ، وقد جاء فى القرآن اطلاق لفظ الأب عليه فى آيات غير قليلة . ومن هذه الايات قوله تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾ (٢) .

وبديهى أن سيدنا ادم ليس أبا حقا مباشرا لأى واحد منا ، لأنه الجد الأعلى ، ومنها قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام :

﴿ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ ٦ ﴾ (٣) ،

مع أن الأولين كانا جدين .

---

(١) يراجع : التركة والميراث فى الاسلام د. محمد يوسف موسى ص : ٢١٠

(٢) سورة الأعراف ـ آية ٣١

(٣) سورة يوسف ـ آية ٦

وبين القرطبي اختلاف العلماء في تفسير لفظ « لأبويه » في قوله تعالى : ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس إن لم يكن له ولد ﴾ وهل يتناول الجد أم لا فقال (١): قوله تعالى ﴿ لأبويه ﴾ أى لأبوى الميت . والأبوان تثنية الأب والأبة ولم يدخل في قوله تعالى : ﴿ ولأبويه ﴾ من علا من الآباء دخول من سفل من الأبناء في قوله :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَـٰدِكُمۡ ⑪ ﴾(٢) لأن قوله : ﴿ ولأبويه ﴾ لفظ مثنى لا يحتمل العموم والجمع ايضا بخلاف قوله : ﴿ أولادكم ﴾ ، والدليل على صحة هذا قوله تعالى : ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾(٣) . والأم العليا جدة ولا يفرض لها الثلث بإجماع . فخروج الجدة عن هذا اللفظ مقطوع به . وتناوله للجد مختلف فيه : فمن قال إنه أب وحجب به الأخوة يجعلون الجد عند عدم الأب كالأب سواء يحجبون به الأخوة كلهم ولا يرثون معه شيئا ، والحجة لهم قوله تعالى : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾(٤) ﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم ﴾ . وذهب بعض العلماء إلى توريث الجد مع الأخوة . وكان على يشرك بين الأخوة والجد في السدس ، ولا ينقصه شيئا مع ذوى الفرائض وغيرهم . وأجمع العلماء على أن الجد لا يرث مع الأب . وابن الابن يحجب أباه ، وأنزلوا الجد بمنزلة الأب في الحجب والميراث اذا لم يترك المتوفى أبا أقرب منه في جميع المواضع . اهـ بتصرف .

أما الموضع الثانى : وهو وجود الجد مع الاخوة الاشقاء أو الأب ، فلا علاقة له بدراستنا (٥).

٣ـ ميراث الأم

لاترث الأم بالتعصيب مطلقا ، لأنه لا يوجد من يعصبها ، فهى لاترث الا باعتبارها صاحبة فرض بينه القرآن الكريم حيث يقول الله عز وجل : ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس ﴾(٦). ومن هذا يتبين تصريح

---

(١) القرطبي مجلد ٢ ص: ١٦٤١
(٢) و(٣) سورة النساء ـ آية ١١
(٤)سورة الحج ـ آية ٧٨
(٥) يراجع اختلاف الفقهاء في اجتماع الجد مع الاخوة في الميراث في كتاب منهاج الطالب في المقارنة بين المذاهب د . عبدالسميع امام ص: ٣٠٨ وما بعدها ومغنى المحتاج جـ٣ ص: ٥
(٦) سورة النساء ـ آية ١١

النص القرآنى أن فرض الأم يكون الثلث أحيانا ، وقد تحجب حجب نقصان من الثلث الى السدس . فهى اذن لاتزاد على الثلث الا عند الرد ، ولا تنقص عن السدس الا عند العول ، والثلث قد يكون أحيانا ثلث جميع التركة وقد يكون ثلث الباقى بعد فرض أحد الزوجين الذى يكون فى الميراث معها ، ولكن اذا كان فرضها السدس كان سدس التركة جميعها ، فلها اذن ثلاث حالات :

الحالة الأولى :

ترث فيها الثلث بشرطين : أولهما : عدم الولد ، وولد الابن من الذكور والاناث ، والثانى : عدم الاثنين فصاعدا من الأخوة والأخوات من أى الجهات ذكورا كانوا أو اناثا ، أو ذكورا واناثا فلها فى هذه الحال الثلث لاخلاف نعلمه بين أهل العلم .

الحالة الثانية :

لها السدس اذا لم يجتمع الشرطان ، بل كان للميت ولد ، أو ولد ابن او اثنان من الاخوة والأخوات فى قول جمهور الفقهاء ، وقال ابن عباس : « لاتحجب الام من الثلث الى السدس من الاخوة والأخوات الا ثلاثة » وحكى ذلك عن معاذ ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ فان كان له اخوة فلأمه السدس ﴾ وأقل الجمع الثلاثة . وروى ان ابن عباس قال لعثمان رضى الله عنه : « ليس الأخوان اخوة فى لسان قومك فلم تحجب بهما الأم ؟ » . فقال : « لااستطيع ان أرد شيئا كان قبلى ومضى فى البلدان وتوارث الناس به » .

واستدل جمهور الفقهاء بقول عثمان هذا فإنه يدل على أنه اجماع ثم قبل مخالفة ابن عباس ، ولأن كل حجب يتعلق بعدد كان أوله اثنين كحجب البنات بنات الابن ، والأخوات من الأبوين الاخوات من الأب .

والأخوة تستعمل فى الاثنين : قال الله تعالى :

﴿ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (١)

وهذا الحكم ثابت فى أخ وأخت ، ومن أهل اللغة من يجعل الاثنين جمعا حقيقة ،

---

(١) سورة النساء - آية ١٧٦ .

ومنهم من يستعمله مجازا فيصرف اليه بالدليل ، ولا فرق فى جمعها بين الذكر والانثى لقوله تعالى : « إخوة » وهذا يقع على الجميع بدليل قوله تعالى ﴿ فإن كانوا إخوة رجالا ونساء ﴾ ففسرهم بالرجال والنساء (١) .

وذكر ابن رشد(٢) رأيا ثالثا لبعض المتأخرين ؛ وهو أن الأم لاتقل عن الثلث الى السدس بالأخوات المنفردات ، لأنهم زعموا انه لاينطبق عليهن اسم الاخوة إلا ان يكون معهن أخ لموضع تغليب المذكر على المؤنث ؛ اذا اسم الإخوة هو جمع والأخ مذكر ، ويرد عليهم بما استدل به الجمهور من الأدلة السابقة .

الحالة الثالثة :

أن ترث ثلث الباقى فى المسألتين الغراوين (٣)فى صورتيهما : وهما زوجة وأبوان ، وزوج وأبوان .

قال الجمهور فى الأولى : للزوجة الربع ، وللأم ثلث مابقى وهو الربع من رأس المال .

وللأب مابقى وهو النصف وقالوا فى الثانية : للزوج النصف ، وللأم ثلث مابقى وهو السدس من رأس المال ، وللأب مابقى وهو السدسان وهو قول زيد والمشهور من قول على رضى الله عنه .

وقال ابن عباس فى الأولى : للزوجة الربع من رأس المال . وللأم الثلث منه ايضا لانها ذات فرض ، وللأب مابقى لأنه عاصب .

وقال فى الثانية : للزوج النصف ، وللأم الثلث لانها ذات فرض مسمى وللأب مابقى ، والى هذا ذهب الظاهرية ، والشيعة الامامية (٤) .

وقد روى أن ابن عباس لقى زيدا رضى الله عنهما فقال : نشدتك الله هل تجد فى كتاب الله ثلث مابقى ؟ فقال زيد : لا ولكنى قلت ذلك برأيى . فقال ابن عباس : كتاب الله أحق ان يؤخذ به من رأيك .

---

(١) يراجع : المغنى جـ ٧ ص ١٦ - ١٧ ، مغنى المحتاج جـ ٣ ص : ١٥

(٢) بداية المجتهد لابن رشد جـ ٢ ص : ٣٤٢

(٣) سميتا كذلك لشهرتهما مع ما فيهما من خلاف ، وربما لوضوح الحق فيهما

(٤) انظر : المحلى جـ ٩ ص : ٢٦٠ - ٢٦٢ ، المغنى ج ٧ ص : ٦٤ وما بعدها .

وعمدة الجمهور ان الأب والأم لما كانا اذا انفردا بالمال كان للأم الثلث وللأب الباقى ، وجب أن يكون الحال كذلك فيما بقى من المال ، وكأنهم رأوا ان يكون ميراث الأم أكثر من ميراث الأب خروجا عن الأحوال .

وعمدة الفريق الآخر : أن الأم ذات فرض مسمى ، والأب عاصب ، والعاصب ليس له فرض محدد مع ذى الفروض بل يقل ويكثر .

قال ابن رشد (١) : « وما عليه الجمهور من طريق التعليل أظهر ، وما عليه الفريق الثانى مع عدم التعليل أظهر ، وأعنى بعدم التعليل ههنا أن يكون أحد سببى الإنسان أولى بالايثار : أعنى الأب من الأم » .

فتعليل الجمهور يبنى على أن الاساس فى الميراث هو عدم مساواة الذكر مع الانثى ، وأن للذكر مثل حظ الانثيين ، ونجد هذا فى الزوج والزوجة ، والابن والبنت إذا ورثا بالتعصيب ، فكذلك ينبغى أن يكون هذا فى الأب والأم فى هاتين المسألتين . أى ان يكون الأبوان فى الأصول كالابن والبنت فى الفروع : وذلك لأن كلا منهما متصل بالميت من غير واسطة ، فلا يجوز التسوية بين الابن والبنت ولايجوز تفضيلها عليه ، بل يجب أن يكون له ضعف نصيبها كما هو صريح قوله تعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴿١١﴾ ﴾ (٢) .

وهذا لايتحقق له الا بأن يكون للأم ثلث الباقى بعد نصيب الموجود من الزوجين فى المسألتين الغراوين .

وتعليل ابن عباس ينبنى على ناحيتين : ناحية نفسية ، وهى تفضيل الأم فى البر على الأب كما وصى بذلك الرسول ﷺ فى الحديث المعروف حينما سأله رجل فقال : « يارسول الله من أحق بحسن صحبتى ؟ فقال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال ثم من : قال : أبوك » وناحية مادية وهى ان القرآن نفسه سوى بين الأب والأم فى الميراث فى حالة لاخلاف فيها لان الحكم فيها ثابت بالنص الصريح . وهى ان لكل منهما السدس مما ترك الميت اذا كان معهما فى الميراث ولد له وارث ، ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ﴾ . وهذا الرأى نميل إليه لقوة أدلته ووجاهتها .

---

(١) بداية المجتهد : جـ ٢ ص : ٣٤٢

(٢) سورة النساء آية ١١

٤ـ ميراث الجدة

لم يرد ميراث الجدة فى القرآن فى رأى فقهاء الصحابة والتابعين وفى رأى أصحاب المذاهب الأربعة الذين أتوا من بعدهم . وانما ثبت مقدار نصيبها من الميراث بالإجماع على أساس من سنة الرسول ﷺ .

فقد روى قبيصة بن ذؤيب قال : « جاءت الجدة الى أبى بكر فسألته عن ميراثها فقال : مالك فى كتاب الله شيء ، وما علمت لك فى سنة رسول الله ﷺ شيئا ، فارجعى حتى أسأل الناس . فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدس . فقال : هل معك غيرك ؟ فقال : محمد ابن مسلمة الأنصارى . فقال مثل ما قال المغيرة ، فأنفذه لها أبوبكر » . قال : « ثم جاءت الجدة الأخرى إلى عمر فسألته ميراثها فقال : مالك فى كتاب الله شيء . ولكن هو ذاك السدس فإن اجتمعتما فهو لكما . وأيكما خلت به فهو لها » . (١)

وفى مسند الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت أن النبى ﷺ قضى للجدتين من الميراث بالسدس بينهما . وفى سنن أبى داود عن أبى بريدة عن أبيه أن النبى ﷺ جعل السدس إذا لم يكن دونها أم (٢) .

ونرى من هذا أن ميراث الجدة هو السدس ، وأن السدس للاثنتين أو أكثر منها بالسوية ، وأن الجدة إنما ترث إذا لم تكن أم المتوفى موجودة . كذلك بالقياس على هذا لا ترث أم الأب إذا كان الأب حيا .

والجدة التى هى من أصحاب الفروض هى الجدة الصحيحة ، أما غير الصحيحة فهى من ذوى الأرحام المؤخرين فى الإرث عن أصحاب الفروض .

والجدة الصحيحة هى التى لم يتخلل فى نسبتها إلى الميت جد غير صحيح بأن لم يكن فى نسبتها الى الميت جد أصلا . وذلك كأم الأم ، وأم أم الأم ، وأم الأب وأم أم الأب . والجدة غير الصحيحة هى التى يكون فى نسبتها الى الميت جد غير صحيح كأم أبى الأم ، وأم أبى أم الأب .

ونخلص من ذلك إلى مايلى :

أ ـ أن السدس هو فرض الجدة ، واحدة أو أكثر يقسم بينهن بالسوية .

---

(١) رواه الخمسة إلا النسائى وصححه الترمذى ، يراجع : نيل الأوطار جـ٦ ص : ٦٠ .
(٢) نفس المرجع : جـ٦ ص : ٦٠ وما بعدها .

ب ـ أن الأم تحجب كل جدة أموية أو أبوية ؛ تحجب الأموية لأن هذه تدلى الى الميت بواسطة الأم التى هى أول أصل له من الاناث ، ولأن الجدة أم مجازا فلا ترث مع وجود الأم الحقيقية ، ولأن الأثر الذى أثبت ميراث الجدة كان فى حادثة ليست الأم موجودة فيها ، بل إن الحديث الذى رواه بريدة يثبت أن الرسول ﷺ جعل للجدة السدس إذا لم يكن دونها الأم (١) .

جـ ـ والأب يحجب الجدة أيضا . ولكنه لا يحجب إلا الجدة التى تكون من جهته أى الجدة الأبوية ، لأنها تدلى أو تنتسب للميت بواسطته ، ومن أدلى بوارث يحجب عند وجوده كما تقول القاعدة المشهورة .

د ـ أن الجدة الأقرب تحجب الجدة الأبعد منها مهما كانت جهة كل منهما أى من جهة الأم أو الأب . وعلى هذا لو ترك الميت أم أم أمه ، وأم أبيه كان السدس للثانية وحدها لأنها أقرب من الأولى إلى الميت (٢) .

ثانيا : ميراث الفروع

١ ـ ميراث الابن وان نزل

الإبن وهو الفرع عصبة لأبيه وهو الأصل . والعصبة هو الوارث بغير تقدير . واذا كان معه ذو فرض أخذ ما فضل عنه قل أو كثر . وإن انفرد اخذ المال كله . وإن استغرقت الفروض المال سقط . وهو كل ذكر من الأقارب ليس بينه وبين المتوفى أنثى . وهم عشرة ، منهم : الابن وابنه ، والأب وأبوه ، والأخ وابنه ، إلا من الأم ، والعم وابنه كذلك . وأحقهم بالميراث أقربهم ، ويسقط من بعده لقول النبى ﷺ : « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى فلأولى رجل ذكر » (٣) . وأقربهم الابن ، ثم ابنه وان نزل ، لأن الله سبحانه قال : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ . ففى الآية : بيان فرض الأولاد

---

(١) المغنى جـ٧ ص : ٥٢ .

(٢) يراجع أحكام ميراث الجدة تفصيلا فى : المغنى لابن قدامة جـ ٧ ص : ٥٢ وما بعدها ، بداية المجتهد لابن رشد جـ ٢ ص : ٣٤٣ ـ ٣٤٥ . المحلى لابن حزم جـ ٩ ص : ٢٧٢ وما بعدها ، ومغنى المحتاج جـ٣ ص : ١٥ وما بعدها ، وتبيين الحقائق جـ ٦ ص : ٢٣٢ وما بعدها ، وتفسير القرطبى مجلد ٢ ص : ١٦٤ .

(٣) متفق عليه .. وأخرجه الترمذى

الإناث إذا لم يكن معهن ذكر ، كما أن فيها دلالة على أن الأولاد يأخذون الباقى بعد أنصبة أصحاب الفروض هؤلاء : للذكر ضعف الأنثى باعتبارهم عصبة (١) .

قال القرطبى (٢) : « قوله تعالى : ﴿ أولادكم ﴾ يتناول كل ولد ، مولودا أو جنينا فى بطن أمه دَنِيًّا أو بعيدا ، من الذكور أو الإناث ، ما عدا الكافر ، لقوله ﷺ : « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم » . قال بعضهم ذلك حقيقة فى الأَدْنَيْنَ مجاز فى الأبعدين » .

وقال الجصاص فى أحكامه (٣) : « قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ قد أريد به أولاد الصلب وأولاد الابن إذا لم يكن ولد الصلب ؛ إذ لا خلاف أن من ترك بنى ابن وبنات ابن أن المال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين بحكم الآية . وكذلك لو ترك بنت ابن كان لها النصف . وإن كن جماعة كان لهن الثلثان على سهام ميراث ولد الصلب . فثبت بذلك أن أولاد الذكور مرادون بالآية . واسم الولد يتناول أولاد الابن كما يتناول أولاد الصلب . إلا أن أولاد الصلب يقع عليهم هذا الاسم حقيقة ، ويقع على أولاد الابن مجازا . ولذلك لم يرادوا فى حال وجود أولاد الصلب ، ولم يشاركوهم فى سهامهم وانما يستحقون ذلك فى أحد حالين : إما أن يعدم ولد الصلب رأسا فيقومون مقامهم ، وإما أن لا يحوز ولد الصلب فى الميراث فيستحقون بعض الفضل أو جميعه . أما أن يستحقوا مع أولاد الصلب على وجه الشركة بينهم كما يستحقه ولد الصلب بعضهم مع بعض فليس كذلك . فإن قيل : لما كان الاسم يتناول ولد الصلب حقيقة وولد الابن مجازا لم يجز أن يرادوا بلفظ واحد لامتناع كون لفظ واحد حقيقة مجاز ، قيل لهم إنهم لم يرادوا بلفظ واحد فى حال واحدة متى وجد أولاد الصلب فإن ولد الابن لا يستحقون الميراث معهم بالآية . وليس يمنع أن يراد ولد الصلب فى حال وجودهم وولد الابن فى حال عدم ولد الصلب فيكون اللفظ مستعملا فى حالتين : فى إحداهما هو حقيقة ، وفى الأخرى هو مجاز » .

ويستفاد من كلام الجصاص أن لفظ الولد فى الآية خاص بالذكر حقيقة فى الابن الصلبى مجازا فى ابن الابن ، وأن ابن الابن لا يأخذ من التركة شيئا مع

---

(١) الشرح الكبير جـ٧ ص : ٥٧
(٢) القرطبى مجلد ٢ ص : ١٦٣١
(٣) الجصاص جـ٢ ص : ٨٤

وجود الإبن ولا يشاركه عند وجوده ؛ وأن نصيب الابن العصبة يقسم بالسوية على الأبناء العصبة عند مشاركتهم له ، وأن الآية الكريمة لم تتعرض لنصيب البنت الصلبية ، ولا البنات الصلبيات عند انفرادهن ؛ وانما بينت القاعدة العامة عند اشتراكهن مع الابن العصبة وهى : للذكر مثل حظ الأنثيين .

والابن عصبة بنفسه كالأب . وانما يقدم الابن على الأب فى الميراث بالعصوبة لقوله تعالى : ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ﴾ ، فإنه يدل على أن الأب صاحب فرض مع الولد ، والولد عصبة ، فدل على تقدمه فى العصوبة . والسر فى هذا أن فروع الانسان أشد اتصالا به من أصوله وفى طباع الناس إيثار الولد بالمال على الوالد .

وقدم بنو البنين وان نزلوا على الأب ؛ لأن سبب استحقاقهم أيضا البنوة المقدمة على الأبوة .

٢ـ ميراث البنت الصُّلبية

البنت الصلبية هى كل أنثى يكون للمتوفى عليها ولادة مباشرة . ويختلف ميراث الواحدة منهن عن المنضمة إلى غيرها . فإذا توفى شخص عن بنت واحدة فلها نصف التركة فرضا ، أما اذا ترك بنتين أو أكثر فلهن الثلثان بالسوية بينهن .

وهى من القسم الثانى للعصبات وهى العصبة بالغير ، وذلك إذا اشترك معها ابن صلبى فى نفس درجتها ، فإن اجتمع معها أخوها انتقلت من أصحاب الفروض الى العصبة وتكون فى الميراث على النصف من أخيها ، لقوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ .

والبنت الصلبية لها ثلاث حالات :

الأولى : أن البنت الواحدة ترث النصف بطريق الفرض ، وذلك إذا لم يكن معها ابن للمتوفى أو أبناء .

الثانية : أن البنتين فأكثر يرثن الثلثين بالسوية فرضا إذا لم يكن معهن ابن للمتوفى أو أبناء .

الثالثة : يرثن بطريق التعصيب واحدة أو أكثر اذا كان معهن ابن له أو أبناء فيأخذ الابن مثل نصيب البنتين .

وفى بيان ميراثها يقول الله تعالى : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴿١١﴾ ﴾(١)

فالآية بينت نصيب البنات اذا كن أكثر من اثنتين . وبينت نصيب الواحدة ، ولم تبين نصيب البنتين وحدهما ، فما هو نصيبها على التحديد .؟. ومن أى دليل يعرف قدر هذا النصيب ؟. وهل تلحق البنتان بالبنت الواحدة فيكون نصيبهما معا نصف التركة كنصيب البنت ؟. أو يلحقان بالثلاث والأكثر فيكون نصيبهما الثلثين ؟.

روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان يلحقهما بالبنت الواحدة فيعطيهما النصف أخذا بظاهر قوله تعالى : ﴿ **فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك** ﴾ فإن الآية قيدت فرض الثلثين للبنات بأن يكن أكثر من اثنتين .

وذهب غيره منَ الصحابة إلى إعطائهما الثلثين إلحاقا بالبنات أو الاكثر وهذا هو ماعليه أئمة المذاهب الفقهية (٢) وهو الراجح الذى تشهد له ظواهر النصوص القرآنية الصريحة .

وذلك أن نصيب البنتين يمكن الوقوف عليه من وجهين :

الأول : أن صدر الآية نفسها وهو قول الله تعالى : ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ يدل عليه ، فإنه يفيد أن المتوفى إذا ترك ابنا وبنتا كان للبنت نصف نصيب الابن فتقسم التركة أو الباقى منها بينهما أثلاثا . فللبنت الثلث . وللابن الثلثان . واذا كانت البنت تستحق مع الابن ثلث التركة فلايمكن أن يكون نصيبها أقل من ذلك لو كان معها بنت واحدة مكان الابن .

---

(١) سورةالنساء ـ آية ١١ .

(٢) يراجع : المغنى جـ٦ص : ١٧٠ ، احكام المواريث فى الشريعة الاسلامية لعيسوى أحمد عيسوى ص : ١٢٩ ـ ١٣٢ والتركة والميراث فى الاسلام ، د . محمد يوسف موسى ص : ٢٣٩ : ٢٤٠ .

الثانى : أنه قد نص فى آية أخرى على نصيب الأخت الواحدة ونصيب الأختين وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ (١) إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ (١٧٦) (٢) فإذا كانت الأختان ترثان الثلثين وهما أبعد قرابة من البنتين فالبنتان تكونان أولى باستحقاق الثلثين .

وعلى هذا يكون نصيب البنتين معروفا من القرآن لكل من الوجهين المذكورين .

وإذن يكون السر فى تقييد عدد البنات اللاتى يأخذن الثلثين بأن يكن فوق الاثنتين هو إفادة أن نصيب البنات مهما كثرن هو الثلثان لاغير ، فإنه قد يتوهم من زيادة سدس على نصيب البنت الواحدة اذا كانت معها بنت اخرى ليكون نصيبها الثلثين أنه كلما زاد عدد البنات واحدة فإنه يزاد لأجلها فى الفريضة بسدس ، فأريد دفع هذا التوهم بالنص على تعميم فريضة الثلثين لتشمل أكثر من بنتين مهما كانت هذه الكثرة .

وقد ثبت بالسنة أن رسول الله ﷺ أعطى البنتين الثلثين وذلك فيما رواه الخمسة إلا النسائى عن جابر قال : « جاءت امرأة سعد بن الربيع الى رسول الله ﷺ بابنتيها من سعد فقالت : يارسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى أحد شهيدا ، وان عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولاينكحان إلا بمال . فقال : يقضى الله فى ذلك . فنزلت آية المواريث . فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : أعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن ومابقى فهو لك »(٣).

---

(١) الكلالة : هى التى لايكون فيها للمتوفى والد ولا ولد .

(٢) سورة النساء ـ آية ١٧٦ .

(٣) نيل الأوطار جـ٦ ص : ٥٦ .

المراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - آداب الأوصياء « فى الفروع » للجمالى ، على بن أحمد بن محمد الجمالى الحنفى المفتى بالروم المتوفى ٩٣١هـ ، مطبوع بالمطبعة الأزهرية ، الطبعة الأولى ١٣٠٠ هـ .

٣ - أحكام القرآن : للجصاص ، أحمد بن على أبى بكر الرازى الجصاص الحنفى ، المطبعة البهية المصرية القاهرة ، ١٣٤٧ هـ .

٤ - إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم : لأبى السعود ، محمد بن محمد العمارى ، طبعة مطبعة محمد على صبيح ، القاهرة .

٥ - إحياء علوم الدين تصنيف الإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ٤ أجزاء دار الفكر بيروت .

٦ - إسلامنا : لسيد سابق ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ ، ١٩٦٧ م مطبعة المدنى .

٧ - أعلام الموقعين عن رب العالمين : لشمس الدين أبى عبدالله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١ هـ .

٨ ـ أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك « الشرح الصغير » : للدردير : أحمد بن محمد بن أحمد العدوى المالكى الأزهرى الحلوانى ، أبى البركات الشهير بالدردير ، وهو شرح لمختصر العلامة خليل بن اسحق ، طبعة دار المعارف بالقاهرة ٤ مجلدات سنة ١٣٩٢هـ . ١٩٧٢م .
٩ ـ الإحكام شرح أصول الأحكام : جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمى النجدى الحنبلى ١٣١٢هـ . ١٣٩٢هـ ، الطبعة الأولى ٤ مجلدات .
١٠ ـ الأحوال الشخصية فى الشريعة الاسلامية فقها وقضاء : تأليف عبدالعزيز عامر ، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ . ١٩٦١م .
١١ ـ الأشباه والنظائر : لأبن نجيم : زين العابدين بن ابراهيم بن نجيم الحنفى مطبوع جزء واحد ، مطبعة الحلبى القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م .
١٢ ـ الأم : للامام الشافعى : محمد بن ادريس بن شافع بن عبدالله ، طبعة دار الشعب بالقاهرة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م ٧ أجزاء .
١٣ ـ الأهلية وعوارضها والولاية فى الشرع الاسلامى : للشيخ أحمد إبراهيم أستاذ الشريعة الاسلامية كلية الحقوق ـ مجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى العدد الأول يناير ١٩٣١ ، والعدد الرابع ابريل ١٩٣١ ، والسنة الثانية العدد الأول يناير ١٩٣٢م .
١٤ ـ البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار : لأحمد بن يحيى بن المرتضى ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م .
١٥ ـ التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم : لمنصور على ناصف من علماء الأزهر الشريف ، ٤ مجلدات ، طبعة عيسى البابى الحلبى القاهرة ، الطبعة الرابعة .
١٦ ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف : تأليف الحافظ أبى محمد زكى الدين عبدالعظيم بن عبدالقوى المنذرى ٥٨١ ـ ٦٥٦هـ ، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ . ١٩٦٢ م مطبعة السعادة .

١٧ ـ التشريع الجنائى الاسلامى مقارنا بالقانون الوضعى :عبدالقادر عودة ـ جزءان ـ الطبعة الثالثة ١٩٧٧م . دار التراث للطبع والنشر .
١٨ ـ الجريمة والعقوبة فى الفقه الاسلامى (العقوبة) : محمد أبوزهره . ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربى .
١٩ ـ الحجر على الصغير والسفيه فى الشريعة الإسلامية ، رسالة لنيل الدكتوراه : سعاد ابراهيم صالح عام ١٩٧٥م جامعة الأزهر .
٢٠ ـ الشرح الكبير على متن المقنع : لابن قدامة : عبدالرحمن بن أبى عمر بن محمد بن أحمد ابن قدامة ، شمس الدين أبى الفرج ، طبعة دار الكتاب العربى ببيروت ، لبنان ١٣٩٢هـ . ١٩٧٢م .
٢١ – الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية : للامام المجتهد أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى بن قيم الجوزية ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٣٨٠هـ – ١٩٦١ م الناشر المؤسسة العربية للطباعة والنشر .
٢٢ – العقد المنظم للحكام فيما بين أيديهم من العقود والأحكام للكنانى ؛ عبد الله أبى محمد بن عبد الله بن سلمون الكنانى ، مطبوع .
٢٣ – العقوبات الشرعية وأسبابها : تأليف على قراعة رئيس المحكمة العليا الشرعية سابقا ، دار مصر للطباعة .
٢٤ – الفتاوى الأنقروية : مجموعة من العلماء الترك على مذهب الإمام ابى حنيفة النعمان ، تضم الشيخ محمد قطة العدوى ومحمد الصباغ ، طبعة بولاق بالقاهرة ١٢٨١ هـ ، ملتزم الطبع سليمان أغا .
٢٥ – الفتاوى الهندية « العالمكيرية » : لمجموعة من العلماء الهنود على مذهب الامام أبى حنيفة النعمان ، الطبعة الثانية ١٣١٠ هـ .
٢٦ – الفقه الاسلامى – المدخل ونظرية النقد – لعيسوى احمد عيسوى ؛ أستاذ الشريعة بحقوق عين شمس ، الطبعة الثانية ، مطبعة دار التأليف بالقاهرة .
٢٧ – المحلى بالآثار فى شرح المجلى بالاختصار : كلاهما لابن حزم الظاهرى الأندلسى المتوفى عام ٤٥٦ هـ ، طبع مطبعة النهضة بالقاهرة عام ١٣٤٧ هـ .
٢٨ – المدونة الكبرى : للامام مالك بن أنس الاصبحى ؛ رواها الإمام سحنون عن عبدالرحمن بن القاسم العتقى ، مطبوع ٦ أجزاء فى ٦ مجلدات مطبعة دار صادر ببيروت . طبعة جديدة بالأوفست من الطبعة القديمة المطبوعة

بدار السعادة بالقاهرة ١٣٢٣ هـ .
٢٩ - المستدرك على الصحيحين : للامام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابورى وبذيله التلخيص للحافظ الذهبى ، الناشر : مكتب المطبوعات الاسلامية حلب ، محمد أمين دمج ، بيروت - لبنان .
٣٠ - المصباح المنير : للفيومى أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى ، الطبعة الثانية مجلدان ، طبعة المطابع الاميرية ببولاق ، القاهرة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م .
٣١ - المصنف : للحافظ الكبير أبي بكر عبدالرزاق بن حمام الصنعانى ، من مصشوراژ المثلس اصعلميطالاسلا
ى ، ألطبعة الاولى ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
٣٢ - المغنى لابن قدامة ، عبد الله بن أحمد بن محمد أبي محمد ابن قدامة ، طبعة دار الكتاب العربي ببيروت ، لبنان ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ومخطوط رقم ١٧ فقه حنبلى بدار الكتب المصرية .
٣٣ - المهذب : لأبي اسحق ابراهيم الشرازى الفيروز أبادى المتوفى عام ٤٧٦ هـ طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بالقاهرة عام ١٣٢١ هـ .
٣٤ - بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع للكاسانى وهو علاء الدين بن مسعود الكاسانى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ . مطبوع فى ١٠ أجزاء طبع المطبعة الجمالية عام ١٣٢٨ هـ ، مطبعة العاصمة بالقاهرة الناشر زكريا على يوسف .
٣٥ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد : لابن رشد الحفيد أبي الوليد القرطبى ، مطبوع فى جزئين مطبعة البابى الحلبى بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م .
٣٦ - بلغة السالك لأقرب المسالك للصاوى أحمد بن محمد الصاوى المالكى المصرى مطبوع المكتبة التجارية القاهرة .
٣٧ - تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق : للزيلعى وهو عثمان بن على بن محجن فخر الدين الزيلعى المتوفى عام ٧٤٣ هـ ، وهو شرح على كنز الدقائق للنسفى ، طبع بولاق عام ١٣١٣ - ١٣١٤ - ١٣١٥ هـ وبهامشه حاشية الشلبى على شرح الزيلعى على كنز الدقائق .
٣٨ - تفسير الفخر الرازى « مفاتيح الغيب التفسير الكبير » : للفخر الرازى الطبعة الأولى المطبعة البهية المصرية بالقاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .
٣٩ - تفسير القرآن العظيم : للامام الجليل الحافظ عماد الدين ابى الفداء

اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ، طبعة مصححة على عدة نسخ خطية بدارالكتب المصرية دار الفكر .
٤٠ - تفسير القرطبى « جامع أحكام القرآن » للقرطبى محمد بن أحمد ابى عبد الله الأنصارى القرطبى ، طبعة دار الشعب ، القاهرة .
٤١ - تفسير المنار « تفسير القرآن الحكيم » : للشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا مطبعة المنار بالقاهرة اصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٤٢ - تفسير فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن على بن محمد الشوكانى ، توفى بصنعاء ١٢٥٠ هـ ، مطبعة الحلبى بمصر .
٤٣ - تفسير فى ظلال القرآن : بقلم سيد قطب الطبعة الشرعية السابعة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م دار الشروق ٨ مجلدات .
٤٤ - حاشية الدسوقى : لمحمد الدسوقى المالكى وهى على الشرح الكبير للدردير المسمى « فتح القدير » على مختصر خليل طبع المطبعة الأزهرية بالقاهرة عام ١٣٠٠ هـ .
٤٥ - حجة الله البالغة : للشيخ احمد المعروف بشاه ولى الدين بن عبدالرحمن المحدث الدهلوى قام بطبعه ونشره للمرة الاولى ١٣٥٥ هـ جماعة من محبى العلم والصلاح دار التراث جزءان .
٤٦ - رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الابصار : لأبن عابدين ؛ وهو محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز بن عابدين الدمشقى المتوفى عام ١٢٥٢هـ ، وهى حاشية على الدر المختار والمعروفة باسم حاشية ابن عابدين . مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة .
٤٧ - روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام من القرآن : بقلم محمد على الصابونى - جزءان - دار القرآن الكريم ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م .
٤٨ - زاد المعاد فى هدى خير العباد : لأبن قيم الجوزية الحنبلى ، طبع بالقاهرة ٤ أجزاء فى مجلدين .
٥٠ - سنن ابن ماجه : للحافظ محمد بن يزيد القزوينى ، أبى عبد الله ابن ماجه مطبعة الحلبى وشركاه . القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م .
٥١ - سنن البيهقى - السنن الكبرى - لأحمد بن الحسين بن على البيهقى أبى بكر الطبعة الأولى سنة ١٣٥٢ هـ .

٥٢ – سنن الترمذى « الجامع الصحيح » لمحمد بن عيسى بن سورة أبى عيسى
طبعة القاهرة .
٥٣ – شرح الزرقانى على موطأ الإمام مالك بن انس للعلامة محمد بن عبدالباقى
بن يوسف أبى عبد الله مطبوع .
٥٤ – صحيح البخارى للإمام ابى عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة
بن بردزيه البخارى الجعصى . طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة
العامرة باستنبول والحقوق محفوظة لدار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
٥٥ – صحيح السنن « سنن أبى داود » لسليمان بن الأشعث ابى داود
السجستانى ، طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة وعلى هامشه شرح الزرقانى .
٥٦ – صحيح مسلم بشرح النووى ليحيى بن شرف النووى الشافعى ابى زكريا
على صحيح الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم ابى الحسين ، المطبعة
المصرية ومكتبتها القاهرة .
٥٧ – عمدة القارى شرح صحيح البخارى للشيخ بدر الدين ابى محمد محمود بن
احمد العينى المتوفى عام ٨٥٥ هـ ، الناشر محمد امين دمج « بيروت » عنيت
بنشره وتصحيحه جماعة من العلماء بمساعدة ادارة الطباعة المنيرية .
٥٨ – فتح البارى شرح صحيح البخارى : لأحمد بن على بن محمد بن حجر
العسقلانى ابى الفضل شهاب الدين ، على صحيح الإمام البخارى محمد
بن اسماعيل ابى عبدالله مطبعة المطبعة البهية المصرية بالقاهرة سنة
١٣٤٨ هـ .
٥٩ – فتح القدير : لكمال الدين محمد السيواسى ثم السكندرى المشهور بابن
الهمام المتوفى عام ٨٦١ هـ ، وهو شرح على الهداية للمرغينانى ومطبوع
معها بمطبعة بولاق عام ١٣١٦ – ١٣١٨ هـ .
٦٠ – قواعد الأحكام فى مصالح الأنام لعبد العزيز بن عبدالسلام عز الدين
السلمى مطبوع فى جزئين بمجلد واحد مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة
١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م طبعة جديدة مضبوطة ومنقحة .
٦١ – كشاف القناع عن متن الإقناع : للبهوتى الحنبلى المتوفى عام ١٠٥١ هـ .
طبع المطبعة الشرقية بالقاهرة عام ١٣١٩ – ١٣٢٠ هـ .
٦٢ – مجلد الأحكام العدلية العثمانية : الشريف بن جابر عبد المطلب الحسنى
منشورات مكتبة النهضة ببيروت ، مطبوع فى ٤ مجلدات كبيرة .
٦٣ – مختار الصحاح للرازى : محمد بن أبى بكر بن عبد القادر مجلد واحد طبعة

المطابع الاميرية ببولاق القاهرة ١٣٥٥ هـ - ١٣٩٧ م .
٦٤ - مختصر أحكام المعاملات الشرعية (العقد) : لعلى الخفيف استاذ الشريعة الاسلامية حقوق فؤاد الأول مطبعة السنة المحمدية القاهرة ١٩٥٤ م .

٦٥ - مختصر شرح الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية : لزيد الابيانى مدرس الشريعة الاسلامية بمدرسة الحقوق الكلية الطبعة الرابعة القاهرة ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م .

٦٦ - معجم ألفاظ القرآن الكريم : للجنة من كبار علماء الدين واللغة مطبوع طبعة الهيئة العامة للكتاب - مجلدان - القاهرة .

٦٧ - مغنى المحتاج الى معرفة ألفاظ المنهاج لمحمد الشربينى الخطيب ، مطبوع فى ٤ مجلدات مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٨ م .

٦٨ - منهاج الطالب فى المقارنة بين المذاهب : تأليف د . عبد السميع أحمد إمام الطبعة الأولى - مطبعة حسان .

٦٩ - منهاج الطالبين وعمدة المعين : للنووى يحيى بن أشرف أبى زكريا النووى ، له شروح عديدة والمتن على المغنى مطبوع فى ٤ أجزاء مطبعة الحلبى القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٣٥٨ م .

٧٠ - منهج التربية الاسلامية لمحمد قطب - دار الشروق - الطبعة الثانية .

٧١ - مواهب الجليل شرح مختصر خليل : تأليف ابى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسى المعروف بالحطاب المتوفى سنة ٩٥٤ هـ . ملتزم الطبع والنشر مكتبة النجاح ، طرابلس - ليبيا .

٧٢ - نتائج الأفكار فى كشف الرموز والأسرار تكملة فتح القدير لقاضى زادة أفندى عسكرى روملى والنتائج مع الفتح مطبوعان فى ١٠ مجلدات طبعة أولى مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة .

٧٣ - نظام التجريم والعقاب فى الإسلام مقارنا بالقوانين الوضعية : المستشار على على منصور سلسلة الشريعة الاسلامية مقارنة بالقوانين الوضعية مؤسسة الزهراء بالمدينة المنورة .

٧٤ - نصب الراية لأحاديث الهداية لعبد الله بن يوسف الحنفى الزيلعى جمال الدين بن محمد إصدار المجلس العلمى بدابهيل - سورت ، الهند الطبعة الاولى ١٣٥٧ هـ .

٧٥ - نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج : للرملى المنوفى المصرى المتوفى عام ١٠٠٤ هـ ، وهو شرح على المنهاج للنووى طبع بولاق عام ١٢٩٢ هـ .

٧٦ - نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار للشوكانى محمد ابن على بن محمد قاضى قضاة القطر اليمانى طبعة مصطفى الحلبى القاهرة الطبعة الاخيرة ٨ أجزاء فى ٤ مجلدات .

تعريف بالمؤلفة

أ . د سعاد ابراهيم صالح

●● أستاذ الفقه المقارن بكلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات بجامعة الأزهر بالقاهرة .

●● رئيس قسم الفقه بكلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات بجامعة الأزهر بالقاهرة .

●● عميدة كلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات بجامعة الأزهر بالمنصورة

●● شغلت الوظائف التالية :

١ ـ معيدة بكلية البنات الاسلامية جامعة الأزهر بالقاهرة ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ م

٢ ـ مدرس مساعد بكلية البنات الاسلامية بجامعة الأزهر ١٩٧٢ ـ ١٩٧٥ م

٣ ـ مدرس بكلية البنات الاسلامية بجامعة الأزهر ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ م

٤ ـ أستاذ مساعد ورئيس قسم الدراسات الاسلامية بكلية التربية للبنات بجدة ـ المملكة العربية السعودية ١٩٧٦ ـ ١٩٨١ م

٥ ـ أستاذ مساعد بكلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات بجامعة الأزهر بالقاهرة ١٩٨١ ـ ١٩٨٤ م

٦ ـ أستاذ مشارك ورئيس قسم بكلية التربية للبنات بجدة ١٩٨٤ ـ ١٩٨٧ م

٧ ـ استاذ بكلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات بجامعة الأزهر بالقاهرة ١٩٨٧ ـ ...

٨ ـ مشرفة على الدراسات الإسلامية بكلية العلوم للبنات بجامعة الأزهر ١٩٩٠ ـ ١٩٩٣ م

٩ ـ مشرفة على الدراسات الحرة للسيدات بالجامع الأزهر ١٩٨٨ ـ ١٩٩٠ م

●● المؤهلات :

١ ـ ليسانس الدراسات الاسلامية من كلية البنات الاسلامية بامتياز مع مرتبة الشرف الاولى عام ١٩٦٧ م

٢ ـ التخصص (الماجستير) فى الفقه المقارن من كلية البنات الاسلامية بامتياز مع مرتبة الشرف الاولى عام ١٩٧٢ . وموضوع الرسالة « الطلاق بين الاطلاق والتقييد »

٣ ـ العالمية (الدكتوراه) فى الفقه المقارن من كلية البنات الاسلامية بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٥ م وكان موضوع الرسالة « أحكام الصغير والسفيه فى الشريعة الاسلامية » .

●● المؤلفات :

أ ـ الكتب

١ ـ علاقة الآباء بالأبناء فى الشريعة الاسلامية . (ثلاث طبعات) .
٢ ـ أضواء على نظام الأسرة فى الاسلام . (طبعتان)
٣ ـ مبادىء النظام الاقتصادى الاسلامى وبعض تطبيقاته . (طبعتان)
٤ ـ أحكام تصرفات الصغير فى الشريعة الاسلامية .
٥ ـ أحكام تصرفات السفيه فى الشريعة الاسلامية .
٦ ـ أحكام عبادات المرأة فى الشريعة الاسلامية . (ثلاث طبعات) .
٧ ـ أحكام الميراث والوصية .

ب ـ البحوث :

١ ـ سمو الاسلام فى تكريم المرأة (مقدم لمؤتمر المرأة والتنمية بالقاهرة ١٩٩٢ م)
٢ ـ تكريم الاسلام للمرأة .. عطاء بلا حدود (مقدم لمؤتمر العطاء الحضارى للاسلام بالاسكندرية ١٩٩٣ م)
٣ ـ الأسس العقائدية والتشريعية والأخلاقية للاقتصاد الاسلامى (مقدم للمؤتمر العام السادس للمجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالاسكندرية عام ١٩٩٤) تحت عنوان (حاضر الامة الاسلامية ومستقبلها)

فهرست

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مشروعات رائدة

لقطاع البترول

بشركة الاسكندرية للبترول





المهندس / حمدي البنبي

دكتور / سيد الخراشي رئيس مجلس إدارة الشركة

قطاع البترول ودوره الرائد في المحافظة على البيئة ودعم الاقتصاد القومي

مشروعات جديدة بشركة الاسكندرية للبترول

في مجال التكرير والتصنيع وحماية البيئة

استهدف تأسيس الشركة سنة ١٩٥٤ مد منطقة الاسكندرية وغرب الدلتا بالمواد البترولية وقد تأسست شركة الاسكندرية للبترول عام ١٩٥٤ حيث أنشئ أول معمل لتكرير البترول بها بطاقة إنتاجية ٢٥٠ ألف طن / سنة أمكن رفعها إلى ٢,٢ مليون طن ثم إلى ٣,٥ مليون طن وذلك بعد انشاء وحدتي التقطير رقمي "٢"، "٣" في عامي ١٩٦٣، ١٩٦٨ على الترتيب.

شركة الاسكندرية للبترول

وتقوم الشركة حالياً بإنتاج المنتجات الأساسية التالية :

البروبان ، البوتاجاز ، البنزين ، النافثا ، الكيروسين ، التربنتين ، السولار ، الديزل ، المازوت .

هذا وتتوفر لدى الشركة طاقات إنتاجية زيادة عن احتياجات السوق المحلى والتى يمكن تصدير الفائض منها للخارج ويمكن للسادة العملاء الاتصال بالشركة وذلك فيما يخص المنتجات الآتية :

الكيروسين المعالج بالايدروجين والمستخدم فى صناعة اللدائن وسولفنت ، مذيب الهكسان المستخدم فى استخلاص الزيوت والعطور ، والأسفلت الصلب والشموع الصلبة المعالجة بالأيدروجين المستخدمة فى الصناعات الغذائية والدوائية .

مشروعات الشركة فى الخطة الخمسية الحالية :

.. وفى ضوء سياسة قطاع البترول والتى تهدف أساساً الى سد جميع احتياجات السوق المحلية ووقف الاستيراد وتصدير الفائض بهدف زيادة الدخل القومى وتوفير النقد الأجنبى وتحسين ميزان المدفوعات . تم إدراج تنفيذ المشروعات الهامة التالية خلال سنوات الخطة ، حيث روعى تعظيم دور شركات قطاع البترول الوطنية وتنفيذ السياسة التى وضعها السيد الدكتور مهندس / حمدى البنبى وزير البترول والثروة المعدنية بالتعاون مع السيد الدكتور مهندس / رئيس مجلس إدارة الهيئة المصرية العامة للبترول وقيادات قطاع البترول المخلصة حيث تم وضع أسلوب قومى ووطنى لتنفيذ المشروعات الجديدة يعتمد على استخدام الشركات الوطنية وتعظيم دورها وخاصة بالنسبة لأعمال التصميمات الهندسية فيتم اسنادها لشركة إنبى وأعمال التركيبات والإنشاءات والتصنيع المحلى للمعدات ويتم اسنادها لشركة بتروجيت . ونقل التكنولوجيا العالمية الحديثة فى هذا المجال وذلك بالإضافة الى توفير الاستثمارات المطلوبة لتنفيذ هذه المشروعات بتمويل من البنوك الوطنية بدلاً من القروض الخارجية .

شركة الاسكندرية للبترول

ومن أبرز مشروعات شركة الاسكندرية للبترول المدرجة فى الخطة الخمسية الحالية مايلى :

● **مشروع إعادة تكرير الزيوت المستعملة :**

ويهدف المشروع الى إعادة تكرير ٣٠٠٠٠ طن سنويًا من الزيوت المستعملة لانتاج زيوت أساسية متعادلة معالجة بالايدروجين وتبلغ تكلفة المشروع الرأسمالية ١٣٣ مليون جنيه .

● **مشروع المرحلة الثانية لانتاج الزيوت المتعادلة والخاصة :**

وقد تم البدء فى تنفيذه حاليًا بمجمع زيوت التزييت وذلك بطاقة إنتاجية ٩٨٠٠٠ طن سنة وتبلغ التكلفة الرأسمالية المبدئية للمشروع ١٨٠ مليون جنيه .

● **مشروع خلط وصب وتعبئة الأسفلت الصلب للتصدير :**

ويهدف المشروع الى إنتاج ١٠٠ ألف طن سنة من الأسفلت الصلب ٦/١٢، ١٠/٢٠، ٢٠/٣٠، ٣٠/٤٠، ٤٠/٥٠ وذلك بتعبئته فى شكاير من البولى إيثيلين وتجميعه على بلتات لسهولة نقله وتصديره . وسوف يتم تنفيذ المشروع على مرحلة واحدة وقد تم طرحه على الشركات العالمية المتخصصة .

ومن المتوقع تشغيله فى عام ١٩٩٥ وتبلغ التكلفة الاستثمارية للمشروع حوالى ٦٤ مليون جنيه

● **مشروع خفض درجة انسكاب السولار المنتج من خليط خامات الصحراء الغربية وزيادة إنتاجية السولار :**

ويهدف المشروع الى تحسين مواصفات السولار المنتج من خليط خامات الصحراء الغربية ذات الطبيعة البرافينية وسيتم تنفيذ مشروع معالجة السولار بطاقة إجمالية حوالى مليون طن / سنة من خليط السولار وزيت المغازل وكميات من المقطر الشمعى الخفيف .

هذا وتقوم الشركة حاليًا بعمل الدراسات اللازمة لتنفيذ المشروعات التالية :

١/ مشروع انتاج مواد عزل الأسطح البتيومينية بطاقة ٥ر٤ مليون متر مربع سنويًا .

٢/ مشروع إزالة مركبات الكبريت من الكيروسين المنتج .

٣/ مشروع إزالة مركبات الكبريت من السولار المنتج .

٤/ مشروع استرجاع الكبريت لحماية البيئة وتوفير الكبريت اللازم فى المجال الزراعى .

شركة بترول بلاعيم (بتروبل)

٤٠ عامًا
اسهامًا فى دعم الاقتصاد القومى





د. حمدى البنبى
وزير البترول



م. إبراهيم الشافعى
رئيس مجلس الإدارة

- **بلغ الإنتاج المجمع ١,٥ بليون برميل زيت و ١,٣ ترليون قدم مكعب غاز .**
- **لأول مرة فى افريقيا والشرق الأوسط يتم تسيير السيارات بالغاز الطبيعى .**

شركة بترول بلاعيم "بتروبل" هى احدى الشركات الرائدة فى انتاج البترول والغاز الطبيعى ومشتقاته فى جمهورية مصر العربية ، حيث تعتبر أولى الشركات المنتجة للغاز الطبيعى وثانية أكبر الشركات المنتجة للبترول بالاضافة إلى أنها الأقل فى تكاليف الإنتاج والتشغيل ، مما جعلها تساهم مساهمة كبيرة فى الدخل القومى .

وبتروبل هى ثمرة تعاون مشترك بين الحكومتين المصرية والايطالية كنتيجة لسياسة الانفتاح الاقتصادى التى تتميز بالحرية فى الادارة والسرعة فى التنمية وارتفاع مستوى الاداء . بالاضافة الى ضمان التمويل الخارجى بالعملة الصعبة وعدم المخاطرة برأس المال المصرى .

وقد بدأ نشاط الشركة فى انتاج الزيت من حقول بلاعيم البرية فى جنوب شبه جزيرة سيناء عام ١٩٥٣ ثم من حقول بلاعيم البحرية بخليج السويس عام ١٩٦٢ وهو يعتبر أول كشف بحرى فى خليج السويس .

وتم تكثيف الانفاق على نشاط إنتاج الزيت على مدى سنوات عمر الشركة حيث بلغ اجمالى الانفاق الى ما يزيد على ٢,٦ بليون دولار منها ما يزيد عن بليون ونصف للانفاق الاستثمارى لانشطة الاستكشاف والحفر والمشروعات وحوالى بليون دولار للانفاق على مصروفات التشغيل والإنتاج .

شركة بترول بلاعيم

إفتتاح محطة تموين السيارات بالغاز الطبيعي



الدكتور عاطف صدقي رئيس الوزراء يفتتح أول محطة تموين للسيارات بالغاز الطبيعي في مصر والشرق الأوسط وكان في استقبال سيادته الدكتور حمدي البنبي وزير البترول والمهندس ابراهيم الشافعي رئيس مجلس إدارة الشركة

وتولت الشركة القيام بكبرى الأنشطة لحماية البيئة من التلوث، بالتعاون مع الشركات الشقيقة وأجهزة الحكم المحلي حيث أقامت عدة مشروعات لهذا الغرض لمنع تلوث [illegible] البحر وحماية الثروة السمكية [illegible] المنظمة للحفاظ على البيئة [illegible] الغاز الطبيعي كوقود [illegible] وقد قامت الشركة بمشروع [illegible] لتشغيل الأوتوبيسات تعمل [illegible] من التلوث مع تخفيض بديل للسولار والبنزين توفيرًا للمنتجات البترولية وحماية للبيئة [illegible] في تكاليف [illegible] الضارة بالصحة [illegible] التشغيل.

وقد قام السيد الدكتور **عاطف صدقي** رئيس مجلس الوزراء والسيد الدكتور **حمدي البنبي** وزير البترول في 7 اغسطس **١٩٩٤** بافتتاح أول محطة في أفريقيا والشرق الأوسط **لتموين السيارات بالغاز الطبيعي** والتي أقامتها الشركة تمهيدًا للتعميم [illegible] التجربة والاستفادة منها في وسائل النقل بصفة عامة.

وكان في استقبالهم السيد المهندس **إبراهيم الشافعي** رئيس مجلس إدارة الشركة.

كل تلك الإنجازات ساعدت على تحقيق مناخ الاستقرار الاقتصادي الذي شجع على تدفق الاستثمارات الأجنبية للمشاركة في قطاع البترول وكذلك أتاحت فرص العمل للعاملين [illegible] من الجهد والعرق.

شركة خالدة للبترول ..
حقائق وأرقام



جيولوجى/ جمال الدين حنطر
رئيس مجلس إدارة الشركة



د. حمدى البنبى وزير البترول



الرئيس مبارك

تأسست شركة خالدة للبترول

فى ١١ سبتمبر ١٩٨٥ كشركة قائمة بالعمليات نيابة عن الهيئة المصرية العامة للبترول وشركة فينكس ريسورسز مصر وذلك للقيام بعمليات البحث عن البترول وتنميته وإنتاجه طبقًا لاتفاقية الامتياز البترولى الصادرة بالقانون رقم ٩ لسنة ١٩٨١، وبعد ذلك تنازلت شركة فينكس عن ٥٠ ٪ من حصتها لشركة كونوكو وسامسونج وأصبحت الاتفاقية معقودة مع شركات «كونوكو مصر» و«فينكس ريسورسز مصر» و«سامسونج المحدودة» على أساس أن شركات كونكو وفينكس وسامسونج هم «المقاول».

وفى ١٩٩١/١/٨ اشترت شركات «ريسول مصر» حصة شركة «كونوكو» مصر فى اتفاقية الامتياز ومنذ هذا التاريخ أصبحت الاتفاقية معقودة مع شركات «ريسول مصر» وفينكس ريسورسز مصر» و«سامسونج المحدودة» وهم المقاول.

■ ولقد تحقق اكتشاف حقول خالدة فى الصحراء الغربية بعد أن ساد الاعتقاد أن صحراءنا الغربية لا تحوى سوى جيوب صغيرة من البترول ذات احتياطات ضعيفة حتى أن بعض الشركات العالمية الكبرى التى كانت تعمل فى هذه المنطقة وضعت تقريرًا فنيا يؤكد خلوها من أى احتمالات بترولية ذات قيمة، ثم جاء بعد ذلك كشف حقل سلام ليدحض هذا الاعتقاد.

إن هذه الصحراء سوف تبوح بكنوزها بجهد أبنائها وستتحول بإذن الله على أيدى العاملين المخلصين من شركة خالدة وشركات أخرى شقيقة عاملة بالصحراء الغربية إلى واحة بترولية وركيزة من ركائز الاقتصاد المصرى وبرغم حداثة عمر شركة خالدة فإن لها أكبر احتياطيات وهى أكبر منتج للزيت فى الصحراء الغربية وإنتاجها الحالى يتأرجح حول الرقم «٣٢،٠٠٠» برميل يوميًا.

"خالدة" للبترول

٨٩ مليون برميل من الزيت الخام احتياطي الشركة

حقول جديدة تم اكتشافها :

ولقد حققت الشركة عددًا من الاكتشافات البترولية والغازية في منطقة الصحراء الغربية وأثبتت وجود الزيت والغاز في طبقات العصر الجوارسي وهو مستوى جيولوجي لم يكن معروفًا من قبل باحتوائه على إمكانيات بترولية وفتح هذا الاكتشاف الباب أمام شركات عديدة لاكتشاف عدد من حقول الغاز في مناطق أخرى في المستوى نفسه الجيولوجي .

كان عدد الحقول المكتشفة وقت أن تأسست الشركة حقلين فقط وأصبح الآن عددهم أربعة عشر حقلاً للزيت وحقلان للغاز بالإضافة إلى حقل يحتوي على الزيت والغاز .

أحدث التكنولوجيا .. لأعلى معدلات للإنتاج :

وشركة خالدة دائمًا سباقة في استخدام أحدث التكنولوجيات لتحقيق معدلات الإنتاج والتي من أمثلتها :

- استخدام نظام دراسة المكامن البترولية بأحدث النظم التكنولوجية وهو نظام المحاكاه بالحاسب الآلي .
- أول من أدخل تكنولوجيا حفر الآبار الأفقية في مصر .
- تصميم وتنفيذ عمليات الحقن بالمياه في الصحراء الغربية كإحدى طرق الإنتاج الثانوية مع استخدام طريقة التحكم في كميات الحقن في كل خزان ومن خلال بئر واحد باستخدام صمامات الحقن .
- استخدام المياه المصاحبة للزيت في عمليات الحقن بالمياه بعد معالجتها .
- حققت رقمًا قياسيًا في سرعة حفر الآبار نتج عنه أقل تكلفة لحفر القدم الواحد في الحفر البري .
- الشركة الأولى في مصر التي نجحت في استخلاص المتكثفات عن طريق خلط الغاز بالخام للحصول على أعلى نسبة استخلاص .
- تصميم نظام التزامن للمولدات الكهربائية على الآبار بحيث تتم عمليات الإصلاح والصيانة للمولدات بدون الحاجة إلى إيقاف الإنتاج .
- لقد صارت سياسة خفض التكاليف التي تنتهجها إدارة شركة خالدة منذ إنشائها بمثابة العقيدة بالنسبة لكل العاملين مما ساعد على تحقيق انخفاض كبير في سعر تكلفة البرميل الخام المنتج حيث بلغ دولارًا واحدًا وأربعة عشر سنتًا .
- تمكنت الشركة من الوصول إلى إنتاج مجمع من الزيت الخام يقدر بخمسين مليون برميل خلال الثماني سنوات من عمرها وقد توج هذا العمل بحصول الشركة على كأس الإنتاج لعام ١٩٩٢ .
- كانت الاحتياطيات وقت تكوين الشركة حوالي ٤٠ مليون برميل وعلى الرغم من إنتاج أكثر من ٧٢ مليون برميل حتى الآن إلا أن الاحتياطي المتبقي وصل إلى حوالي ٨٩ مليون برميل وهو ما يزيد عن ضعف الاحتياطيات المثبتة وقت تأسيس الشركة .

خالدة للبترول

خالدة للبترول تضم مجموعة من الخبرات والكوادر البشرية المختارة عملاً وعلماً وخلقاً .

عوامل التميز فى خالدة للبترول

إن سبب هذا التميز لهو اجتماع مجموعة من الخبرات والكوادر البشرية المختارة عملاً وعلماً وخلقاً وتفانيهم فى عملهم وولائهم لشركتهم تحت قيادة واعية ومخلصة بفضل السياسة الحكيمة التى وضعتها الهيئة المصرية العامة للبترول تحت قيادة السيد الدكتور م . وزير البترول والسيد الدكتور م . رئيس الهيئة من أجل بناء وتنمية شركة خالدة حتى أصبحت أسرة واحدة هدفها البناء والإنجاز وبسبب الأداء المتميز والعمل الجاد المتواصل فى المجالات المختلفة عن طريق إدارات الشركة المختلفة والعاملين بها فقد ارتأت شركة ريبسول (الشريك الأجنبى) أن تقوم شركة خالدة بالعمليات فى مناطق امتيازها فى جنوب أم بركة ومباركة وعلى الرغم من أن هذه المهمة قد اسندت لشركة خالدة فى ٩٤/٧/١ فإن انتاج المنطقتين قد تضاعف مما يعكس المجهود غير العادى الذى قام به العاملون بشركة خالدة .

- إننا نفخر بأن نكون جزءاً فى هذا البناء المتميز بين قطاعات البترول فى مصر لتظل شركة خالدة دائماً عملاقة ورائدة وخالدة بإذن الله .
- وأخيراً وليس آخراً فإننا نركز على أهدافنا دائماً ونتقدم نحو تحقيقها باستمرار . وهذه الأهداف هى :
  - * استمرار التأكيد على تحقيق أعلى معدلات الكفاءة فى جميع نشاطات الشركة .
  - * الحفاظ على أنسب معدلات الانتاج بأقل التكاليف .
  - * تدريب العاملين بشركة خالدة على أحدث التقنيات التى تغطى مختلف نشاطات الشركة .
  - * إضافة احتياطيات بترولية جديدة من أجل مستقبل أجيالنا .. أجيال مصر .

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

الطبعة الثالثة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

رقم الايداع ٣٣٢٩ / ١٩٩٥
الترقيم الدولى ١ - ٠٤٢ - ٢٢٩ - ٩٧٧ - I·S·B·N